الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



رواية

هرمن هيسه

پيتر كامينتسند

ترجمة: دكتور مصطفى ماهر

الكاتب

• هِرمَن هيسّه (١٨٧٧ ــ ١٩٦٢)، كاتب ألمَاني.
• وُلِد هِرمَنْ هيسّه عام ١٨٧٧ ببلدة "كَلْفْ" جنوبَ غرب ألمانيا.
• كتبَ الشعرَ والرواية، وعندما صدرت الطبعة الأولى من روايته "بيتر كامينتسند" عام ١٩٠٤ دفعت بشهرته إلى آفاق بعيدة.
• من أهم مؤلفاته على الإطلاق "لُعبةُ الكريات الزجاجية"، "الدنيا"، "تحت العجلة"، "جيران"، "طرق ملتوية"، "دميان"، "ذئب البطاح" وقد بلغت مؤلفاته مائتى عنوان توزّعت على الشعر والرواية والدراسات بالإضافة لمئات المقالات.
• حاز جائزة نوبل عام ١٩٤٦ بعد أن حاز العديد من الجوائز الأدبية المهمة خلال مسيرته الإبداعية.

الجائزة

جائزة نوبل فى الآداب

أكبر جائزة فى العالم، وأعلى مرتبة من جميع التقديرات. تمنح فى فروعها المختلفة كل عام فى العاشر من ديسمبر، وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعى السويدى ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذى أسسها عام ١٨٩٥، كدعوة لتحقيق السلام فى العالم.
ومنذ عام ١٩٠١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزة على الأدباء والعلماء ودعاة السلام، الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رقى الإنسانية وتطورها.
وجائزة نوبل فى الآداب هى أرفع جائزة أدبية فى العالم، وهى تمنح لقمم الإبداع فى فروعه المختلفة: رواية.. شعر.. مسرح، وأول من حصل عليها من العالم العربى الكاتب المصرى "نجيب محفوظ" عام ١٩٨٨.

پیٹر کامینسنڈ

هيسه، هرمن.

بيتر كامينتسند: رواية/ هرمن هيسه؛ ترجمة: مصطفى ماهر. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

٢٤٨ ص ؛ ٢٢ سم . ـ (جوائز)

تدمك ٤ ٦٩٢ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الألمانية.

أ ـ ماهر، مصطفى. (مترجم)

ب ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٣٤٢/ ٢٠١٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 692 - 4

ديوى ٨٣٣

بيتر كامينتسند

رواية

هرمن هيسه

ترجمة: دكتور مصطفى ماهر



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٠

• الكتاب: **بيتر كامينتسند**

Peter Camenzind

• المؤلف: **هيرمان هيسه**

Hermann Hesse

• ترجمة: **دكتور مصطفى ماهر**

• الطبعة الأولى ١٩٦٨ وزارة الثقافة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.

• الطبعة الثانية ٢٠١١.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

«بيتر كامينتْسيد»
مقدمة المترجم
عام ١٩٦٨

ليس هرمن هيسه جديداً على القارئ العربى، فقد سبق أن كتبنا عنه فى العدد الأول من مجلة الفكر المعاصر، فى مارس ١٩٦٥، مقالاً بعنوان «هرمن هيسه» ومحنة الثقافة المعاصرة»، تعرضنا فيه لحياته ومؤلفاته عامة، ولروايته الكبرى «لعبة الكريات الزجاجية»، خاصة. لعل ترجمتنا لهذه الرواية الضخمة تصدر عما قريب. وإذا كانت رواية «لعبة الكريات الزجاجية»، هى أهم أعمال هرمن هيسه، فرواية «بيتر كامينتسند» هى الرواية التى دفعت بهرمن هيسه إلى الشهرة عندما صدرت فى عام ١٩٠٤م.

ولد هرمن هيسه فى يوليو عام ١٨٧٧م ببلدة صغيرة اسمها «كلَف» على نهر الناجولد، الذى ينبع من الغابة السوداء فى جنوب غرب ألمانيا، ويتصل بنهر النيكار فالراين، فى منطقة وهبتها الطبيعة جمالاً خلابًا متنوعاً، من غابات وبحيرات وجبال، ومكنت فيها لعنصر من الناس يتميز بالصلابة وبالنشاط وبالذكاء، وكان أبو هرمن هيسه مبشراً، نشطًا فى التبشير فى الهند خاصة فلما اعتلت صحته عاد من الهند إلى ألمانيا وتزوج بأرملة كان أبوها يحترف التبشير هو كذلك، وعاشا معا فى جو

قاس من التدين المفرط، فى هذا الجو خرج هرمن إلى الوجود، وفى هذا الجو نشأ وقضى السنوات الأولى من حياته. وكان هرمن - بطبيعته - متمرداً، ثائراً، فثار على كل شيء على أهله وعلى نظام حياتهم، وثار على الجو الدينى القاسى فى بيتهم، وثار على الثقافة كلها، وعلى الناس جميعًا.

ولم تكن سنوات هرمن فى المدرسة إلا سنوات تمرد. كان تلميذاً متلكئًا، لا يتعلم إلا ما يريد هو، لا ما يريد المعلمون، وكان أن ترك المدرسة وكانت مدرسة يمثلها دير ماولبرون، ويقوم عليها الرهبان ومن يستعملونهم عليها وفيها. فلما انفصمت عرا الصلة بين هرمن وبين هذه المدرسة أرسله أبوه إلى مدرسة «علمانية» هى مدرسة كانشتات. فلم يكن نجاحه فيها بأفضل من نجاحه فى مدرسة الدير. ومهما يكن من أمر فقد أصاب هرمن فى المدرستين طرفًا من المعلومات الأساسية لا يستهان به، وأنه أحسن بأنه صاحب موهبة وصاحب رسالة سيأتى يومها حتماً قريباً أو بعيداً.

ولاشك أن أسلوب هرمن فى الحياة، أسلوب الشاعر الفنان الحر، لم يكن بالأسلوب الذى يعجب أهله، ومادام دب الخلاف بينهما، وظن الأب أن المشكلة تنتهى إلى حل طيب، إن هو حول ابنه إلى احتراف مهنة يكسب بها قوت يومه ويقيم على أساسها حياته المستقبلة. وهكذا أصبح ابن الثامنة عشرة موظفاً فى مكتبة بتوبنجن. وفى عام ١٨٩٩م أخرج هرمن هيسه كتابه الأول، وهو ديوان من الشعر اسمه «أغنيات رومانسية» لم يلق نجاحًا كبيراً.

ثم اتبع هذا الكتاب كتباً أخرى منها مثلا «ساعة بعد منتصف الليل» وكلها كتب لم تلق إلا القليل من النجاح. وانتقل هرمن من توبنجن إلى بازل بسويسرا، حيث قسم

وقته بين العمل وبين التأليف. حتى جاء عام ١٩٠٤م، وأخرج درته «بيتر كامينتسند» فجعلت اسمه على كل لسان.

وظهرت لهرمن هيسه مؤلفات كثيرة بعد ذلك، نذكر منها «تحت العجلة» و «الدنيا» و «جيران» و «طرق ملتوية». وكلها كتب فى اتجاه «بيتر كامينتسند» فيها النقد الشديد لحياة الناس، وفيها صرخة مدوية من حياته هو التى أطبقت عليها العزلة والكآبة، وفيها حنين إلى وحدة ثقافية لا يجدها فيما حولها. وفى عام ١٩١١م سافر هرمن هيسه إلى الهند، وعاش هناك عدة سنوات، تبين بعدها أن المحنة التى يتعرض لها والتى مادام ظن أن الظروف الخارجية هى المسئولة عنها، محنة سببها فى داخل الإنسان. وعاد إلى سويسرا وسكن مدينة برن وأتم كتابه «ثلاث حكايات من حياة كنولب» (١٩١٥م). وأهتم بالدراسات النفسية وأخرج متأثراً بها رواية «دميان» (١٩١٩م)، ثم انتقل هرمن هيسه بعد ذلك إلى السكن فى مونتانيولا بمنطقة تيسين، وأكثر من التأليف. ونخص من إنتاجه الضخم فى هذه الفترة رواية «ذئب البطاح» (١٩٢٧م) و«نارتسيس وجولدموند» (١٩٣٠م).

وعكف هرمن هيسه فى الفترة من عام ١٩٣١م إلى عام ١٩٤٣ م على كتابة «عمل حياته» الرواية الخالدة «لعبة» الكريات الزجاجية «التى وصل فيها إلى قمة عبقريته الأسلوبية والتشكيلية والفلسفية. وقد عاصر تأليف وخروج هذه الرواية عصر الظلام فى ألمانيا، عصر الهتلرية النازية، التى انتهى بنهاية الحرب العالمية فى عام ١٩٤٥م. وفى عام ١٩٤٦م نال هرمن هيسه جائزة نوبل. وتوالت عليه الجوائز وألوان التشريف والتكريم. وربما كان آخرها حصوله على لقب مواطن شرفى لمونتانيولا فى عام ١٩٦٢م، وفى العام نفسه مات وقد بلغ من العمر الخامسة والثمانين، وبلغ ما قدمه إلى المكتبة الإنسانية نحو ٢٠٠ رواية وديوان شعر ومئات من المقالات والدراسات، التى بدأ

الباحثون فى جمعها وما أحسب إلا أنهم سيحتاجون إلى سنوات كثيرة للفراغ من ذلك.

رواية «بيتر كامينتسند» رواية أوتوبيوجرافية إلى حد كبير، ونعنى بهذا أنها رواية مثل رواية «الأيام» لطه حسين و «يوميات نائب فى الأرياف» لتوفيق الحكيم، يستخدم فيها الكاتب أحداث حياته إلى درجة كبيرة، فكأنما هو يحكى حياته الخاصة، والأدباء - عادة - يحبون إضافة عناصر مشوقة، وحذف عناصر غير مهمة، حتى يصبح العمل الفنى «رواية» وواضح فى رواية «بيتر كامينتسند» مثل أن الكاتب جعل من أبيه فلاحًا، وجعل منه سكيرًا، وهى عناصر لا تعكس الواقع تمامًا. - ورواية «بيتر كامينتسند» فضلا على ذلك، رواية من النوع الذى يصور نشأة إنسان، مثل رواية «زمبليتسيسموس» لجريملسهاوزن أو «هاينريش الأخضر» لجوتفريد كيللر و «لعبة الكريات الزجاجية»، فهى رواية تتبع نشأة شخص من الطفولة إلى أن يصبح شيئًا ما. هنا تتبع الرواية بيتر كامينتسند وكيف نشأ فلاحًا وابن فلاح، ثم تحول بطريق المصادفة إلى متابعة العلم فى المدارس ثم الجامعة، ثم أصبح على مفترق الطريق بين احتراف الأدب وبين العودة إلى القرية لافتتاح حانة أو لتولى حانة قديمة.

وعلى الرغم من أن هذه الرواية هى الرواية الأولى لهيسه، فإنها تحتوى على عناصر كثيرة ظلت ملازمة له فى أعماله كلها فيما بعد، فهى رواية فيها كثير من الرومانتيكية المحدثة، وأنها لتذكر الإنسان برواية «رينيه» لشاتوبريان وبغيرها من الروايات الرومانتيكية الأولى، التى انطلقت فيها العاطفة صارخة، والتى دخلت فيها عناصر الطبيعة بفطرتها إلى محيط الحياة الإنسانية، وأصبح الاندماج بين الإنسان والطبيعة، بين مشاعره الوجدانية، وبين انطباعاته الحسية، من أهدافها أولاً ومن مميزاتها بعد ذلك.

والطبيعة عند هرمن هيسه فى «بيتر كامينتسند» هى الأصل، وهى الشىء المهم، وهى التى تعنى الإنسان «الفرد» وهذه الطبيعة هى أخت الإنسان وعناصرها إخوة وأخوات الإنسان، وهى أفضل من الإنسان؛ لأنها مجردة من الشر والخير. وفى هذه المرحلة تدخل فلسفة القديس فرانشيسكو الاسيزى، فتعطى فكرة هيسه قوة تاريخية ومسحة صوفية، وتبرز من فلسفة هذا القديس الكبير خاصة «أخوة الكائنات» فى الحب، والكائنات والإنسان منها، يمكن أن تكون فى انسجام، ويمكن أن تكون فى تفكك، فما هذا العامل الذى يؤدى إلى الانسجام والتماسك؟ وما العامل الذى يؤدى إلى التفكك؟

نجد هرمن هيسه فى هذه الرواية يتحدث عن عنصرين مهمين: عنصر الموت - وعنصر الحب. وهو فيما بعد، فى رواية «لعبة الكريات الزجاجية» سيوسع هذا الأفق فيدخل فيه التأمل الهندى، ويدخل فيه مبدأ الين واليانج من الفلسفة الصينية. ومهما يكن من أمر، فالحياة لها قطبان. كالتنفس: زفير وشهيق. وهذان القطبان يظهران فى نواحيها المختلفة، والانسجام يتحقق فى الوسط - وسيتوصل هرمن هيسه فى مؤلفاته التالية إلى أسباب محنة حياة الناس فى هذا العصر، ويرجع إلى اليوم الذى كانت فيه الحياة البشرية منسجمة فى كل، ثم دب فيها الفساد فتقسمت إلى أجزاء يعارض الواحد منها الآخر.

وفى وسط هذه الحياة التى يحاول الشاب بيتر أن يتغلب فيها على محنته التى كثيراً ماوصفها بالانفصام، نجد الطريق يمتد فيشمل الرحلات وما تتيحه من صلة بين الإنسان والأرض، وتشمل النزول إلى الطبقات التى لم يتلفها تكلف الحياة المرفهة، وتشمل الارتماء فى وسط

الخبرات الإنسانية الرئيسية من الحب إلى الموت، وتشمل التأمل الذاتى: فالمشكلات كلها فى نفوسنا والتمسك بالفضائل، والعودة إلى الصواب إذا طرأ ضلال، حتى حديث الإدمان على الخمر، حديث ينطوى على المرارة وعلى وخز الضمير.

وتبين هذه الرواية العظيمة فى أسلوبها وفى مضمونها، والتى تعرض صورتين متواجهتين: صورة الحياة الحرة المنطلقة، وصورة الحياة المقيدة المغلولة، والتى تصور المحنة الخالدة التى يتعرض لها الأديب حيال مجتمعه الصغير والكبير، تبين أن هرمن هيسه تأثر بموثرات فردية وجماعية هائلة، تأثر بالحياة فى القرية وضدها الحياة فى المدينة، والحياة فى سويسرا، وضدها الحياة فى إيطاليا، وتأثر بالحياة اللادينية الممجدة لنيتيشه شوبنهاور وضدها الحياة الدينية الساذجة المتعشقة للأولياء والقديسين، وفضلا على ذلك تأثر بالصديق وبالحبيبة، وتأثر قبل كل هذا بعدد من الأدباء. فلا شك أنه تأثير بالكلاسيكيين أمثال جوته وشكسبير والمدرسة الفرنسية، ولكن تأثر على نحو خاص بقدماء الروائيين الإيطاليين مثل بوكاتشو، وبالأديب السويسرى جوتفريد كيللر.

وسواء كان الأثر من هذا أو ذاك الأديب، من هذه أو تلك الفلسفة، فقد ظل هرمن هيسه صاحب فلسفة مستقلة، وصاحب أسلوب خاص. وظل طوال حياته يدافع عن القيم الإنسانية، ويبذل جهده ما استطاع ليصلح حياته، وليعين الناس على إصلاح حياتهم. فدخل فى عداد الأدباء الأفذاذ والمصلحين العظام.

دكتور: مصطفى ماهر

فبراير ١٩٦٨

الفصل الأول

فى البدء كانت الأساطير. بث الله جلت قدرته ـ كما بث فى أرواح الهنود والإغريق والجرمان ـ مادة الأساطير وجعلها تبحث عن عبارة تكتسيها، كذلك هو فى كل يوم يتناول أرواح الأطفال، كل الأطفال، فيبثها الشيء نفسه.

لم أكن أعرف أسماء البحيرة والجبال والجداول التى فى وطنى بعد، ولكنى كنت أرى صفحة البحيرة الملساء، الزرقاء فى خضرة، وكنت أرى الجبال الوعرة التى تتخللها أنوار صغيرة تحيط بالبحيرة كالتاج الكثيف، وأرى فى شقوقها العالية الشاهقة كسف الثلج اللامعة، ومساقط المياه الصغيرة الضئيلة، وأرى عند أسفلها بسطًا وضاحة مائلة تقوم فيها أشجار الفاكهة والأكواخ وبقر جبال الألب الرمادى. ولما كانت روحى المسكينة الصغيرة خالية ساكنة تنتظر وتتوقع. فقد كتبت أرواح البحيرة والجبال عليها أعمالها الجريئة الجميلة. فنحتت الجدران والسفوح الصلدة

على نحو عنيد مجيد من عصور هى أولادها، وهى تحمل فى طياتها آثار جراحها. تحدثت عن الوقت السحيق الذى انفجرت فيه الأرض وتلوت وأخرجت من البطن المعذب وسط أنات وآهات القمم العالية والسفوح المنحدرة، واندفعت الجبال الصخرية صارخة صاخبة إلى أعلى حتى انثنت عند الذرا دونما هدف أو قصد، وتصارعت الجبال التوأمية فى ألم يدفع إلى اليأس ساعية إلى المكان، إلى أن انتصر واحد منها وارتفع وألقى بأخيه التوأم إلى جانب بعيد وتحطم. ومازالت هناك من تلك العصور فى المفازات قمم جبال محطمة، وصخور مشقوقة مطرودة، وكلما انصهر الجليد واندفع إلى أسفل فى تيارات مياه منهمرة دفع معه كتلا من الصخر فى حجم البيت فحطمها وبعثر شظاياه كأنها الزجاج، أو قذف بها بضربة عنيفة إلى أعماق المروج الرخوة.

كانت تقول دائمًا نفس الشىء، هذه الجبال الصخرية. وكان من السهل فهم قولها، وعندما ينظر الإنسان إلى الجدران الصلدة، الملتوية طبقة بعد طبقة، المتوارية، المنفجرة، التى تمتلئ كلها بالجراح الصارخة. كانت تقول : «لقد قاسينا الشىء الفظيع، ومازلنا نقاسى». ولكنها كانت تقول هذا بفخار وقوة وتمالك للنفس، كأنها من المحاربين العتاة الذين لا تمتد إليهم يد الفناء.

نعم هى من المحاربين، لقد رأيتها تناضل، تناضل الماء والعاصفة فى الليالى الفظيعة التى تسبق حلول

الربيع، عندما تزأر رياح الفون القاسية من حولها هاماتها، وتنتزع السيول الجارفة قطعًا فتية غضة من جوانبها. كانت تقف فى هذه الليالى موقفًا صلبًا، متشبثة بجذورها، عابسة، صابرة، حابسة أنفاسها، كانت تصد العاصفة بالجدران التى شققها الزمن والقمم التى تشبه القرون، وتنطوى على نفسها، انطواءة فيها المعاندة وفيها تجريد القوة كل القوة. وكلما أصابها جرح أحدثت صخبًا يعبر عن الغيظ والخوف معًا، ويرتطم بأبعد التجاويف الصخرية ثم يرتد صداه بالغيظ فى أنين فظيع.

ورأيت المروج والسفوح والتجاويف الصخرية المطمورة بالترية، ورأيت عليها الأعشاب والأزهار والحشائش والطحالب التى تطلق عليها اللغة الدارجة القديمة أسماء عجيبة مليئة بالإيحاءات. كانت هذه النباتات تعيش فى أماكنها وديعة ملونة، كأنها أبناء وأحفاد للجبال، كنت أتحسسها وأتأملها وأتنسم عبيرها وأتعلم أسماءها. أما منظر الأشجار فكان يحدث فىَّ أثرًا أكثر جدًا وأكثر عمقًا. كنت أرى كل شجرة تعيش حياتها الخاصة، وتكون هيأتها وهامتها وتلقى بظلها الخاص بها. كانت الأشجار تلوح لى كالنساك والمناضلين، ذات قرابة بالجبال، فكل شجرة، وخاصة إذا كانت عالية فوق الجبل، تواجه معركة ساخنة ضارية من أجل البقاء والنماء، تواجه فيها الريح والجو والأحجار. كان على كل شجرة أن تحمل ثقلها وأن تمكن لنفسها حيث هى، ويؤثر هذا النضال

فى شكلها ويترك فيها آثار الجراح. كانت هناك أشجار صنوبر، لم تسمح لها العاصفة بمد فروعها إلا إلى جانب واحد، وكانت هناك أخرى تتلوى سوقها الحمراء كالأفاعى حول صخور عالية بارزة معلقة. فيعانق بعضها بعضًا، ويمسك الواحد بالآخر حتى لا يهوى أو يقتلع. وكانت تلك الأشجار تطل علىَّ بنظرات الرجال المحاربين وتثير فى قلبى الرهبة والاحترام.

وكان الرجال والنساء عندنا مثلها، كانوا يتميزون بالشدة والانطواء العنيف وقلة الكلام، وكان خيارهم من يبالغون فى الإقلال من الكلام. ولهذا تعلمت أن أتطلع إلى الناس كما أتطلع إلى الأشجار والصخور، وأن أكون أفكارًا عنهم وألا أقلل من احترامهم وألا أزيد فى حبهم عما أفعل بأشجار الصنوبر الساكنة.

تقع قريتنا الصغيرة «نيميكون» على منبسط منحدر مثلث بين جزءين بارزين من الجبل، وتطل على البحيرة، وهناك طريق يوصل إلى الدير القريب، وطريق آخر يوصل إلى مكان مجاور يبعد عن القرية مسافة أربع ساعات ونصف، أما القرى الأخرى الواقعة على البحيرة فلا تصل إليها إلا بطريق الماء. وبيوتنا مبنية على الطراز الخشبى القديم، وليس لها عمر محدد، ولا تكاد توجد مبان جديدة على الإطلاق، أما المبانى القديمة فتستصلح جزئيًا حسب الحاجة، فمرة يستصلح الفناء، ومرة أخرى السطح، وربما وجد الإنسان جزءًا من عرق خشبى وبعض المراين كانت من قبل فى جدار حجرة، قد انتقلت لتعريشة السقف،

فإذا كانت هذه القطع الخشبية لا تصلح للسقف، وكانت أثمن من أن توضع فى المواقد والمدافئ، فهى تستخدم فى عملية الرتق القادمة أما فى الحظيرة أو فى مخزن الدريس أو كعارضة لتقوية الباب الخارجى. كذلك حال من يسكنون هذه البيوت أنفسهم. كل واحد يشترك بدوره إلى أقصى ما يستطيع من مدى، ثم يدخل فى تردد إلى جماعة من لا يصلحون لعمل حتى يغيب فى النهاية وسط ظلام دامس دون أن يحدث هذا الكثير من الجلبة. ومن كان فى الغربة، وأتى بعد سنين طويلة إلى القرية. لا يجد فيها تغييرًا. اللهم إلا بضعة أسقف قديمة تناولها التجديد، وأخرى جديدة أصابها القدم، أما الشيوخ فقد تواروا، ولكن شيوخًا آخرين حلوا محلهم، يسكنون الأكواخ نفسها، ويتسمون بالأسماء عينها، ويسهرون على الصغار ذوى الشعر الداكن أنفسهم، ولا يختلفون عمن ماتوا فى الشكل أو الحركة إلا اختلافًا ضئيلا.

ومجتمعنا يفتقر إلى تطعيم متكرر بدم فتى وبحياة فتية من الخارج. فسكان القرية، وهم جنس متوسط القوة، يتزوجون جميعًا على الأغلب من أقرب الأقارب، ويتسمى ثلاثة أرباعهم على الأقل باسم كامينتسند. هذا الاسم يملأ صفحات سجل الكنيسة ويملأ شواهد المقابر واللافتات المعلقة على البيوت، والجرادل المستعملة فى الحظائر والقوارب المسيرة فى البحيرة. والعربات المستخدمة فى القرية، فهو بين مكتوب بألوان الزيت ومحفور فى الخشب، وبيت أبى

أيضا يحمل لافتة فوق بابه كتب عليها: «بنى هذا البيت يوست وفرنتسيسكا كامينتسند»، والمقصود ليس أبى، بل جدى الأكبر. وأنا أعلم، أننى عندما أموت، ولا أترك ذرية، فسيأتى واحد اسمه كامينتسند ويسكنه مادام هذا البيت قائمًا ومادام له سقف.

فإذا غضضنا النظر عن الرتابة الظاهرية، وجدنا فى جماعة الأهالى عندنا، الشرير والخير، الرفيع والوضيع، العظيم والدنىء، ووجدنا إلى جانب بعض النابهين، مجموعة صغيرة ممتعة من البسطاء، لا يدخل فيهم المخبولون. فى كل مكان صورة صغيرة من الدنيا الكبيرة. ولما كان الكبار والصغار، والأذكياء والأغبياء بعضهم أقرباء بعض لا سبيل إلى فصلهم، فكثيرًا ما تصادم الكبر القاسى والسفاهة غير المحدودة تحت سقف البيت الواحد، إلى درجة أن حياتنا كانت تفسح مكانًا رحبًا لما فى الإنسانية من عمق وسخرية. ولكن ستارًا أبديًا من الضيق اللاشعورى أو المكتوم كان مفروضًا عليه. وقد منح خضوعًا جنسنا الطاعن فى القدم لعوامل الطبيعة. وبؤس حياته الشاقة الجهيدة، بمرور الزمن ميلا للكآبة، التى كانت تنسجم مع الوجوه القاسية انسجامًا لا بأس به، ولا تثمر فيما عدا ذلك أية ثمرة، أو على الأقل أية ثمرة مفرحة. ولهذا السبب كنا نفرح بمن بيننا من البسطاء، الذين كانوا بالطبع يلزمون جانب السكون والجدية إلى حد كبير. ولكنهم كانوا يتيحون الفرصة لشىء من الضحك والتهكم. كان الواحد منهم

إذا فعل فعلة جديدة مثيرة، أشرقت وجوه أبناء نيميكون السمراء المقطبة، لا بالسرور فحسب. بل بشيء من المتعة الناجمة عن الاعتقاد فى التفوق الذاتى، وما ينسحب إليه من إحساس مبتهج بالعصمة من مثل هذه السخافات أو الأخطاء. وكان أبى من بين كثرة من الناس كانت تقف على الحد الفاصل بين أولى العدل وأولى الإثم، وكانت لا تكره أن تتعم بما هو مقبول من الطائفتين. لم يكن أحد البسطاء يرتكب حماقة إلا ويمتلئ أبى بالقلق الشديد، ثم إذا هو يتردد بين الإعجاب بالفاعل والميل إليه وبين الإحساس المسرف المضحك ببراءته هو من كل عيب.

وكان خالى كونراد واحدًا من البسطاء. وإن لم يكن يقل عن أبى أو عن الأبطال الآخرين ذكاء. كان رجلا حاذقًا، وكان يحمل فى كيانه روح ابتكار لا تهدأ ولا تتركه يهدأ، روح ابتكار كان الآخرون يفتقرون إليها، وكان الأحرى بهم أن يحسدوه عليها. ولكن الذى كان يحدث بالطبع، وهو أن ابتكاراته لم تكن تنجح. ومع ذلك لم يكن فى حالة الفشل يتململ ويخور ويكتئب ويخلد إلى البلادة، بل كان يبدأ دائمًا من جديد وكان يحس إحساسًا قويًا عجيبًا بما فى أعماله من البلاء المضحك، وهذه بلا شك ميزة، ولكن الناس كانو يرون فيها مسحة غريبة مضحكة تصم شخصيته وتجعله يدخل فى عداد الهزليين، الذين يضحكون الناس ولا ينالون على ذلك أجرًا. وكانت علاقة أبى به تضطرب دائمًا بين الإعجاب والاحتكار.

كان كل مشروع من مشروعات أخ زوجته يسبب له فضولا هائلا وهيجانًا شديدًا، كان يجتهد فى إخفائهما بلا جدوى وراء الأسئلة المتحفزة الساخرة والتلميحات. فإذا بدا الحال موقنا من نجاحه وبدأ ينفخ أوداجه، كان أبى ينساق وراءه وينضم إلى عبقريته ويشترك معه اشتراكًا أخويًا فى التفكير والتدبير، إلى أن يحل الفشل الذى لا سبيل إلى رده، فيهز الخال له كتفيه، بينما يصب أبى على خالى الغضب والسخرية والإهانة صبًا مفرطًا ولا يعيره التفاتة شهورًا عديدة.

وكان كونراد هذا هو الذى أتاح لقريتنا لأول مرة التطلع إلى أول قارب شراعى عرفته، واستعمل فيه جندول أبى. وقد ظل خالى يعمل حتى صنع الشراع والأحبال صناعة نظيفة معتمدًا على الصور المطبوعة بالحفر على التقويم، فإذا تبين فيما بعد أن جندولنا كان ضيقًا مسرفًا فى الضيق مما يجعله غير صالح لحمل الشراع، فهذا شىء لا ينبغى أن يحمل أثمه كونراد على أية حال! واستغرقت عمليات الإعداد والاستعداد أسابيع كثيرة، وتحول أبى من فرط الشغف والأمل والخوف إلى زئبق، كذلك القرية لم تكن تتحدث عن شىء بكثرة حديثها عن مشروع كونراد كامينتسند. وكان يومًا مشهودًا، ذلك اليوم الذى تقرر فيه أن ينزل القارب الشراعى لأول مرة إلى البحيرة، فى الصباح، وكان الصيف يجر أذيال أيامه الأخيرة. وتباعد أبى، فقد كان يخشى احتمال حدوث كارثة،

ومنعنى من الاشتراك وركوب القارب، فحزنت حزنًا شديدًا. وركب الفنان صاحب الشراع وحده، لم يركب معه سوى ابن الفران قوسلى. ولكن القرية خرجت عن بكرة أبيها ووقفت فى الحوش والحديقة الصغيرة عندنا لحضور المشهد الذى لم يسمع بمثيله أحد من قبل. وهبت ريح طيبة ناحية البحيرة. وكان على بيك أن يجدف فى البداية حتى يصادف القارب نسمة، وامتلأ الشراع بالهدوء، وسار القارب مزهوًا مختالاً. ورأيناه معجبين به مشدوهين يدور حول لسان الجبل القريب ويتوارى، وتهيأنا لتحية الخال الذكى عند عودته إلى الوطن تحية المنتصر المظفر، وخجلنا من الأفكار التهكمية التى ساورتنا. فلما عاد القارب بالليل ، لم يكن به شراع، وكان قائداه أقرب إلى الموت منهما إلى الحياة، وكان ابن الفران يسعل ويقول: «لقد ضاعت منكم متعة مهمة، فقد أوشكتم على استخراج جثتين غارقتين من البحيرة يوم الأحد!» وكان على أبى أن يعد بيديه لوحين ليصلح الجندول. ومنذ ذلك اليوم لم يظهر على صفحة البحيرة الزرقاء شراع مرة أخرى. وظلت القرية مدة طويلة تسخر من كونراد وتقول له إذا أرادت أن تستعجله قضاء شىء: «عليك أن تتخذ لنفسك شراعًا يا كونراد!» أما أبى فكظم غيظه، وظل مدة طويلة من الزمن كلما صادف ختنه المسكين، يشيح عنه ببصره ويبصق بصقة تنطلق كالقوس إلى بعيد تعبيرًا عن احتقاره الذى لا سبيل إلى التعبير عن شدته بكلام. واستمر ذلك وقتًا

طويلاً، إلى أن أتى كونراد بمشروع فرن لا تؤثر فيه النيران وتحدث مع أبى فى شأنه، وكان أن جلب له هذا المشروع من السخرية مالا نهاية له ولا أول. وخسر أبى فيه أربعة ريالات بالتمام والكمال.

وياويل من كان يتجاسر على تذكرة أبى بحكاية الريالات الأربعة! وتصادف بعد مضى وقت أن حدث اضطراب فى البيت فيما كان يحدث، وقالت أمى فى معرض نقاش بينها وبين أبى أن المال الذى ضيعه على نحو آثم لو كان الآن فى البيت، لكان ذلك خيرًا. هنالك امتقع وجه أبى وامتدت الحمرة الدكناء من وجهه حتى غطت رقبته، ولكنه تمالك نفسه وقال: «ليتنى كنت قد شربت بها خمرًا فى يوم واحد من أيام الآحاد».

كانت رياح «الفون» تهب فى نهاية كل شتاء محدثة صخبًا عميق الأنغام، كل أهل جبال الألب يسمعونه بارتعاد وخوف، فإذا كانوا فى القرية اشتاقوا إليه شوقًا محرقًا.

كانت رياح «الفون» إذا اقتربت، أحس الرجال والنساء والجبال والحيوان البرى والحيوان المستأنس بها قبل حلولها بساعات كثيرة. فحلولها، الذى يسبقه على الدوام تقريبًا هبوب رياح مضادة باردة. ينذر به حفيف عميق. وتتحول البحيرة الخضراء الزرقاء فى لحظات قليلة إلى اللون الأسود الذى يشبه المداد، وتكتسى فجأة بتيجان متعجلة بيضاء من الزبد. ثم ما تلبث البحيرة أن تدوى بالرعود، وكانت قبل لحظات

مسالمة هادئة لا يسمع لها صوت، يرتطم الماء مغيظًا بالشاطئ. وفى الوقت نفسه تنكمش أرض المنطقة كلها بالخوف على نفسها. فيستطيع الإنسان أن يعد الصخور فوق قمم كانت ترقد فى بعد سحيق، وأن يتبين فى القرى التى كانت تبدو فى الأفق كنقط دكناء، السقوف المنبسطة والسقوف المائلة والنوافذ. كل شىء يتجمع كالقطيع الخائف، الجبال والمروج والبيوت. ثم يبدأ العواء الصاخب. وتهتز الأرض. وتتدافع أمواج البحيرة كأن السوط يلهب ظهرها فتنطلق إلى بعيد كالدخان فى الهواء، وتستمر هكذا وبخاصة فى الليالى، حيث تسمع الآذان عجيج المعركة اليائسة بين العاصفة والجبال. وبعد وقت قليل تسير الأنباء إلى القرى عن جداول ماء انسدت وبيوت هوت وسفن تحطمت وآباء فقدوا وأخوة لم يعودوا.

وكنت فى أيام الطفولة أخاف رياح الفون بل وأكرهها. فلما استيقظت فى ضراوة الصبية أحببتها، أحببت هذا الثائر المتمرد، هذا الشاب الذى لا يكهل، هذا المصارع الوقح الذى يأتى بالربيع. كان من الرائع أن يبدأ هذا المصارع نضاله ممتلئًا بالحياة والعنفوان والأمل فيلتهم الثلج من الجبال وهو يندفع عاصفًا ضاحكًا متأوهًا صارخًا خلال الفجوات، ويضطر أشجار الصنوبر العتيقة الصلدة بيديه الغليظتين إلى الانحناء والتأوه. ثم ازداد حبى فيما بعد عمقًا. وأصبحت أحيى فى ريح الفون الجنوب الحلو الجميل الغنى كل الغنى، والجنوب الذى تنبع منه دائمًا تيارات من المتعة والدفء والجمال تنساب ناحية الجبال

فترتطم بها وتتحطم ثم تنتهى إلى الشمال البارد المنبطح هالكة فتموت. ليس هناك شىء أكثر غرابة وأشهى طعمًا من حمى الفون الحلوة التى تعترى الناس فى المناطق الجبلية والنساء خاصة، فتنفى النوم عن أعينهم وتستفز حواسهم كلها استفزازًا فيه المداعبة. هذا هو الجنوب الذى يرتمى على صدر الشمال الخشن الفقير فى عنف وتأجج دائمين ويعلن للقرى الغارقة فى الجليد فى جبال الألب أن المناطق القريبة من البحيرات الحمراء ستنعم بازدهار النرجس وأزهار الربيع وأغصان اللوز.

وعندما تنتهى ريح الفون من هبوبها، وتنتهى الانهيارات الجبلية القذرة من جريها، يأتى ماهو أجمل. تقترب المروج المصفرة فى كل ناحية من الجبل، وتبدو القمم والمجارى الثلجية فى عليائها صافية ناعمة، وتصبح البحيرة زرقاء دافئة تعكس على صفحتها صورة الشمس والسحب الجارية.

كل هذا من شأنه أن يملأ مرحلة الطفولة، بل قد يملأ حياة بأسرها عند الضرورة. فكل هذا ينطق عاليًا متصلا بلغة الله، على نحو لا تستطيعه على الإطلاق شفاه البشر، ومن استمع إليها فى طفولته على هذا النحو، فإنه يجدها تدوى فى حياته بطولها، حلوة وقوية ومهيبة، ولا يستطيع أن يفلت من سحرها أبدًا. وأن الإنسان إذا سكن فى الجبال واتخذها وطنًا له، ربما يدرس الفلسفة والعلوم الطبيعية وينصرف عن الله ـ فإذا صادف إحساسه ريح الفون مرة أو

سمع الانهيارات الجبلية تسعى بين الغاب محطمة، ارتعش قلبه فى صدره وفكر فى الله وفى الموت.

كانت هناك عند بيت أبى الصغير حديقة ضئيلة لا سياج لها. كان الخس المر والبنجر والكرنب ينمو فيها نموًا حسنًا، وكان لأمى فيها حوض ضيق مسكين مؤثر زرعت فيه الأزهار. وكان فيه شجرتان من أشجار الورد وخميلة من زهور الداليا وحفنة من التمر حنا الأرضية تسعى إلى حياتها مسكينة مليئة بالأمل. وكان يتصل بالحديقة مكان اصفر أرضه من الزلط، يمتد إلى البحيرة، كان فيه برميلان تالفان وبعض الألواح والأوتاد، فإذا اجتزناه وجدنا القارب الصغير مربوطًا، وكان فى ذلك الوقت يحتاج إلى الرتق والطلاء بالقار مرة كل بضعة أعوام، وكانت الأيام التى يتم فيها تجديد القارب أيامًا لا تنمحى من ذاكرتى.

كانت أعمال التجديد تجرى فى عصر أيام الصيف المبكر، وكانت الفراشات الصفراوات التى يحاكى لونها لون الكبريت تتمايل مترنحة فى الشمس وكانت البحيرة ملساء كصفحة الزيت، وزرقاء ساكنة تتلألأ فى رفق، وكانت قمم الجبل تغشاها غمامة رقيق، وكان الفناء الصغير يمتلئ برائحة الزفت وزيت الطلاء إلى درجة شديدة. كذلك كان القارب فيما بعد يظل طوال الصيف تفوح منه رائحة الزفت. وقد ظللت سنوات عديدة فيما بعد كلما دخلت إلى أنفى رائحة البحر المميزة أو رائحة الماء المختلطة بأبخرة الزفت،

تصورت أمامى عينى فناءنا الصغير ورأيت أبى مشمر الأكمام يحرك يده بفرشاة الطلاء، ورأيت السحب الزرقاء الصغيرة تتصاعد من غليونه إلى أنسمة الصيف الساكنة والفراشات الخضراء البراقة تطير خائفة غير مطمئنة. كان أبى فى تلك الأيام يتمتع بمزاج معتدل إلى درجة غير مألوفة، فيصفر شيئًا من النغمات المرحة، وكان يجيد هذا الصفير أيما إجادة، بل ربما زغرد زغرودة قصيرة بينه وبين نفسه دون أن يرفع نغماتها إلا نصفًا.

وكانت الأم تطهى شيئًا طيبًا للمساء، وأنا أتصور أنها كانت تفعل ذلك معللة نفسها بأمل صامت هو ألا يذهب كامينتسند إلى الحانة فى هذه الأمسية، ولكنه كان برغم ذلك يذهب.

لا يمكننى القول هل كان لوالدى دور خاص فى تطوير نفسيتى الصغيرة بالتشجيع أو الإعاقة. كانت أمى دائمًا مشغولة إلى أقصى حد، ولم يكن أبى قد اشتغل بشىء فى الدنيا أقل مما اشتغل بمسائل التربية. كان عمله يشغله بما فيه الكفاية، كان يرعى شجرات الفاكهة قدر المستطاع، وكان يحرث حقل البطاطس ويهتم بالدريس. ولكنه كان يأخذنى مرة كل عدة أسابيع فى المساء قبل أن يخرج، فيختفى بى صامتًا ساكنًا فى مخزن الدريس فوق الحظيرة، وهناك ينفذ فىَّ عملية عقاب وتكفير عجيبة، كنت أنال علقة دون أن يعلم أبى ودون أن أعلم أنا على وجه التحديد سببها كانت من قبيل التضحيات المقدمة على

هيكل التكفير عن الذنوب بلا تحديد للذنب، كما كان اليونان يفعلون، وكانت تتم دونما تأنيب من جانبه ودون صياح من جانبى، وكأنها جزية لابد منها لسلطة يكتنفها الغموض. وكنت فيما بعد ذلك من سنين، كلما سمعت عبارة القدر «الأعمى» أتصور هذه المشاهد العجيبة، وأعتبرها تمثيلا مجسمًا إلى أقصى حد لهذا المفهوم. كان أبى دون علم منه يتبع فى هذا التصرف فن التربية البسيط الذى تمارسه الحياة نفسها فينا عادة، عندما تسقط علينا بين أنسمة الهواء الصافية جوًا عاصفًا مرعدًا، ويكون علينا أن نفكر بعد ذلك فى الذنوب التى ارتكبناها واستفززنا بها القوى العليا. ولكن التفكير كان للأسف لايجد له مكانًا عندنا مطلقًا أو لايجده إلا فيما ندر، وكنت أتقبل هذا التأديب المتقطع دون أن أمارس التأمل الذاتى المرغوب، أتقبله أما ساكتًا وأما معاندًا. وكنت دائمًا أحس بالفرح فى تلك الأمسيات التى يكون علىَّ فيها أن أنال نصيبى من العقاب، لأنها كانت تنبئ بعدة أسابيع من الراحة لاعقاب فيها. على أننى كنت أتصرف على نحو أكثر استقلالاً إزاء محاولات أبى توجيهى نحو العمل. فقد منحتنى الطبيعة الغامضة المسرفة موهبتين مجتمتين تعارض الواحدة منهما الأخرى على خط مستقيم قوة جسمانية غير عادية ونفورًا غير هين من العمل للأسف. ولقد اجتهد الأب الاجتهاد كله لكى يجعل منى ابنًا مفيدًا ومعينًا له، ولكنى كنت أتهرب من الأعمال التى أكلف بها وأحتال

إلى ذلك بكل الحيل، وكنت فى المدرسة عند دراسة الثقافة الإغريقية القديمة أحس ميلاً إلى الأبطال أكبر من ميلى إلى هرقل الذى كان مجبرًا على الأعمال الثقيلة المعروفة. وكنت فى ذلك الوقت لا أعرف شيئًا أجمل من التجول فوق الصخور أو المروج عند الماء دونما عمل.

كانت الجبال والبحيرة والشمس هى أصدقائى، كانت تحكى لى وكانت تربينى وكانت لوقت طويل أحب إلى نفسى وأقرب إليها من الناس ومن مصائر الناس وكان أكثر ما ينال حبى وما أفضله على البحيرة البراقة وأشجار الصنوبر الحزينة والصخور المشمسة: هو السحاب.

أرونى فى الدنيا الواسعة رجلا يعرف السحب ويحبها أكثر منى! أو أرونى فى الدنيا شيئًا أكثر جمالاً من السحب! إن السحب هى لعب وسلوان، هى بركة ونعمة، هى غضب وقوة فتاكة. السحب رقيقة ناعمة، وادعة كأرواح المواليد، جميلة سخية، كريمة كالملائكة الكرام، قاتمة، محتومة، قاسية كنذر الموت. إنها تحوم بلونها الفضى فى طبقة رقيقة، وهى تبحر ضاحكة بلونها الأبيض ذى الإطار الذهبى، وقد تقف للراحة فتتلون بلون أصفر وأحمر وأزرق. السحب تتسلل عابسة متباطئة كالقتلة، وتندفع صاخبة كالفرسان المغاوير، وتبقى عالقة حزينة حالمة فى طبقات مرتفعة شاحبة، كالنساك المنعزلين المكتئبين، والسحب تتخذ هيئة الجزر السعيدة، وهيئة الملائكة ذوى البركة،

وهيئة الأيادى المهددة، والشرع المهتزة وطيور الكراكى الهائمة. وهى تحوم بين سماء الله وبين الأرض المسكينة فكأنها كنايات جميلة عن حنين الناس كله، تتصل بالسماء وبالأرض معًا - كأحلام الأرض التى تلصق روحها المدنسة بالسماء الطاهرة. وهى الرمز الخالد لكل تجوال وكل سعى وكل رغبة وكل حنين إلى الوطن. وكما تعلق السحب بين الأرض والسماء مترددة، مشتاقة عنيدة، كذلك تعلق أرواح البشر مترددة مشتاقة عنيدة بين الزمان والأبد.

آه، يا للسحب الجميلة الهائمة الدائبة! كنت طفلاً لا أعرف شيئًا فأحببتها، وتطلعت إليها، ولم أكن أعرف أننى أنا أيضًا سأسير عبر الحياة كالسحابة - جائلاً، غريبًا فى كل مكان، هائمًا بين الزمان والأبد. لقد أصبحت السحب منذ أيام طفولتى صديقات حبيبات وأخوات لى.

ولايمكن أن أعبر الحارة دون أن يومئ كل منا للآخر برأسه فنتبادل التحية ونظل هنيهة ينظر كل منا فى عين صاحبه. كذلك لم أنس ما تعلمته منها فى ذلك الوقت: أشكالها، ألوانها، تقاطيعها، ألعابها، رقصاتها الجماعية، رقصاتها الفردية. سكناتها، حكاياتها الغريبة الأرضية السماوية.

وخاصة قصة أميرة الثلج. مكان هذه القصة هو الجبال الوسطى، فى الوقت السابق على الشتاء مباشرة، وفيه تهب ريح واطئة، وتظهر أميرة الثلج ومعها حاشية قليلة العدد، آتية من ارتفاع شاهق،

وتبحث عن مكان للراحة فى وديان الجبال الواسعة أو على هضبة منبسطة.

وتتطلع بالحسد إلى الأميرة البريئة فى مستقرها نسمة شريرة منافقة، فتلعق الجبل نهمة فى السر وتتسلقه ثم تهجم على الأميرة فجاة هجومًا صاخبًا عنيفًا. وتلقى إلى الأميرة الجميلة خرقًا ممزقة سوداء بالية من السحب، وتتهكم عليها وتصرخ فى وجهها وتسعى إلى طردها. وتظل الأميرة برهة قلقة تنتظر وتتحمل، وتصعد فى بعض الأحيان فى سكون وسخرية إلى أعاليها وهى تهز رأسها مما جرى لها. وفى أحيان أخرى تجمع الأميرة صديقاتها المفزوعات حولها، وتكشف عن وجهها الكريم الوضاح الباهر وترد العملاق المهاجم بيدها وهى هادئة البال. فإذا هو يرتعد ويصرخ ويلوذ بالفرار. عند ذاك تستقر هادئة وتحيط مستقرها إلى بعيد بغمام باهت. فإذا انحسر الغمام، ظهرت الوديان الجبلية والهضاب صافية براقة مكسوة بثلج جديد ناعم صاف.

كان فى هذه القصة شىء كريم، شىء من روح وفوز الجمال، كان يخلب لبى ويحرك قلبى الصغير وكأنه سر من الأسرار البهيجة.

وما لبث أن أتى الوقت الذى أتيحت لى فيه فرصة الاقتراب من السحب، والسير بين ظهرانيها، والتطلع إلى بعض أفراد زمرتها من عل. كنت فى العاشرة من عمرى عندما تسلقت الجبل إلى القمة الأولى، قمة الزينالبشتوك جبل مخضر بالنبات، تقع

قريتنا الصغيرة «نيميكون» عند قاعه. فرأيت لأول مرة ما للجبال من عناصر الفزع وعناصر الجمال، رأيت تجاويف عميقة مليئة بالثلج ومياه الثلج، وقمم الثلج الخضراء الزجاجية، والكتل المنهارة البشعة، وفوق هذا كله السماء كالناقوس عالية مستديرة. إن إنسانًا عاش عشر سنوات بطولها محصورًا بين الجبل والبحيرة، محصورًا بين المرتفعات القريبة، لا يمكنه أن ينسى اليوم الذى انبسطت فوقه لأول مرة سماء عظيمة واسعة، وامتد أمامه أفق لا حد له، ولقد اندهشت أثناء التسلق عندما تبينت أن الصخور والجدران الصخرية التى كنت أعرفها من تحت ضخمة ضخامة هائلة. ثم إذا بى أرى اللحظة تتملكنى كل التملك، وأرى ـ وقد حل بى الخوف والفزع فجأة ـ الأفق الفسيح الهائل ينفذ إلىَّ من أعلى.

إذًا فالدنيا كبيرة إلى هذا الحد الخرافى! كانت قريتنا بأكملها، تبدو فى القاع العميق ضائعة، لا تلوح إلا كبقعة صغيرة مضيئة. والقمم التى كان الإنسان وهو ينظر إليها من الوادى من بعيد يظنها متقاربة تقاربًا كبيرًا، بعيدة الواحدة عن الأخرى قدر ساعات كثيرة.

منذ ذلك الحين بدأت أعتقد أننى لم أبصر من الدنيا إلا لمحة ضيقة ليست من الإحاطة بشىء، وأن هناك فى الخارج جبالاً تقوم وتسقط، وأشياء مهمة يمكن أن تجرى، دون أن يصل أدنى خبر عنها إلى جحرنا الجبلى المنعزل. وفى الوقت نفسه ارتعش فىَّ

شيء يشبه عقرب البوصلة متحركًا بسعى لا شعورى قوى ناحية هذا البعد العظيم، ولقد فهمت الآن كل الفهم جمال السحب وكآبتها، لأننى رأيت الأبعاد السحيقة التى لاتنتهى إلى نهاية والتى تتجول إليها.

ولقد مدح الشخصان الكبيران اللذان رافقانى فى التسلق قدرتى على حسن التسلق، واستراحا قليلا فوق الهضبة الباردة إلى درجة الثلوجة وضحكا من ابتهاجى الذى لم يلتزم حدًا. أما أنا فبعد أن فرغت من استغرابى الأول الشديد، صحت عاليًا من فرط بهجتى وانفعالى كالثور الذى يصرخ فى أجواء صافية. كان صياحى هذا هو نشيدى الأول للجمال. نشيد بلا ألفاظ. وكنت وأنا أطلقه أنتظر أن يحدث صدى صاخبًا، ولكن صياحى توارت نبراته فى المرتفعات الهادئة وضاعت كل آثاره وكأنه صفير طير هزيل. فخجلت ولزمت السكون.

هذا اليوم حطم نوعًا ما من الثلج الذى كان يجمد حياتى، وحل عقدتى. فقد تتابعت الأحداث الواحد وراء الآخر. كان أولها أنهم صاروا يأخذوننى مرات أكثر إلى رحلات فى الجبل، وإلى رحلات أكثر مشقة، فنفذت إلى الأسرار العظيمة للأعالى بشوق مكتئب عجيب فى كآبته. وكان منها كذلك أنهم اختارونى بعد قليل لأرعى العنز.

كانت هناك بقعة لا تصيبها الريح من سفح الجبل، وكنت أسوق إليها حيوانى، كانت نباتات البشلشكة الزرقاء بلون الكوبالت، ونباتات الشمر

البحرى الحمراء الفاتحة تكثر فيها كثرة مفرطة، كانت تلك البقعة أحب أماكن الدنيا إلى نفسى، كانت القرية لايمكن الإبصار بها من هناك، ولم يكن من الممكن رؤية شىء من البحيرة سوى شريط ضيق براق من فوق الصخور، ولكن الزهور كانت هناك تتأجج بألوان ضاحكة نضرة، وكانت السماء تمتد كسقف الخيمة فوق القمم المدببة ذات الثلوج، وكان صوت انهمار الماء القريب يتناهى إلى الأسماع بجانب الرنين الرقيق الذى ينطلق من أجراس العنز، كنت أرقد هناك فى الدفء، وأدهش للسحب البيضاء التى ألاحقها ببصرى، وأزغرد لنفسى بصوت خفيض، حتى لاحظ العنز كسلى فسمح لنفسه بكثير من العبث والتمتع الممنوع، ثم حدث فى الأسابيع الأولى صدع فى متعتى وابتهاجى، إذ وقعت مع عنزة تائهة فى هاوية، أما العنزة فماتت، وأما أنا فقد آلمتنى جمجمتى، ثم نلت علقة أليمة من أبى، هربت منه من جرائها، ثم أعادنى بعضهم إليه بين توسلات وشكايات.

كان من الممكن أن تصبح هذه المغامرات الأولى أيضًا المغامرات الأخيرة. ولو حدث هذا، لما تألف هذا الكتاب الصغير، ولظلت لى جهود وحماقات أخرى دون أن تتحقق.

كان من الممكن أن أكون قد تزوجت واحدة من بنات عمومتى أو خئولتى، أو أكون قد هويت إلى هاوية بالجبل فتجمدت فى برودتها. ولو حدث هذا، لما كان فيه بأس! ولكن ما حدث فعلاً كان يختلف عن ذلك

تمامًا، وليس من حقى أن أقارن ما حدث بما لم يحدث.

كان أبى يقوم من حين لآخر بشىء من الخدمة فى دير فيلسدورف، وحدث أن مرض فأمرنى بأن أذهب وأبلغ الدير أنه لن يستطيع الحضور. ولكنى لم أفعل هذا بل استعرت من بعض الجيران ورقًا وقلما وكتبت خطابًا لطيفًا إلى رهبان الدير وسلمته إلى الخادمة وذهبت من تلقاء ذاتى إلى الجبل.

وفى الأسبوع التالى كنت عائدًا إلى البيت ذات يوم فوجدت أحد الآباء جالسًا ينتظر قدوم هذا الذى كتب الخطاب الجميل. وأخذنى شىء من الخوف، ولكنه مدحنى وحاول أن يقنع أبى بأن يسمح بأن أتعلم لديه. وكان خالى كونراد فى ذلك الوقت بالمصادفة يلقى حظوة فسأله أبى. وبطبيعة الحال تأجج على الفور حماسًا لكى أذهب حيث أتعلم وأدرس وأصبح فيما بعد عالمًا وواحدًا من السادة. واقتنع أبى، وبهذا أصبح مستقبلى هو كذلك مشروعًا من مشروعات خالى الخطيرة مثل مشروع الفرن، الذى يقاوم النار والقارب الشراعى وما إليهما من المشاريع الخيالية.

وبدأت فى الحال دراسة ضخمة خاصة فى اللاتينية وتاريخ التوراة وعلم النبات والجغرافيا. وكان هذا كله من شأنه أن يحدث فى نفسى الرضا الشديد، ولم أفكر فى أن هذا الكلام المضطرب الذى أتعلمه ربما يتسبب لى فى فقدان وطنى وسنوات عديدة جميلة، ولكن اللغة اللاتينية لم تحدث هذا الأثر

وحدها، ولا شك أن أبى كان سيصر على أن أصبح فلاحًا، حتى ولو حفظت كتاب «مشاهير الرجال» باللاتينية من أوله إلى آخره ومن آخره إلى أوله عن ظهر قلب. ولكن الرجل النبيه كان قد أبصر ـ بأعماق كيانى ـ حيث يحتل مركز الثقل شىء كأنه الفضيلة الأساسية ـ : هو : كسلى الذى لا سبيل إلى التغلب عليه. كنت أهرب ما استطعت من العمل وأجرى بدلا منه إلى الجبال أو إلى البحيرة أو أرقد منتحيًا جانبًا مختبئًا على السفح فأقرأ أو أحلم أو أستسلم للكسل. فلما تأكد أبى من ذلك تركنى.

وهذه فرصة أقول فيها كلمة قصيرة عن والدى. كانت أمى فى زمانها جميلة، وقد بقى لها من هذا الجمال القوام المعتدل المنتظم وعينان طليتان داكنتان. كانت طويلة ذات قوة مفرطة وكانت مجتهدة ساكنة. وعلى الرغم من أنها كانت من النباهة كما كان أبى وكانت تفوقه فى القوة الجسمانية، إلا أنها لم تكن صاحبة الأمر فى البيت، بل كانت تترك الأمر كله لزوجها. وكان هو متوسط الطول ذا أطراف دقيقة توشك أن تكون لينة رقيقة، وذا رأس نابهة عنيدة ووجه مشرق اللون ممتلئ كل الامتلاء بالثنيات الصغيرة التى لا تفتأ تتحرك. وكان لأبى علاوة على هذه الثنيات، ثنية رأسية صغيرة فى جبهته. كانت هذه الثنية تظلم كلما حرك حاجبيه وتضفى عليه عندئذ هيئة المهموم الذى يعانى الألم، وتجعله يبدو كأنه يحاول أن يتذكر شيئًا بالغ الأهمية غير آمل فى أن

يتذكره مهما اجتهد. وكان من الممكن أن يتبين الإنسان لديه نوعًا ما من الكآبة، ولكن أحدًا لم يتنبه إلى ذلك، لأن سكان منطقتنا كلهم تقريبًا يتسمون بمسحة دائمة خفيفة من العبوس، يرجع سببها إلى فصول الشتاء الطويلة، وإلى الأخطار وإلى صعوبة تأدية الأعمال وتحقيق الأهداف، وإلى انقطاعهم عن الدنيا وحياتها.

وقد أخذت من والدى كليهما عناصر مهمة من عناصر كيانى. ورثت عن أمى مهارة متواضعة فى شئون الحياة، وشيئًا من الثقة بالله، ونفسا هادئة ساكنة وميلا إلى الإقلال من الكلام. وورثت عن أبى الخوف من التصميم على الأمور، وعدم القدرة على التدبير فيما يتعلق بالمال، وفن الإكثار من الشراب عن تفكر وتدبر. وإن كان هذا الفن لم يظهر أثره فى حياتى فى ذلك الوقت المبكر. أما من ناحية الشكل فقد ورثت عن أبى العينين والفم، وعن أمى المشية الثقيلة الدائبة، والبنيان القوى والقوى العضلية الصلبة.

كذلك أخذت عن أبى وعن جنسنا عامة فهمًا فيه نباهة الفلاحين ومعه الميل إلى العبوس وإلى الكآبة التى لاسبب لها. ولما كان القدر قد دفع بى إلى الحياة خارج موطنى وإلى شق طريقى بين الأجانب، فقد كان الأفضل لى، أن تكون لى بدلا من هذه السمة، شىء من المرونة والبساطة المرحة.

بدأت رحلة الحياة مزودًا بهذه السمات وبثوب جديد. أما المواهب التى ورثتها عن والدى، فقد أثبتت

قيمتها، لأننى منذ ذلك الحين سرت فى الدنيا أو وقفت فيها معتمداً على نفسى، فحسب ومع ذلك فلابد أن شيئًا كان ينقصنى، شيئًا لم يتمكن العلم ولا الحياة فى الدنيا الواسعة من منحى إياه قط فأنا حتى اليوم أستطيع أن أقهر جبلا، وأن أسير عشر ساعات مستمرة أو أجدف عشر ساعات كاملة وأن أقتل رجلا بيدى أن دعت ضرورة إلى ذلك، ولكنى أفتقر اليوم، كما كنت أفتقر فى ذلك الوقت إلى ما يلزم الإنسان ليكون فنانًا للحياة، فإن اختلاطى القديم المبكر بالأرض والنباتات والحيوانات دونما غيرها، قد أدى إلى قلة القدرات الاجتماعية التى تكونت لدى، وما زالت أحلامى اليوم تقدم برهانًا عجيبًا على مدى ميلى إلى حياة الحيوان الخالصة. فأنا أحلم كثيرًا بأننى أرقد على الشاطئ البحر كحيوان، غالبًا كحيوان كلب البحر، وأحس براحة ورضا هائلا على هذا النحو، حتى أننى عندما أستيقظ وأسترد الهيئة الإنسانية الكريمة لا أجد فى ذلك ما يدعو للفرح أو الفخر، بل أنظر إلى عودتى إلى الهيئة البشرية بالأسف.

وتلقيت التعليم فى مدرسة ثانوية بالطريقة العادية، معتمداً على منحة تتيح لى سكنًا وطعامًا بالمجان، وكان الهدف الذى أوجه إليه هو أن أتخصص فى علوم اللغة. وليس هناك من يعلم السبب فى التوجيه إلى هذا التخصص، وليس هناك علم أكثر سخفًا ومللا وأبعد عن قلبى من هذا العلم.

وانقضت سنوات التلمذة بسرعة. كانت هناك المدرسة، وكان هناك العقاب، وبين الاثنين ساعات

مليئة بالحنين إلى الوطن، وساعات مليئة بالأحلام المستقبل الجريئة، وساعات مليئة بالتقدير والاحترام تجاه العلم. وبين كل هذه الأمور كان كسلى الموروث يظهر واضحًا للعيان، ويجلب لى الكثير من السخط والعقاب، ثم يفسح المكان بعد ذلك لحماس جديد.

قال لى مدرس اللغة اليونانية: «يا بيتر كامينتسند، أنت صلب الدماغ، كسول متعب، ولسوف تحطم جمجمتك الصلدة ذات يوم بعنادك هذا! وتأملت الرجل المكتنز ذا النظارة، واستمعت إلى كلامه ووجدته هزأة.

وقال لى مدرس الرياضيات: «يا بيتر كامينتسند، أنت عبقرى فى الخمول، وأنا آسف جدًا لأنه ليست هناك درجة فى المدارس أقل من صفر، فإن ما قدمته اليوم من عمل لايستحق إلا درجتين ونصفا تحت الصفر! ونظرت إليه، وأسفت له لأنه كان مصابًا بالحول، ووجدته مملا إلى أقصى حد.

وقال لى أستاذ التاريخ ذات مرة: «يا بيتر كامينتسند، أنت لست تلميذًا مجيدًا، ولكنك سوف تصبح مع ذلك ذات يوم مؤرخًا مجيدًا. فأنت كسول، ولكنك تعرف كيف تفرق بين ما هو كبير وماهو صغير».

ولم يكن هذا أيضا بالكلام الذى يتسم بأهمية بالغة، ومع ذلك فقد كنت أكن للمدرسين الاحترام، لأننى كنت أقول فى نفسى، إنهم يمتلكون العلم، وكنت أكن للعلم احترامًا غامضًا هائلاً. وعلى الرغم من أن

مدرسى كانوا متفقين فى أمر كسلى، فقد تقدمت فى المدرسة، وكنت بين فوق المتوسطين. ولقد تبينت أن المدرسة والعلوم المدرسية شىء غير كاف، ولكننى كنت أنتظر المستقبل، كنت أتوقع أن يلى هذا الإعداد وهذا التخابث المدرسى الفكر الصافى والعلم الأكيد الذى لا يرقى إليه الشك والذى هو علم الحق، العلم الذى يفهم الإنسان به معنى اضطراب التاريخ وتناحر الأمم والسؤال الرهيب الذى تختلج به كل روح.

لكن حنيننا آخر كان يضطرب فى نفسى أكثر حياة وقوة. كنت أريد أن أتخذ صديقًا.

كان هناك صبى جاد أدكن الشعر، يكبرنى بعامين، وكان اسمه كاسبار هاورى. كان هذا الصبى ذا طبع هادئ مطمئن يظهر فى حركته وفى سكونه، وكان يفضل مسلك الرجولة الجاد ولا يتكلم مع الرفاق إلا قليلاً. وكنت أتطلع إلى هذا الصبى منذ شهور بنظرة الإكبار والاحترام الشديد، وكنت أتبعه فى الشارع إذا سار وآمل فى شوق أن يقع بصره علىَّ. وكنت أحس بالغيرة من كل مواطن تافه يحييه، ومن كل بيت أرى أنه يدخله أو يخرج منه. ولكننى كنت دونه بفصلين دراسيين ويبدو أنه كان يحس بأنه متفوق على تلاميذة فصله. ولم يحدث أن جرى بيننا كلام. وبدلا من أن تتحقق صداقة بينى وبينه، ارتبط بى دونما تشجيع منى صبى ضعيف. كان أصغر منى سنًا، وكان خجولاً غير ذى موهبة، ولكنه كانت له عينان جميلتان حزينتان، وكذلك كانت تقاطيع وجهه.

كان هذا الصبى يتعرض بسبب ضعفه وعجزه إلى مشاكسات كثيرة، وكان يريد أن يجد فى أنا القوى المعروف، من يحميه. وما لبث أن اشتد به المرض حتى أقعده عن المدرسة، فلم أفتقده، وسرعان ما نسيته.

وكان فى فصلنا صبى أشقر الشعر، منطلق الشخصية، يمارس آلاف الفنون والحيل ويعالج الموسيقى والتمثيل والبهلوانية. واكتسبت صداقته، بصعوبة لا يستهان بها، لكن هذا الصبى، الذى كان فى مثل سنى وكان ذا مرونة وانطلاق، كان يعاملنى كأنه يتفضل علىَّ قليلا. ولكنى على أية حال كنت أجد فيه صديقًا. وكنت أذهب إليه فى حجرته فأطالع بعض الكتب معه، وأحل له تمارين اللغة اليونانية وأرجوه أن يساعدنى لقاء ذلك فى الحساب. كذلك كنا أحيانًا نخرج معًا للنزهة، ولابد أننا كنا فى نظر الناس كالعملاق والقزم، كان هو المتكلم، المازح الذى يضطرب على الإطلاق، وكنت أنا المستمع الضاحك، وكنت سعيدًا بهذا الصديق الجرىء الذى أوتيته.

ولكننى تبينت فى عصر بعض الأيام عن غير قصد، أن هذا الممثل المنافق الفتى كان عند انتهاء المدرسة يعرض على بعض رفاقه شيئًا من تمثيلياته المضحكة المحببة إلى نفسه. رأيته قد فرغ لتوه من تقليد أحد المدرسين. ثم قال: «خمنوا، من هذا الذى سأقلده الآن» وبدأ يتلو بصوت عالٍ أبياتًا من هومير. وكان وهو يفعل هذا يقلدنى تمامًا، ويبرز مسلكى المضطرب وطريقتى الهيابة فى القراءة، ولهجتى

الجنوبية الغليظة، وحركتى الدائمة لحفز انتباهى بالغمز بإحدى العينين وإقفال الأخرى.

كان المنظر مضحكًا جدًا، وقد اصطنع له أكثر ما استطاع من الفكاهة والفظاعة.

فلما قفل الكتاب وتلقى الاستحسان الواجب، تقدمت إليه من الخلف وانتقمت منه. لم أجد لانتقامى كلمات، فصببت ثورتى كلها وخجلى وغضبى فى صفعة واحدة هائلة. وبدأت الحصة بعد ذلك مباشرة وتبين المدرس الانتفاخ والورم والاحمرار على وجه صديقى السابق، وكان هذا الصبى تلميذًا من أصفيائه.

ـ «من فعل بك هذا؟».

ـ «كامينتسند».

ـ «كامينتسند يأتى. هل هذا صحيح؟».

ـ «نعم».

ـ لماذا ضربته؟».

ـ لا إجابة.

ـ «ألم يكن هناك سبب لذلك؟».

ـ «لا».

وتلقيت عقابًا شديدًا، وتمالكت نفسى على الطريقة الرواقية وسط التنعم بالعذاب عن غير ذنب. ولما لم أكن رواقيًا، ولا قديسًا، بل كنت تلميذًا فحسب، فقد أخرجت لغريمى بعد أن نالت العقوبة لسانى

وأطلته ما مكنتنى الخلقة من ذلك. وثار المدرس علىَّ مغضبًا.

ـ «ألا تخجل؟ ما معنى هذا؟».

ـ ما معناه «معناه أن هناك إنسانًا دنيئًا وأننى أحتقره. ثم أنه علاوة على ذلك جبان».

وهكذا انتهت صداقتى للممثل. ولم يتخذ بعدى خلفا. كذلك أنا مضيت سنوات المراهقة دون صديق. ومهما تغير مفهومى للحياة وللبشر منذ ذلك الحين أكثر من مرة، فإننى لا أتذكر هذه الصفعة إلا بالرضا العميق. ولعل الصبى الأشقر ألا يكون قد نسيها!

ولما بلغت السابعة عشرة من عمرى وقعت فى حب ابنة أحد المحامين. كانت جميلة وأنا أفخر بأننى طوال حياتى لم أعشق سوى جميلات. أما ما عانيته بسببها وبسبب غيرها فسأحكى قصته مرة أخرى. كانت هذه الفتاة تسمى روزى جير تانر، وما زالت إلى اليوم جديرة بحب رجال يختلفون عنى تمام الاختلاف.

كانت قوة الشباب التى لا أستغلها فى ذلك الوقت تتدفق فى أعضائى كلها تدفقًا. فكنت أنازل رفاقى فى أعمال عنيفة مجنونة، وكنت أفخر بأننى أحسن مصارع وأحسن لاعب كرة وأحسن عداء وأحسن جداف، ومع ذلك فكنت دائم الكآبة. ولم تكن هذه الكآبة مرتبطة بقصة الحب، بل كانت هى الكآبة الحلوة التى تسبق الربيع، والتى كانت تمسنى على نحو أقوى من مساسها الآخرين، فكنت أجد متعة فى

التصورات الحزينة وفى أفكار الموت وفى الآراء التشاؤمية. كان هناك بطبيعة الحال الزميل الذى أعطانى «كتاب الأغانى» لها ينريش هاينه لأقرأه، وكانت نسخة بسيطة رخيصة. ولكن قراءتى لم تكن قراءة بالمعنى المعروف، فقد كنت فى ذلك الوقت أصب فى الأبيات الشعرية الفارغة قلبى الملآن، كنت أشترك مع الشاعر فى المعاناة وفى التأليف وأقع فى حالة من التهويم الغنائى، كانت على ما أظن لا تتوافق مع كيانى إلا على نحو ما يوافق القميص الحلوف. كنت حتى ذلك الحين لا أعلم شيئًا عن «الأدب الجميل» كله. فأتبعت قراءة كتاب هاينه، قراءات أخرى لمؤلفات ليناو. شيللر، ثم جوته وشكسبير، وفجأة أصبح خيال الأدب الباهت لدى كالرية العظيمة.

أحسست وأنا أرتعد رعدة حلوة أن هذه الكتب تثير فى وجهى نسمة عطرة باردة من حياة لم توجد قط على الأرض، ولكنها مع ذلك حياة حقيقية، تضرب بأمواجها فى قلبى المأخوذ وتريد أن تعرف مصائرها. وهناك فى الركن الذى اتخذته للقراءة فى حجرة على السطح يتناهى إليها ضجيج الطلاب حين يتشاجرون فى الحانة القريبة ونقنقة طيور اللقلاق المعششة غير بعيد، هناك كانت الشخصيات المرسومة فى أعماق جوته وشكسبير تدخل وتخرج، وتبينت ـ ما فى الكيان البشرى من ربانية وما فيه من سخرية وفى لغز قلبنا المنقسم الحاجم، الجوهر العميق لتاريخ الدنيا، والمعجزة الضخمة للفكر الذى يضىء أيامنا

القصيرة ويرفع بقوة المعرفة وجودنا البسيط إلى مستوى ما هو ضرورى وما هو أبدى. وكنت إذا دسست رأسى خلال النافذة الصغير الضيقة أرى الشمس تشرق على الأسقف وعلى الحارات الضيقة، وأسمع فى دهشة الصخب المختلف الخافت الذى ينبعث مضطربًا من الأعمال التى يمارسها الناس ومن صنوف حياتهم اليومية، وأحس بعنصر العزلة والغرابة فى ركن السطح الذى ألوذ به والذى يمتلئ بالأرواح الكبرى، وأتمثل هذا كأنه حكاية خرافية غريبة فى جمالها. وكلما توغلت فى القراءة، أصبح التطلع من مكانى المرتفع إلى الأسقف وإلى الحوارى وإلى صورة الحياة اليومية يملك على نفسى على نحو أشد غرابة وعجبًا، وكثيرًا ما اختلج فى شعور متردد محزن، يحدثنى بأننى قد أكون ذا بصيرة نافذة وأن الدنيا الممتدة أمامى تنتظر قدومى، وأننى أحتفظ لها بنصيب من كنوزها، وأننى سأخلصها من الحجاب، حجاب المصادفة والدناءة، وأننى سأنقذ الاكتشافات بقوة الشعر والأدب من أن تبلى، فأخلدها تخليدًا.

وبدأت فى خجل أعالج القليل من التأليف، وامتلأت بالتدريج كراسات كاملة بأبيات من شعرى وبمسوداتى وبقصص كثيرة. ولقد ضاعت هذه المؤلفات، والظاهر أنها كانت قليلة القيمة، ولكنها كانت تحرك قلبى وتأتينى فى السر بالبهجة. وما لبثت هذه المحاولات أن تبعها النقد والنقد الذاتى، حتى كان العام الأخير لى فى المدرسة فعانيت فيه أول خيبة

كبيرة ضرورية. كنت قد بدأت فى تصفية قصائدى الأولى وفى النظر إلى كتاباتى نظرة الريب، فأتتنى المصادفة بعدد من مجلدات جوتفريد كيللر فقرأتها مرتين وثلاث مرات متتابعة. وتبينت فى معرفة مفاجئة إلى أى حد ابتعدت أحلامى الفجة من الفن الحقيقى القوى الخالص الأصيل، وأحرقت قصائدى وقصصى ونظرت جامدًا حزينًا إلى داخل الدنيا ونفسى تمتلئ بمشاعر توشك أن تكون مشاعر التعاسة المفاجئة بعد نشوة سعادة.

الفصل الثانى

فى بداية حديثى عن الحب ـ أقول إننى فيما يتعلق به ظللت طوال حياتى صبيًا غريرًا . كان حب النساء فى نظرى دائمًا عبادة تطهر النفس، شعلة من النار أججت جذوتها كآبتى وارتفعت ألسنتها إلى أعلى. وبيدين مبتهلتين ممدودتين إلى السماوات الزرق. كنت اعتبارًا من أمى واتباعًا لشعور غامض أمجد النساء فى مجموعهن كجنس غريب جميل ممتلئ بالألغاز، يتفوق علينا بما أوتى من جمال طبيعى ووحدة فى الكيان ويتحتم علينا أن نقدسه. لأنه بعيد عنا مثل النجوم وقمم الجبال الزرقاء، قريب إلى الله على ما يبدو. وإذا كانت الحياة الغليظة قد خصتنى بقسط كبير من المر، فإن حب النساء أتانى من المرارة أكثر مما أتانى من الحلاوة. حقيقة أن النساء بقين على النصب عاليات. ولكنى أنا شهدت تطورًا من دور الكاهن العابد المبجل إلى دور أليم مضحك. دور المجنون المعتوه.

كانت روزى جير تانر تصادفنى كل يوم عندما أذهب إلى الطعام. كانت فتاة فى السابعة عشرة من عمرها، معتدلة القوام لينة. وكان وجهها الضيق الأسمر الغض يتحدث عن جمال سان فياض بالحياة، كانت أمها لا تزال جتى هذا الوقت محتفظة به، كانت قد ورثته عن جدتها وجدة جدتها. كانت هذه الأسرة العريقة الكريمة الحسيبة المباركة قد أثمرت جيلا بعد جيل طائفة كبيرة جميلة من النساء، كل واحدة منهن هادئة، ممتازة، غضة، كريمة، رفيعة، وذات حسن لا يشوبه أى عيب. وهناك صورة بريشة رسام مجهول تصور بنتًا من أسرة فوجار من القرن السابع عشر، وهى من أجمل الصور التى وقعت عليها عيناى، كانت نساء أسرة جير تانر من هذا الطراز، وكذلك كانت روزى.

لم أكن ـ بطبيعة الحال ـ أعرف كل هذه الأشياء فى ذلك الوقت. كل ما فى الأمر أننى كنت أراها تسير فى هيئة كريمة هادئة منشرحة، وكنت أحس بالنبل فى كيانها البسيط. ثم كنت أجلس فى المساء عند حلول الظلام أفكر فيها إلى أن أتمكن من تمثل هيئتها واضحة حاضرة فى مخيلتى، عند ذاك تسرى رعدة غامضة لطيفة حلوة فى روحى الغريرة كلها. وما لبثت هذه اللحظات الناعمة أن تعكرت وأصبحت تسبب لى آلامًا مريرة. بدأت فجأة أحس كيف أنها غريبة عنى، وأنها لاتعرفنى ولا تسأل عنى، وأن صورة أحلامى الجميلة ليست إلا صورة مسروقة من كيانها البديع.

ولكنى حتى عندما كنت أحس بها حادة أليمة، كنت أتمثلها للحظات حقيقة حية تتنفس أمام عينى وتصب موجة علىَّ دافئة تغمرنى وتحدث ألمًا عجيبًا حتى فى أشد خلجاتى بعدًا.

وكان يحدث أثناء النهار فى وسط حصة من حصص الدرس أو فى وسط ساعة من ساعات الصخب مع الأقران أن تعترينى الموجة من جديد. فأقفل عينى وأدلى يدى وأحس بنفسى وأنا أنحدر إلى هاوية دافئة أظل فيها إلى أن يوقظنى منها نداء المدارس أو توقظنى منها لكمة يسددها إلى أحد الرفاق. كنت عند ذاك أنسحب وأجرى إلى الخلاء وأنظر بدهشة حالمة إلى قلب الدنيا. وفجأة أرى كيف أن كل شىء جميل ملون، وكيف أن النور والنفس يسريان خلال الأشياء كلها، وكيف أن النهر صاف أخضر والأسقف حمراء والجبال زرقاء. ولكن هذا الجمال المحيط بى لم يكن يلهينى، بل كنت أتمتع به هادئًا حزينًا. وكلما زاد كل شىء جمالاً، لاح لى أكثر غرابة، أنا الذى لم أكن أصيب منه نصيبًا وكنت أقف خارجًا عنه. وكانت أفكارى الغامضة تسعى فى هذه الظروف عائدة إلى روزى: لو أننى مت الآن فلن تعلم بخبر موتى، ولن تسأل عنى ولن تحزن لموتى.

ومع ذلك فلم يكن بى حاجة إلى أن تلاحظنى أو تعلم بأمرى وبما أفعل. وكنت أحب أن أفعل من أجلها ما لم يسمع به أحد، وأن أهديها ما لا يخطر على البال، دون أن تعلم ممن.

وكذلك فعلت الكثير من أجلها. وحل موعد إجازة قصيرة فأرسلت إلى البيت. وكنت كل يوم أقوم بالكثير من أعمال القوة والجرأة وأنا أتصور أننى دائمًا أفعلها تكريمًا لروزى. فتسلقت قمة وعرة من أكثر الجهات انحدارًا.

وقمت على صفحة البحيرة بجولات بالقارب شديدة الجرأة فأقطع المسافات الكبيرة فى وقت قليل. وذات يوم كنت عائدًا من واحدة من هذه الجولات، محترقًا من الشمس وجائعًا أوشك على الهلاك. فخطر ببالى أن أظل حتى المساء بلا طعام وبلا شراب. كل ذلك من أجل روزى جيرتانر، ونقشت اسمها وأساليب المديح لها على حواف بعيدة وكهوف لم يدخلها من قبل إنسان.

وفى الوقت نفسه أرضى شبابى الذى حبسته فى حجرة الدرس وقد نما فتباعدت كتفاى كثيرًا، واسمر وجهى وقفاى وامتدت عضلاتى وانتفخت فى كل مكان من جسمى.

وفى اليوم قبل الأخير من أيام عطلتى قدمت لحبى تضحية تطلبت جهدًا جهيدًا، وكانت عبارة عن زهور. كنت أعرف أن هناك على بعض السفوح الجذابة فى حياض ضيقة زهور الألب البيضاء، ولكنها كانت دائمًا تلوح لى قليلة الجمال، مجردة من اللون والعبير وكأنما هى زهور فضية مريضة. وكنت أعرف كذلك بعض خمائل ورد الألب المنعزلة، قد قذف بها

الريح إلى أخدود فى سفح الوصول إليه جد عسير، وكنت أعرف أنها تزهر متأخرة ومهما كان الوصول إليها عسيرًا، فلابد أن أذهب إليها. ولما كان الحب والشباب لا يعرفان المستحيل فقد سرت، ووصلت إليها وقد تمزقت يداى وتقلصت عضلات فخذى.

لم أسطتع وسط التوتر والخوف أن أصرخ من الفرح، ولكن قلبى أخذ يزغرد ويصخب، عندما قطعت الأغصان الصلبة وضممت الغنيمة بين يدى. كان علىَّ فى طريق العودة أن أضع الزهور فى فمى وأهبط السفح موجهًا إليه ظهرى، ولا يعلم إلا الله كيف وصلت، وأنا الجرىء المجازف إلى أسفل السفح. كانت ورود الألب قد ذبلت فى كل أنحاء الجبل، ولقد حصلت أنا على آخر أغصان مزهرة رقيقة وأمسكتها فى يدى.

وفى اليوم التالى أمسكت بالزهور طوال الرحلة التى استمرت خمس ساعات بين يدى. فى أول الرحلة دق قلبى بقوة نحو المدينة التى تقيم فيها الجميلة روزى.

وكلما اشتد بعد الجبال العالية، اشتد جذب الحب الفطرى لى أن أعود إليها. وإنى لأتذكر هذه الرحلة بالقطار أحسن التذكر. اختفى جبل الزينا لبشتوك أولاً، ثم توارت الجبال البارزة المدببة الواحد بعد الآخر، وكأن كل واحد ينفصل عن قلبى بألم رقيق توارت كل جبال وطنى الآن، وامتد إلى الأمام سهل

عريض منخفض ذو خضرة فاتحة. لم يؤثر هذا المنظر في نفسي على الإطلاق عندما قمت بالرحلة الأولى. أما في هذه المرة فقد تملكني القلق والخوف الحزن، واعتقدت أنه قضى عليَّ أن أستمر في الهبوط إلى أراض متزايدة الانخفاض، وأن أفقد الجبال وحقي كمواطن من مواطنيها فقدانًا لا تعويض له. وكنت في الوقت نفسه أرى وجه روزي الجميل الصغير أمامي، أراه رقيقًا غريبًا، باردًا، لا يعبأ بي فتصيبني مرارة وآلام تقبض أنفاسي. وتتابعت من وراء نوافذ القطار القرى السعيدة النظيفة ذات الأبراج الممشوقة والأسقف المائلة البيضاء، وركب القطار من ركب من الناس، ونزل منه من نزل، واتصل بين الناس كلام وتحيات وضحكات وتدخين وتبادل النكات ـ كانوا جميعًا من أهل الشمال المرحين، أناسًا ذوي مهارة وبساطة ورقة ـ أما أنا الفتى الثقيل، ابن الجنوب، فكنت جالسًا في صمت وحزنٍ وكتمان بينهم. وأحسست أنني لم أعد في مكان وموطني وأحسست أنني قد انتزعت إلى الأبد من الجبال وأنني لن أصبح أبدًا كأهل الشمال: فرحًا، حاذقًا، مصقولا، مطمئنًا، سيظل في استطاعة واحد من هؤلاء أن يسخر مني، وسيتمكن أحدهم من الزواج ببنت عائلة جيرتانر، سيسبقني أحدهم دائمًا قيد خطوة في الطريق الذي أسير فيه.

اصطحبت مثل هذه الأفكار إلى المدينة معي. وبعد التحية الأولى أسرعت بتسلق الدرج إلى الحجرة

فوق السطح ففتحت صندوقى وأخرجت ورقة كبيرة. لم تكن الورقة من خير الأنواع، فلما لففت ورد الألب فيها وربطت اللفافة بخيط أتيت به خصيصًا من البيت لم تتخذ اللفافة منظر هدايا العشاق. وحملتها جادًا إلى الشارع الذى يسكن فيه المحامى جيرتانر وانتهزت أول فرصة ملائمة ودخلت من البوابة وتلفت حولى قليلا فى حوش البيت الذى شملته ظلمة المساء الخفيفة، ثم وضعت لفافتى التى لم يكن لها شكل فوق درجة من درجات السلم العريض العظيم.

لم يرنى أحد، ولم أعلم قط، هل تسلمت روزى التحية أم لم ترها. ولكن على أية حال كنت قد تسلقت على سفوح خطيرة. وجازفت بحياتى، لكى أضع غصنًا من الورد على درج بيتها، وهذا شىء كانت فيه حلاوة وسعادة ممتزجة بشقاء وشاعرية. شىء أرضانى وخفف عنى، ومازلت إلى اليوم أشعر به. هذه المغامرة من أجل الحصول على ورد الألب لا تبدو لى إلا فى ساعات البعد عن الله قصة شبيهة بما جاء بعدها من قصص الغرام فى حياتى، مغامرة من نوع مغامرات دون كيخوته العبيطة.

لم ينته حبى الأول هذا إلى نهاية مطلقًا. بل تداعت نبراته متسائلة معقدة إلى داخل سنوات شبابى، وسار إلى جانب غرامياتى التالية كأخت هادئة كبيرة فى السن. ولكنى حتى الآن لا يمكننى أن أتصور شيئًا أكثر نبلاً وصفاء وجمالاً من هذه البنت الرفيعة الحسب، الغنية، الفتية ذات النظرات الهادئة.

فلما رأيت بعد مرور سنوات عديدة فى معرض فنى بميونخ، تلك الصورة اللطيفة الغامضة الخالية من الاسم، التى تمثل إحدى بنات أسرة فوجار، بدا لى كأن شبابى الحالم الحزين كله يمثل أمامى وينظر إلىّ بعمق وتيه من خلال عينين لا سبيل إلى سبر أغوارهما.

ثم أننى بعد ذلك غيرت جلدى ببطء وتؤدة وتحولت بالتدريج فى النهاية إلى شاب يافع. والصورة الفوتوغرافية التى التقطت لى فى ذلك الوقت تبين شابًا من أبناء الفلاحين، بارز العظام، طويل القامة، يرتدى ملابس التلاميذ الرديئة له عينان خائرتان، وأطراف فجة سخيفة. إلا الرأس ففيه شىء صلب نما قبل الأوان ورأيتنى فى ذلك الوقت اخلع عن نفسى فى شىء من الدهشة عادات أيام الصغر وأتوقع بإحساس غامض من الفرح المتعجل مقدم فترة الدراسة بالجامعة.

وتقرر أن أدرس فى زيورخ، وأشار أصحاب المنحة الدراسية إلى أننى إذا اجتهدت فى الدرس والتحصيل على نحو خاص، فقد أتمكن من القيام برحلة دراسية. كل هذه الأمور لاحت لى كصورة كلاسيكية جميلة: تكعيبة لطيفة جادة فيها تمثالان لهومير وأفلاطون وأنا أجلس فيها مكبًا على بعض الأوراق، ومن كل ناحية نظرة واسعة واضحة إلى المدينة والبحيرة والجبال والفيافى البعيدة. كانت طبيعتى قد ازدادت عزوفًا ولكنها ازدادت اندفاعًا كذلك، وكنت أفرح

بالسعادة المستقبلة وأنا واثق تمامًا من أننى سأكون جديرًا بها.

وكانت دراسة اللغة الإيطالية قد استهوتنى فى عامى الأخير بالمدرسة، وعرفت شيئًا عن الروائيين القدامى وفكرت فى أن أجعل من التعميق فى هذه المعرفة هواية أولى أمارسها فى فصول الدراسة بجامعة زيورخ. وأتى اليوم الذى ودعت فيه مدرسى والأب المشرف على البيت، وحزمت صندوقى ومسمرته وتمسحت فى بيت روزى مودعًا وفى القلب جسرة مريحة.

وتبعت هذه الفترة إجازة أعطتنى نبذة من طعم الحياة المرير، ومزقت لى أجنحة خيالى الجميلة بسرعة وغلظة. كان أول شىء لقيته عند عودتى هو أن أمى مريضة. كانت تلازم الفراش وتوشك ألا تتكلم، حتى أنها لم تتأثر لمقدمى. لم أكن أتكلف البحث عن مواطن الحزن، ولكنى تأملت لأن فرحتى وفخارى الفتى لم يلقيا صدى. ثم أخبرنى أبى بعد ذلك بأنه حقيقة لا يمانع فى أن أدرس فى الجامعة، ولكنه لايستطيع أن يقدم إلىَّ المال اللازم لذلك. وقال إذا لم تكفنى المنحة الصغيرة.، فينبغى علىّ أن أرى كيف أكسب ما أحتاج إليه بعملى وكدى، وإنه عندما كان فى مثل سنى كان يكسب لقمة عيشه بنفسه من زمن، إلى آخر هذا.

كذلك لم يكن فى هذه المرة كثير التجوال والتجديف والتسلق، فقد كان علىّ أن أشارك فى

العمل فى البيت والغيظ، ولم أكن فى فترات الفراغ أجد رغبة فى فعل شىء، ولا حتى القراءة، فقد أثارنى وأتعبنى أن أرى الحياة اليومية الوضيعة تفغر فاها وتطالب بحقها وتلتهم كل ما أتيت به معى من همة وفضل. كان أبى عندما قطع بحل معى فى مسألة المال، كعادته وطبعه غليظًا موجزًا، ولكنه لم يكن مجانبًا للطف معى، ولم أكن مع ذلك لأجد فى ذلك المسلك ما يشرح صدرى. وكذلك ضايقنى وأشعرنى بالأسى ما تبينته من أن تعلمى وكتبى كانت توحى إلى أبى باحترام صامت حيالى فيه شىء غير قليل من التحقير له. ثم إننى كنت كثير التفكير فى روزى وكنت أعاود الإحساس القبيح المتعصب للحق بأننى كفلاح أصلا عاجز عن أن أتحول إلى رجل مرن مطمئن الخطى فى الدنيا. وفكرت أيامًا بطولها، أليس الأفضل أن أبقى هنا وأن أنسى اللاتينى وأنسى آمالى وسط الإكراه الصلب الكثيف الذى تمارسه الحياة المسكينة المحلية. وكنت بين العذاب والغيظ أضرب فى الأرض، ولا أجد حتى عند سرير أمى المريضة راحة أو عزاء. كانت صورة التعكيبة وتمثال هومير التى حلمت بها لا تفتأ تخطر ببالى ساخرة. فكنت أحطمها وأصب جام غضبى وكل عداوة فى نفسى المعذبة عليها. وطالت الأسابيع طولا لم يعد فى إمكانى احتماله، وكأنما تحتم علىَّ أن أضيع شبابى كله فى هذا الوقت المجرد من الأمل، الممتلئ بالغضب والانفصام.

وكما كنت مندهشًا ثائرًا وأنا أرى الحياة تحطم أحلامى السعيدة بهذه السرعة والعمق، كذلك حدثت ظروف جعلتنى أدهش، كيف يظهر فجأة ما يتغلب بقوة على هذا العذاب. كانت الدنيا قد أظهرت لى ناحيتها العاملة الكئيبة، فإذا هى الآن تتقدم فجأة بأعماقها الأبدية أمام عينى المأخوذة وتشحن شبابى بخبرة بسيطة قوية.

أحسست فجر يوم من أيام الصيف ـ وكنت فى فراشى ـ بالعطش، فنهضت لأذهب إلى المطبخ حيث جرت عادتنا على وضع إناء ماء به، وكان علىَّ أن أخترق حجرة نوم والدى لأصل إلى المطبخ، وبينما أنا أسير جذب انتباهى أن أمى تئن أنينا غير مألوف. فتقدمت ناحية سريرها، ولكنها لم ترنى ولم ترد علىَّ، بل واستمرت تئن أنينًا جافًا رهيبًا، وكان جفناها يرتعشان ووجهها شاحبًا تشويه زرقة، ولم يفزعنى هذا على الرغم من أننى كنت سريع الفزع. ثم ما لبثت أن رأيت يديها على الملاءة. ساكنتين كأختين نائمتين. وتبينت من اليدين أن أمى تحتضر، فقد كانتا واهنتين إلى درجة الموت على نحو عجيب مجرد من الإرادة، ليس مألوفًا بين الأحياء. ونسيت عطشى وركعت بجوار فراشها ووضعت يدى فوق جبينها وبحثت عن نظرتها، فلما التقت بى نظرتها، وجدتها طيبة لا عذاب فيها، ولكنها كانت موشكة على الانطفاء. ولم يخطر ببالى أنه ينبغى علىَّ أن أوقظ أبى، الذى كان غارقًا بجوارى فى نوم عميق، يتنفس

أنفاسًا شديدة مسموعة. وهكذا ركعت إلى فراشها نحو ساعتين. وأخذت أتطلع إلى أمى وهى تعانى سكرات الموت. ولقد عانت الموت هادئة جادة، شجاعة كما يليق بعنصرها، وقدمت إلىّ فى ذلك قدوة أى قدوة.

كانت الحجرة الصغيرة هادئة، وبدأ النهار الطالع ينفذ إليها قليلا قليلا بنوره. كان البيت والقرية غارقين فى النوم، وكان لدى الفراغ الكافى لمرافقة روح المحتضرة وهى تتجاوز البيت والقرية والبحيرة والقمم المغطاة بالثلوج لتنفذ إلى الحرية الباردة فى سماء الفجر الصافية. كان ما شعرت به من ألم قليل، لأننى كنت ممتلئًا بالدهشة والاحترام إذا أتيح لى أن أنظر إلى لغز كبير وهو ينحل وإلى حلقة الحياة التى تقفل برعشة رقيقة. وكذلك كانت شجاعة المحتضرة وانصرافها عن الولولة شيئًا عظيمًا، حتى أن شعاعًا صافيًا مبردًا من عظمتها اللاذعة سقط إلى أعماق نفسى. أما أن أبى كان ينام بجوارى، وأما أن الكاهن لم يستدع، ولم يكن هناك قداس أو صلاة لمرافقة الروح العائدة مرافقة قدسية، فهو ما لم أحس به. كل ما أحسست به هو نسمة مرتعدة من الخلود تنساب خلال الحجرة المظلمة وتندمج فى كيانى.

وفى اللحظة الأخيرة، وكانت العينان قد انطفأتا، قبلت للمرة الأولى فى حياتى فم أمى البارد الذابل، ثم أحدث فى برد التلامس الغريب رعبًا مفاجئًا، فجلست على حافة السرير وشعرت بأن الدموع الكبيرة

تتساقط مترددة بطيئة الواحدة تلو الأخرى فوق خدى وذقنى ويدى.

واستيقظ أبى بعد ذلك بقليل فرآنى جالسًا على حافة السرير فنادانى متسائلا عما حدث. وحاولت أن أرد عليه ولكنى لم أتمكن من الكلام، وخرجت من الحجرة، وذهبت كالحالم إلى حجرتى وارتديت ملابسى ببطء وبلا شعور. وما لبث أبى أن جاء إلىَّ.

وقال: لقد ماتت الأم. هل كنت تعرف ذلك؟

فأومأت برأسى:

لماذا تركتنى أغط فى النوم؟ لم يكن الكاهن معها فى ساعتها الأخيرة. وإلا فلـ.. ونطق بلعنة فظيعة.

وشعرت بشىء فى رأسى يؤلمنى، كأن شريانًا انفجر بها. وذهبت إلى أبى وأمسكته بقوة من يديه - وكانت قوته بالنسبة إلى قوتى كقوة طفل إلى رجل - ونظرت إليه فى وجهه. ولم أستطع أن أقول شيئًا. ولكنه هدأ وأخذه الحزن، فلما ذهبنا بعد ذلك إلى أمى. تملكته روعة الموت واصطنع وجهًا احتفاليًا غريبًا. ثم انحنى فوق الميتة وبدأ يولول بصوت خفيض وكأنه طفل صغير، أو كأنه طائر يصدر نغمات عالية ضعيفة. وخرجت من البيت وأخبرت الجيران بالخبر. واستمعوا إلىَّ، ولم يسألوا عن شىء، بل مدوا إلىَّ أيديهم وعرضوا المساعدة فى تدبير البيت الذى أصابه اليتم. وجرى أحدهم فى طريق الدير ليأتى بكاهن، فلما عدت إلى البيت وجدت واحدة من الجيران فى حظيرتنا تنظر فى شئون البقرة.

وأتى الكاهن الجليل وكذلك أتت نسوة المنطقة جميعهن تقريبًا، وجدت كل شىء فى وقته وفى موضعه كأنما كان كل شىء يسير تلقائيًا، حتى النعش أتى دون أن نسعى إليه، واستطعت أن أرى للمرة الأولى بوضوح كيف أنه من الخير أن يكون الإنسان فى الظروف العصيبة فى بلده وبين عشيرته الصغيرة المطمئنة التى يعتمد عليها. وربما كان ينبغى علىّ أن أفكر فى هذا مليا فى اليوم التالى.

فلما بورك النعش وأسقط فى القبر، وعادت القبعات الأسطوانية العجيبة القديمة الخشنة، وكذلك قبعة أبى، كل إلى العلبة التى تحفظ فيها فى الدولاب، حل بأبى المسكين ضعف غريب. فقد بدأ فجأة يأسى على نفسه ويعرض على محنته بعبارات عجيبة أغلبها من التوراة، فهو وقد دفنت زوجته يوشك على أن يفقد ابنه أيضًا عندما يسافر إلى الغربة. ولم يكن كلامه هذا ينتهى عند نهاية، وكنت أستمع إليه مفزوعًا وكنت أقرب ما أكون إلى أن أعده بالبقاء معه.

وفى اللحظة التى تهيأت فيها لأجيب عليه هذه الإجابة، حدث لى شىء عجيب فقد تمثل لى فى لحظة واحدة فجأة كل ما فكرت فيه وتمنيته واشتقت إليه منذ الصغر، مجموعًا أمام عين باطنية انفتحت فى داخلى فجأة. رأيت أعمالاً كبيرة عظيمة تنتظرنى رأيت كتبًا لأقرأها وكتبًا لأكتبها. وسمعت ريح الفون تهب ورأيت إلى البعد بحيرات وشطآنا سعيدة تبرق فى ألوان جنوبية. رأيت أناسًا ذوى وجوه ذكية مفكرة

يتحولون، ونساء رقيقات جميلات، ورأيت طرقًا ممتدة، وممرات تقود إلى ما وراء الألب وقطارات تسرع خلال البلاد رأيت هذا كله دفعة واحدة، كلا على حدة، واضحًا، وخلف الجميع امتداد غير محدود لأفق واضح تتخلله سحب سائرة. التعلم، الخلق، النظر، التجول - كانت ثروة الحياة كلها تلمع بنظرة سريعة حؤلاء أمام عينى، واهتز فى كيانى، كما حدث لى أيام الصغر، شىء فيه إجبار لا شعورى قوى فى مواجهة اتساع الدنيا العظيم.

فسكت وتركت أبى يتحدث ما شاء، واكتفيت بهز رأسى والانتظار إلى أن تهدأ العاصفة. وحدث هذا فى المساء، فشرحت له عزمى الذى لا يلين على الدراسة بالجامعة وعلىَّ أن أبحث عن موطنى المستقبل فى دنيا الفكر، وأوضحت له أننى لا أطمع فى أن أحصل منه على مساعدات مالية. ولم يلح فى النفوذ إلى داخل ضميرى واكتفى بالنظر إلىّ آسفًا وهو يهز رأسه. فقد فهم هو أيضًا أننى من الآن فصاعدًا سأسير فى طرقى الخاصة وأننى سرعان ما أصبح غريبًا كل الغرابة على حياته. ولما عدت اليوم بذاكرتى إلى ذلك اليوم، تمثلت أبى جالسًا فى الكرسى عند النافذة. رأسه القروى الحاد الذكى يقف ثابتًا دون حراك فوق رقبة دقيقة وشعر قصير بدأ الشيب يسرى فيه، وفى التقاطيع الصلبة القاسية صراع بين الرجولة التى لا تلين وبين الألم والشيخوخة الصاعدة.

بقى شىء صغير، ليس غير ذى أهمية، عن أبى وعن إقامتى فى ذلك الوقت تحت سقف بيته، فى الأسبوع الأخير السابق على رحيلى، وضع أبى ذات مساء قبعته وأمسك بمقبض الباب. فسألته: «إلى أين تذهب؟» فقال: «ليس هذا من شأنك.» فقلت: «ما دمت لا تنوى على سوء، فلا يضرك أن تقول...» فضحك وقال بصوت عال: «يمكنك أن تأتى معى، فلم تعد بعد واحداً من أصغر الصغار.» وهكذا ذهبت معه. إلى الحانة. كان هناك بعض الفلاحين يجلسون إلى مائدة عليها إبريق من نبيذ «الهالاور» واثنان من الحوذيين الأغراب يشربان خمر الابسنت، وكانت هناك منضدة تغص بشبان يلعبون الورق ويصخبون صخبًا شديداً.

كنت معتاداً على شرب كأس من النبيذ بين الفينة والفينة، وكانت هذه المرة الأولى التى أدخل فيها غير مضطر حانة لشرب الخمر، كنت أعرف، عن طريق السمع، ومما يرويه الآخرون، أن أبى شريب عتيق. كان يشرب كثيرًا وكان يشرب جيداً، وقد أدى هذا إلى أن بيته، وأن لم يتعرض للإهمال الشديد، ظل فى حالة يرثى لها ولا يؤمل فى الخروج منها إلى خير منها. ولفت نظرى الاحترام الكبير الذى قابله به صاحب الحانة والرواد. وطلب أبى لترًا من نبيذ الفاتليندر، وأمرنى بأن أصب فى الكأس وعلمنى كيف يكون الصب. ينبغى أن يهبط الإنسان بالزجاجة وأن يطيل الشعاع ثم يهبط بالزجاجة عن الفراغ إلى أدنى ما

يمكن. ثم بدأ يحكى لى عن أنواع النبيذ المختلفة التى كان يعرفها أو التى كان فى الظروف النادرة، وفى المدينة أو فى الخارج. معتادًا على شربها. فتكلم باحترام حاد عن نبيذ الفيلتليندر الأحمر القانى الذى كان يعرف منه أصنافًا ثلاثة يفرق بينها تفريقًا. ثم انتقل إلى الحديث عن زجاجات معينة من نبيذ الفيلتليندر وانخفض أثناء ذلك صوته واتسم بسمة الإلحاح والنفاذ، وأخيرًا حكى بصوت هامس وقد اتخذت سحنته هيئة من يقص حكاية من الحكايات الخرافية، عن نبيذ نويشاتل، فقال أن هناك من هذا النبيذ قطفات يرسم نبيذها نجمة من الرغوة عندما يصب فى الكئوس. ورسم بأصبع السبابة بعد أن بلله باللعاب نجمة على المنضدة. ثم استغرق بعد ذلك فى الحديث عن احتمالات هائلة وافتراضات ضخمة عن كنه الشمبانيا وطعمها، فلم يكن قد شربها قط، ولكنه كان يعتقد أن زجاجة منها تكفى للعب برأسى رجلين اثنين أشد اللعب.

وأشعل لنفسه غليونًا وقد صمت وانهمك فى التفكير ولاحظ أننى لا أدخن شيئًا فأعطانى ما أشترى به عشر سيجارات. ثم جلسنا الواحد فى مواجهة الآخر. ننفث لدخان ونشرب ببطء حتى ارتشفنا اللتر كله. وأعجبنى جدًا طعم النبيذ الفيلتليندر الأصفر الحار - وتجرأ الفلاحون الجالسون إلى المائدة المجاورة تدريجيًا على الدخول معنا فى حديث، وفى النهاية انتقلوا الواحد بعد

الآخر، وكل يصطنع الحذر ويسعل سعالا خفيفًا للتغلب على الارتباك.

وما لبثت أن أصبحت فى المركز، واتضح لى أن سمعتى كمتسلق للجبال لم تتوار فى النسيان. وحكى بعضهم عن تسلقات جريئة وعن نزلات خطيرة، بعد أن أحاطتها بغلالة من الأساطير وعارض البعض، ودافع آخرون.

وكنا فى هذه الأثناء قد فرغنا من اللتر الثانى أو أوشكنا. وبدأ دمى يحدث فى عينى ما يشبه الأزيز. ورحت، على عكس طبيعتى وميلى، أتفاخر بصوت عال وأحكى قصة تسلقى السفح العلوى للزينا لبشتوك الخطير، حيث حصلت على ورد الألب لروزى جيرتانر. ولم يصدقنى الحاضرون، فاشتد غيظى. وتحديت كل من يكذبنى أن ينازلنى مصارعة وقلت لهم إننى عند الضرورة سأصارعهم جميعًا دفعة واحدة. عند ذاك ذهب فلاح عجوز مقوس الظهر إلى دولاب الآنية وأحضر إبريقًا كبيرًا من الفخار وأرقده على جانبه فوق المنضدة.

وقال ضاحكًا: أريد أن أقول لك شيئًا. إذا كنت فعلا بهذه القوة فحطم هذا الإبريق بلكمة من يدك. فإذا فعلت قدمنا لك من النبيذ قدرًا ما يسع، فإذا لم تستطع فعليك أن تدفع أنت ثمن النبيذ.

ووافق أبى على الفور. فنهضت ولففت يدى بمنديل وضربت. ضربت مرة ومرة ثانية دونما نتيجة،

وفى المرة الثالثة تحطم الإبريق. صاح أبى وقد أضاء وجهه من الفرحة: «ادفعوا!» وبدا الفلاح العجوز كما لو كان موافقًا. وقال: «حسنًا سأدفع ثمن النبيذ الذى يسعه. ولكنه لن يكون كثيرًا.» وبطبيعة الحال لم تكن القطع المحطمة تتسع مجتمعة لأكثر من كأس. أما أنا فكان نصيبى ألمًا فى ذراعى وعلاوة عليه سخرية. حتى أبى تهكم علىَّ هو الآخر.

عند ذاك صحت أنا فى الرجل: «والآن، لقد كسبت الرهان هه!» وصببت فى بقايا الإبريق خمرًا من زجاجتنا وسكبته على رأس الرجل. فصفق الحاضرون مستحسنين وأصبحنا نحن المنتصرين.

وتكررت مثل هذه الدعابات العنيفة وأكثر منهما. ثم جرنى أبى إلى البيت وأثرنا الصخب ثائرين عابثين فى الحجرة والتى كان فيها منذ ثلاثة أسابيع أو أقل نعش أمى. ونمت كالميت، وفى الصباح كنت هامدًا محطمًا. وسخر أبى منى وكان هو نشيطًا مرحًا مسرورًا بتفوقه علىَّ سرورًا واضحًا. أما أنا فأقسمت بينى وبين نفسى ألا أشرب بعد ذلك مطلقًا، وبقيت أنتظر يوم الرحيل فى اشتياق.

وأتى اليوم ورحلت، ولكنى لم أحفظ القسم. فقد أصبحت أنواع النبيذ «الفيلتليندر » و«الفيلتليندر القانى» و «النوينبورجر شترنفاين»، وكثيرًا غيرها منذ ذلك الحين من معارفى ومن خيرة أصدقائى.

الفصل الثالث

فلما خرجت من جو الوطن الثقيل السخيف ضربت بأجنحتى ضربات قوية تعبر عن النعيم والحرية. وأنا إذا كنت فى حياتى قد تعرضت المرة بعد المرة للبلية والمحنة، فقد تمتعت على أية حال رغم ذلك ببهجة أيام الشباب الحالمة الفريدة تمتعًا كاملاً صافيًا. كنت كالمحارب الفتى الذى يرتاح على حافة الغابة المزدهرة، أعيش فى قلق بهيج بين النضال والاسترواح. وكنت كالعراف المفعم بالتوقع والتنبؤ أقف عند كل هاوية مظلمة وأنصت إلى فوران التيارات والعواصف العظيمة، وقد سلحت نفسى بالقدرة على الاستماع إلى انسجام الأشياء وتوافق كل ما فى الحياة، وشربت من كل كئوس الشباب المليئة بعمق وسعادة وعانيت فى سكون آلامًا حلوة من أجل نساء جميلات أحطتهن بتبجيل خجول، وتذوقت عنصرًا كريمًا إلى أقصى درجات الكرم من عناصر سعادة الشباب هو الصداقة الخالصة البهيجة القائمة على

الرجولة كل الرجولة وتعمقت فيها إلى أبعد أعماقها.

وصلت بعد رحلة بالقطار، مرتديًا حلة جديدة، حاملا صندوقًا صغيرًا يمتلئ بالكتب وبأمتعتى الأخرى، مستعدًا لغزو جزء من الدنيا، ولكى أثبت للأفظاظ الغلاظ فى القرية بأسرع ما يمكن، أننى منحوت من خشب آخر غير الخشب الذى نحت منه بقية الذين يتسمون باسم كامينتسند. وعشت أعوامًا ثلاثة رائعة فى حجرة السطح الباردة المطلة إلى بعيد ذاتها، أتعلم وأعالج الأدب وأشتاق وأحس بكل جمال الأرض وأحيط نفسى بجو دافئ. لم أكن أنال كل يوم وجبة طعام ساخنة، ولكنى قلبى كان فى كل يوم وكل ليلة وكل ساعة يغنى لى ويضحك ويبكى، وقد أمتلأ بسعادة قوية، وكان يشد الحياة الحبيبة بحرارة وشوق إليه.

كانت زيورخ هى المدينة الكبيرة الأولى التى رأيتها، أنا بيتر الغرير، بيتر الأخضر، ولقد ظللت الأسابيع الطوال فاتحًا عينى على الدوام. لم يخطر ببالى أن أعجب مخلصًا بالحياة فى المدينة أو أن أحسدها أو أتمناها ـ فقد كنت فيما يتعلق بهذه الأمور فلاحًا. ولكنى كنت سعيدًا مسرورًا بالشوارع والبيوت والناس على اختلافها واختلافهم. كنت أتطلع إلى الحارات الغاصة بالعربات والمراسى والميادين والحدائق والمبانى العظيمة والكنائس. رأيت أناسًا مجدين يهرعون زرافات إلى أعمالهم. ورأيت الطلاب

يتجولون بلا هدف، ورأيت الأغنياء يخرجون فى عرباتهم، ورأيت النفاجين ينفخون أوداجهم، ورأيت الأجانب يسيحون على مهل فى كل ناحية. وتمثلت نساء الأغنياء الأنيقات الوسيمات كالطواويس فى حظيرة الدجاج فهن جميلات، متكبرات ومضحكات إلى حد ما. والحق أننى لم أكن خجولاً بمعنى الكلمة، بل كنت عنيدًا أفتقر إلى المرونة، ولم أكن أشك فى أننى الشاب الذى خلق ليعرف حياة المدن معرفة عميقة، وليجد فيها فيما بعد لنفسه مكانًا أكيدًا.

وعرض لى الشباب فى هيئة فتى جميل، كان يدرس فى المدينة نفسها ويستأجر فى بيتى نفسه بالطابق الأول حجرتين جميلتين. وكنت كل يوم أسمعه يعزف الموسيقى على البيانو فى مسكنه تحتى، وأحسست أثناء ذلك لأول مرة بشىء من سحر الموسيقى، الموسيقى ذلك الفن الذى هو أعظم الفنون حلاوة وأنوثة. وكنت أرى الشاب الوسيم يغادر البيت وفى يده اليسرى كتاب أو كراسة نوت موسيقية، وفى يده اليمنى سيجارة يتصاعد منها دخان يحدث وراء مشيته اللينة الرشيقة ما يشبه الدوامة وجذبنى حب خجول إليه، ولكنى بقيت مبتعدًا عزوفًا، أخشى أن أخالط إنسانًا يؤدى فقرى وخشونتى إذا ما قورنا ببساطته وانطلاقه وثراه. إلى إصابتى بالذلة وإحساسى بالضعة. ولكنه هو أتى إلىّ. فى مساء يوم من الأيام سمعت قرعًا على بابى، ففزعت قليلا: فلم أكن قد استقبلت زوارًا فى حجرتى من قبل قط.

ودخل الطالب الوسيم ومد يده لمصافحتى وذكر لى اسمه وتحادث معى بانطلاق ومرح وكأنما نحن نعرف بعضنا بعضًا منذ مدة طويلة.

وقال لى بلطف: «كنت أريد أن أسألك هل تحب أن تمارس الموسيقى معى. ولكنى لم أكن قد أمسكت فى حياتى بآلة موسيقية من قبل. فقلت له هذا وأضفت إليه أننى فيما عدا زغرودة منطقة جبال الألب لا أفهم شيئًا فى أى فن من الفنون، وإن كنت قد استمعت باستحسان شديد عزفه الموسيقى.

وصاح ضاحكًا: «إلى هذا الحد يمكن أن يغتر الإنسان بالمظهر! إننى عندما أنظر إلى هيئتك أوشك أن أقسم على أنك موسيقى. هذا عجيب. ولكنك تستطيع تأدية زغرودة أهل جبال الألب؟ أرجوك أن تسمعنى، فأنا أحب هذه الزغرودة أشد الحب».

وتملكنى الذهول وشرحت له أننى لا أستطيع أن أزغرد هكذا بالطلب فى الحجرة. وأننى أحتاج لهذا إلى أن أكون فى الجبل أو على الأقل فى العراء وأن تتملكنى رغبة خاصة خالصة فى الزغرودة.

فقال: «إذًا فلتزغرد فوق الجبل. ما رأيك فى أن يكون ذلك غدًا؟ أرجوك أحر الرجاء أن توافق. يمكننا أن نخرج للنزهة إلى المرتفع معا مساء، ثم نتمشى ونتجاذب أطراف الحديث قليلا، وعندما نرتفع فوق الجبل تزغرد على طريقة أهل الألب، ثم نذهب بعد ذلك لنتناول العشاء فى أية قرية. هل لديك وقت؟

آه طبعًا! عندى من الوقت كفاية. ووافقت على الاقتراح بسرعة. ثم رجوته أن يعزف لى شيئًا. ونزلت معه إلى مسكنه الكبير الجميل. كانت هناك صور تحيط بها براويز حديثة، وبيانو، وكان بالمسكن شىء من الاضطراب اللطيف، وعبير سجائر رقيق، وكانت كل هذه الأمور تحدث بالمسكن الجميل نوعًا من الأناقة المنطلقة المريحة، وتخلق جوًا من الارتياح بين الجدران لم أكن قد أحطت به من قبل. وجلس ريشارد إلى البيانو وعزف شيئًا من الموسيقى.

وقال لى وهو يومئ برأسه: «أنت تعرف هذه الموسيقى طبعًا، أليس كذلك؟» وبدت هيئته رائعة، وهو ينصرف عن العزف ويدور برأسه الجميلة ليطل على بنظرة براقة زاهرة.

فقلت: لا، أنا لا أعرف شيئًا.

فصاح قائلا: «هذه موسيقى فاجنر، قطعة من «أساطين الغناء» ثم استمر فى اللعب. وجاءت موسيقى خفيفة، قوية متعطشة، صافية، وأحاطت بى فإنى فى حمام فاتر مثير. وفى الوقت نفسه تأملت بابتهاج خفى القفا الرشيق، والظهر الممشوق، واليدين العازفتين البيضاوين، فتملكنى نفس الشعور الهياب المندهش القائم على الحنان والتبجيل، الذى تأملت به من قبل التلميذ ذا الشعر الأسود. وقد ساورتنى فكرة خجولة توشك أن تكون تنبؤا، إن هذا الإنسان قد يصبح بالفعل صديقى، وأن آمالى القديمة التى لم

تختف فى طيات النسيان والتى كانت تسعى إلى مثل هذه الصداقة، ستتحقق.

وفى اليوم التالى ذهبت إليه لنخرج معًا. وتسلقنا ببطء ونحن نتبادل أطراف الحديث، تلا متوسط الارتفاع، وتطلعنا إلى المدينة والبحيرة والحدائق وتمتعنا بجمال المغرب الدسم.

وصاح ريشارد: «والآن أسمعنى الزغرودة الألبية، وإذا كنت لاتزال على خجلك فأدر لى ظهرك، وارفع صوتك أرجوك».

كان عليه أن يطمئن بالا! فقد اندفعت أزغرد بعنف وسرور نافذًا بزغردتى إلى أجواز أفق المغرب الوردى، مقلبًا صوتى على كافة الطبقات والتقاسيم. فلما فرغت وجدته يريد أن يقول شيئًا، ثم سكت لتوه، وأشار بأصبعه إلى الجبال المقابلة وهو يرهف السمع. من فوق مرتفع بعيد تناهى إلينا الرد على الزغرودة الألبية، خافتًا، ممدودًا، متضخمًا، تحية من أحد الرعاة أو الجوالة، فأنصتنا فى سكون وسرور. وبينما نحن واقفان منصتان تملكنى إحساس مختلط برعشة لطيفة، أننى أقف بجوار صديق، وأننا ننظر معًا إلى أجواز الحياة النائية الجميلة المكتسية بسحاب وردى. وبدأت البحيرة فى هيئتها المسائية تتلاعب بألوانها فى نعومة، ورأيت قبيل الغروب من خلال أبخرة متحللة بعض قمم الألب العنيدة المدببة فى جسارة وقحة.

فقلت: «هذا هو وطنى. هذا الشق الصخرى الأوسط هو السفح الأحمر، وإلى اليمين جبل الجايسهورن، وإلى اليمين عن بعد جبل زينالبشتوك المستدير. كنت قد تجاوزت العاشرة بثلاثة أسابيع، عندما ارتقيت هذه الهضبة المستديرة للمرة الأولى».

وأجهت عينى لعلى أرى كذلك القمة الجنوبية.

وانقضت هنيهة قال ريشارد بعدها شيئًا لم أفهمه.

فسألته: «ماذا تقول؟»

فقال: «أقول إننى أعرف الآن الفن الذى تمارسه».

ـ وماهو؟

ـ أنت شاعر.

فاحمر وجهى خجلاً وغضبًا معًا ودهشت كيف أمكنه أن يخمن هذا.

وصحت: «لا، أنا لست شاعرًا. حقيقة أننى فى المدرسة ألفت بعض الأبيات الشعرية ولكن وقتًا طويلا مضى لم أكتب فيه شيئًا».

ـ أتسمح لى بأن أرى هذه الأبيات؟

ـ لقد أحرقتها. ولو لم أكن قد أحرقتها، لما عرضتها عليك.

ـ لابد إنها كانت من الشعر الحديث، فيها كثير من تأثير نيتشه، هه؟

ـ ماهذا؟

ـ نيتشه؟! رباه، ألا تعرف من هو؟

ـ لا! ومن أين لى معرفته؟

هنالك اشتد إعجابه وعجبه من أننى لا أعرف نيتشه. أما أنا فاغتظت وسألته عن عدد الخدود الجبلية التى عبرها فى حياته. فلما أجاب بأنه لم يعبر واحدًا منها، تصنعت الاندهاش والتهكم كما فعل هو من قبل حيالى. عند ذاك وضع يده على ذراعى وقال جادًا: «أنت حساس! ولكنك لا تعرف أنت نفسك، أى إنسان أنت، لم يمتد إليك الفساد، ويتمنى أن يكون مثلك المتمنون فما أقل أمثالك! إنك ستعرف فى مدى عام أو عامين نيتشه وما إلى ذلك من سقط المتاع أفضل منى، فأنت أكثر سعيًا إلى الأعماق وأكثر ذكاء منى. ولكنى أحبك كما أنت الآن. أنت لاتعرف نيتشه ولا تعرف فاجنر، ولكنك تسلقت الكثير من الجبال ذات الثلوج، وأنت ذو وجه نشيط من أوجه منطقة الجنوب. ولا شك إنك كذلك شاعر. فأنا أستطيع أن أرى ذلك فى نظرتك وفى جبهتك.

كذلك أدهشنى وأثار استغرابى حملقته فى بحرية وبساطة وتجرد من الخجل، وإعلانه رأيه فى غير تردد.

وكان عجبى وفرحى أشد عندما ارتبطنا برباط الصداقة بعد مرور ثمانية أيام. واحتفلنا بمراسيمها التقليدية، فى حديقة حانة للبيرة كثيرة الرواد، وهب

ريشارد أمام الناس واقفًا فقبلنى وعانقنى ورقص معى فى شىء من العبث وتصنع الجنون حول المائدة(*) وقلت له فى خجل وعلى سبيل التحذير: «ماذا سيقول الناس عنا!».

ـ سيقولون فى أنفسهم: هذان رجلان سعيدان إلى درجة غير مألوفة أو ثملان إلى درجة خارقة للعادة: وأكثرهم لن يقول شيئًا.

وكان ريشارد بصفة عامة يبدو لى، على الرغم منه وكأنه أكبر منى سنًا وأكثر منى حذقًا، وأحسن منى تربية، ويعرف فى كل الأمور مايفرضه الحرص وماتستطيعه البديهة. كان بالقياس إلىّ، كالطفل تمامًا. كان فى الشارع يغازل البنات الصغيرات غير المكتملات مغازلة فيها التهكم والتهويل، وكان يقطع المعزوفات الموسيقية الجادة التى يعزفها على البيانو فجأة وعلى غير انتظار ليقول نكتًا صبيانية تمامًا، وذات مرة دخلنا بدافع الفضول إلى كنيسة، وجلسنا أثناء العظة، فإذا به يهمس إلىّ باهتمام وتفكير: «اسمع، ألا تجد أنت أيضا أن هذا القسيس يبدو

(*) هذه طريقة مألوفة فى ألمانيا. عندما يتعارف اثنان ويقرران أن تكون العلاقة بينهما علاقة الصديق بصديقه، يحتفلان بذلك فى كل مكان عام أو خاص، فيكون هناك شىء من نبيذ لنخب الصداقة، وتكون قبلة هى قبلة الصداقة، وعناق هو عناق الصداقة، وبعد ذلك ينادى الواحد صاحبه بـ «أنت» بدلاً من «أنتم أو حضرتك»، ويكون ذلك رفعا للكلفة وما إلى ذلك ـ وللصداقة خاصة فى الأزمان القديمة، ربما إلى مطلع القرن العشرين، مكان مهم فى الحياة الألمانية وفى الأدب الألمانى، فهى من الموضوعات التى كثرت معالجتها (المترجم).

كالأرنب العجوز؟» كان التشبيه ممتازًا، ولكنى قلت له إنه كان ينبغى عليه أن ينتظر حتى نخرج ويقول لى هذا الخاطر.

وقال مستنكرًا: ألم يكن التشبيه صحيحًا! لو أنى انتظرت فربما كنت أنساه.

أما أن نكاته لم تكن دائمًا عميقة المغزى، وكانت كثيرًا ما تنتهى إلى تلاوة أبيات لفيلهلم بوش(*) فهذا مالم يكن ليضايقنى ولا ليضايق الآخرين، لأن الشىء الذى كنا نحبه فيه ونعجب به، لم يكن النكتة والمغزى، بل كان المرح المنطلق الذى يتصف به كيانه الصافى الغرير، ذلك المرح الذى كان يخرج فى كل لحظة ويحيط ريشارد بجو بهيج بسيط. كان هذا المرح يتخذ مرة صورة الحركة، ومرة أخرى صورة الضحكة الخافتة، ومرة ثالثة صورة النظرة اللطيفة، ولم يكن يستطيع أن يظل محبوسًا متواريًا مدة طويلة. وأنا أعتقد عن اقتناع أنه أحيانًا يضحك أو يمرح على نحو ما وهو نائم مستغرق فى النوم.

وكان ريشارد كثيرًا ما يعرفنى بشباب آخرين، من الطلاب والموسيقيين والرسامين والأدباء ومن الأجانب، فقد كان الأشخاص المهتمون بالفنون والمحبون لها والأشخاص المنفردون بأشياء خاصة الذين يضطربون فى المدينة، يقعون فى طريقه. وكان بينهم أناس

(*) شاعر ورسام ألماني شهير ومؤلفاته عبارة عن قصص ونكت شعرية لطيفة مزينة بالرسوم، ولا يكاد بيت ألماني يخلو منها (المترجم).

جادون، مناضلون أشد النضال فى ميدان الفكر، فيهم الفلاسفة وفيم الضالعون فى علم الجمال، والاشتراكيون، ولقد تعلمت من الكثيرين منهم شيئًا غير قليل. كانت المعلومات من المجالات المختلفة تطير إلىّ شيئًا فشيئًا، وكنت أكملها وأقرأ الكثير، وهكذا كونت بالتدريج صورة عن الأمور التى كانت تشغل أكثر رءوس العصر نشاطًا أو التى كانت تتملكها، واكتسبت نظرة مفيدة حافزة فى الفكر الشيوعى العالمى. كانت آمالهم وأفكارهم وأعمالهم ومثلهم تستهوينى وكنت أفهمها، ولم أكن أحس بدافع خاص قوى يحملنى على أن أشترك معهم أو أشترك ضدهم. كنت أجد عند غالبيتهم طاقة الفكر والعاطفة كلها موجهة إلى أحوال وتنظيمات المجتمع والدولة والعلوم والفنون ومناهج التعليم، وكنت أجد أن قلتهم تحس بالحاجة إلى توضيح علاقتهم الشخصية بالزمان والأبد، دون أن يقيموا على أنفسهم هدفًا خارجًا عن ذلك. كذلك كان هذا الدافع عندى أنا نفسى غارقًا على الأغلب فى حالة نصفها السبات.

ولم أعقد صداقة أخرى بعد صداقتى لريشارد لأننى كنت أحبه الحب كله وأحبه بغيرة. حتى النساء اللاتى كان يخالط منهن الكثيرات مخالطة فيها الألفة، اجتهدت فى أن أبعده عنهن. وكنت ألتزم بأبسط المواعيد التى نتفق معا عليها التزامًا شديدًا مسرفًا فى الدقة، وكنت شديد التأثر عندما يتأخر ويدعنى أنتظره. وذات مرة رجانى أن أحضر إليه لأصطحبه إلى التجديف فى ساعة معينة. وذهبت إليه

فلم أجده فى البيت وانتظرته ساعتين دونما فائدة، وفى اليوم التالى لمته على إهماله بشدة.

فضحك مندهشًا وقال: لماذا لم تذهب إلى التجديف بكل بساطة؟ والذى حدث هو أننى نسيت الموضوع تمامًا، وليست هذه كارثة.

فأجبته بعنف: لقد تعودت على أن أحافظ على كلمتى وعلى مواعيدى بكل دقة. وهأنذا قد تعودت كذلك على أنك لا تعبأ بأن تدعنى أنتظرك فى مكان ما وأنت تعرف. وما دام للإنسان أصدقاء كثيرة مثلك!

ونظر إلى بدهشة لا حد لها.

ـ هه، إلى هذا الحد من الجد تحمل كل الأمور البسيطة؟.

ـ ولكن صداقتى ليست أمرًا بسيطًا.

وهنا استشهد ريشارد ببيتين من الشعر تلاهما بالتعظيم والتفخيم.

وقد نفذت هذه الكلمة إلى ذات نفسه.

فأقسم فى الحال على أن يصلح نفسه..

وأمسكنى من رأسى ومسح طرف أنفه فى طرف أنفى مصطنعًا طريق العشاق فى الشرق(*) وداعبنى حتى ضحكت من شدة الغيظ وتملصت منه. ولكن صداقتنا ظلت كما هى لم تتأثر.

كانت حجرتى فوق السطح تمتلئ بمجلدات مستعارة ثمينة فى أغلبها، هى مؤلفات الفلاسفة

(*) فى اليابان. (المترجم).

والشعراء والأدباء والنقّاد الجدد وهى مجلات أدبية من ألمانيا وفرنسا، ومسرحيات جديدة، ومطبوعات من صحافة التسلية الفرنسية ومن مصممى الموضة النمساوية فى فيينا. كنت أقرأ هذه الكتب بسرعة، وأنهمك على نحو أكثر جدية حبًا فى قراءة مؤلفات قدامى الروائيين الإيطاليين، وفى دراساتى التاريخية. وأصبحت رغبتى هى أن أترك علم اللغة فى أقرب فرصة ممكنة وأن أعكف على دراسة التاريخ وحده. فكنت أقرأ مؤلفات فى التاريخ العام وفى المنهج التاريخى، وأقرأ إلى جانب هذه المؤلفات المصادر التاريخية والدراسات المحدودة بالعصر الوسيط المتأخر فى إيطاليا وفى فرنسا. وتعرفت فى أثناء هذه القراءات لأول مرة بحبيبى بين البشر، تعرفت بفرانتس الأسيزى(*) أسعد. وأقدس القديسين جميعًا، وشملته بمعرفة أدق. وهكذا أصبح حلمى، الذى رأيت فيه ثروة الحياة والفكر. تتفتح أمامى، كل يوم حقيقة، وصار يملأ قلبى بدفء الطموح والمتعة وغرور الشباب. كان العلم، وهو فى الحقيقة علم ممل غير ممتع، يستحوذ على فى قاعة المحاضرات بالجامعة.

فإذا عدت إلى البيت رجعت إلى قصص العصور الوسطى اللطيفة المليئة بالتقوى تارة وبالرعب تارة أخرى، أو رجعت إلى المؤلفين الروائيين القدامى

(*) فرانتس أو فرانسوا أو فرنشيسكو الأسيزى هو مؤسس طائفة الفرنسسكان. ويعد من أهم المفكرين الأوروبيين فى العصر الوسيط. ولد عام ١١٨٢م ومات فى عام ١٢٢٦م (المترجم).

المتعين الذين كان عالمهم الجميل الممتع يحتوينى كركن خيالى ظليل مصطبغ بالغروب، أو كنت أحس بالموجة العارمة للمثل والعواطف الحديثة تمر فوقى مرورًا. وبين هذا وذاك، كنت أسمع الموسيقى وأضحك مع ريشارد وأشترك فى اجتماعات أصدقائه وأخالط الفرنسيين والألمان والروس، وأستمع إلى من يتلون الكتب الحديثة، وأدخل فى مراسم الرسامين، وأندس فى الاجتماعات المسائية التى كان عدد كبير من المفكرين الثائرين الغامضين يظهرون فيها ويحيطون بالإنسان كالمشتركين فى كرنفال عجيب.

وفى اليوم من أيام الآحاد زار ريشارد معى معرضًا صغيرًا للوحات الرسامين الجدد. ووقف صديقى أمام صورة تمثل منظرًا من جبال الألب وبه بعض العنزات.

كانت اللوحة جميلة فيها جهد، ولكنها كانت قديمة الأسلوب شيئًا ما، وكانت فى الحقيقة خالية من النواة الفنية الصحيحة. لوحة من اللوحات الجميلة التى لاتتسم بأهمية والتى يرى الإنسان غير قليل منها فى كل صالون. على أن هذه اللوحة أعجبتنى؛ لأنها كانت تمثيلا صادقًا إلى حد كبير لمناظر جبال الألب التى فى وطنى. وسألت ريشارد عما يجذبه فى هذه اللوحة.

فقال وهو يشير إلى اسم الرسام فى الركن: «هذا» ولم أستطع أن أفك رموز الاسم المكتوب باللون

الأحمر الداكن. وقال ريشارد: «الصورة نفسها ليست عملا عظيمًا، هناك ما هو أجمل منها. ولكن ليست هناك رسامة أجمل من الرسامة التى رسمت هذه. اسمها إرمينيا أليبيتى وإن شئت ذهبنا إليها فى الغد لنقول لها إنها رسامة عظيمة».

ـ هل تعرفها؟

ـ نعم. لو كانت لوحاتها جميلة مثلها لأثرت منذ زمن طويل ثراء عريضًا، ولما كانت تمارس الرسم الآن. فهى لا ترسم عن رغبة. وإنما ترسم لأنها لم تتعلم شيئًا آخر تكسب به معاشها.

ونسى ريشارد هذا الموضوع فى اليوم التالى، ولم يتذكره إلا بعد أربعة أسابيع.

قال: قابلت أمس اليبيتى. ولقد كنا نريد أن نزورها. تعال إذًا. هل ياقة قميصك نظيفة؟ فهى تنظر أول ما تنظر إلى اللياقة!

كانت ياقة قميصى نظيفة وذهبنا معا إلى اليبيتى وكنت فى داخلية نفسى معارضًا بعض الشىء، لأن اختلاف ريشارد المنطلق الجرىء وهو ورفاقه إلى الرسامات والطالبات لم يكن ليعجبنى على الإطلاق. كان الرجال فى مثل هذه اللقاءات لا يقفون عند اعتبار فيغلظون تارة ويسخرون تارة أخرى، أما البنات فكن عمليات، حاذقات واعيات، ولم يكن فى واحدة منهن شىء من عبير النقاوة والصفاء الذى كنت أحب أن أرى النساء فيه وأن أبجلهم فى وسطه.

ودخلت المرسم فى شىء من الوجل. كنت قد ألفت رائحة المراسم حقيقة، ولكن تلك كانت المرة الأولى التى أدخل فيها مرسم امرأة. كان هذا المرسم بسيطًا، منتظمًا جدًا. كانت هناك ثلاث أو أربع لوحات جاهزة معلقة فى البراويز، وكانت هناك لوحة على الحامل لم يكتمل تبطينها الأول بعد تمامًا. أما بقية الحيطان فكانت تغطيها رسومات بالقلم الرصاص. نظيفة مشرقة، وكان هناك دولاب للكتب نصفه فارغ. وتلقت الرسامة سلامنا بفتور. ووضعت الريشة بعيدًا، واستندت وهى ترتدى مريلة الرسم إلى الدولاب. وبدا عليها كأنها لاتحب أن تضيع الوقت.

وكال لها ريشارد المديح الهائل على الصورة المعلقة بالمعرض. فسخرت منه ومنعته.

ـ ولكن يا آنسة، ربما كان قد خطر ببالى أن أشترى الصورة. فى هذه الصورة مثلا بقرات تحاكى الواقع..

فقالت هادئة: بل هى عنزات!.

ـ عنزات؟ فعلا، أعنى عنزات. عنزات نتيجة دراسة تخلب اللب. إنها عنزات تنبض بالحياة عنزات، فى هيئة العنز تمامًا. اسألى صديقى كامينتسند فهو من أبناء الجبل، وسوف يؤكد حكمى.

وهنا أحسست، وأنا مستغرق بارتباك وسرور فى الإنصات إلى الثرثرة، بأن نظرة الرسامة تمر علىَّ وتتفحصنى. لقد نظرت إلىَّ طويلا فى غير ما تردد.

ـ هل أنت من أهل الجبال؟

ـ نعم يا آنسة.

ـ هذا شىء يظهر للعيان. وما رأيك فى العنزات؟

ـ إنها بكل تأكيد جيدة جدًا. وأنا على الأقل لم أعتقد أنها بقرات، كما فعل ريشارد.

ـ هذا من لطفك. هل أنت موسيقى؟

ـ لا. أنا طالب جامعى.

ولم تزد على ذلك كلمة واحدة. ووجدت أنا متسعًا لتأملها. كان قوامها متواريًا وراء المريلة، وكان وجهها لايبدو لى جميلا. كانت تقاطيعها حادة، قصيرة، وكانت عيناها تتسمان بشىء من الشدة، وكان شعرها غزيرًا، أسود. ناعمًا. أما ما ضايقنى. بل وأوشك أن ينفرنى منها، فكان لون بشرتها. كانت تذكرنى بالجبنة اللينة القديمة، ولو وجدت فى بشرتها شقوقًا خضراء لما اندهشت لذلك. والحق أننى لم أكن قد رأيت فى حياتى من قبل هذا الشحوب الذى يعلو بشرة الإيطاليين أحيانًا، وقد رأيته الآن فى ضوء المرسم الصباحى غير الملائم فإذا هو مفزع، كأنه الحجر ـ لا المرمر ـ بل الحجر الذى تعرض لعوامل التعرية والتبييض. ولم أكن معتادًا على التطلع إلى أوجه النساء لتفحص شكلهن، بل كنت كعادة الصبية أبحث فيها عن القشرة، عن الوردية عن الجاذبية.

وكذلك كان ريشارد منقبضًا من نتيجة زيارة اليوم. وأما كان أشد استغرابى، أو على الأصح فزعى،

عندما أبلغنى بعد مدة، أن الآنسة أليبتى تحب أن ترسمنى. وقال إنها تريد بضعة تخطيطات، فهى لا تحتاج إلى وجهى، ولكنها تجد أن قامتى فيها شىء خاص مميز.

وقبل أن أسترسل فى هذا الحديث، أعرض لحادث آخر غير مجرى حياتى وحدد مستقبلى لسنين عديدة قادمة. فقد صحوت ذات صباح لأجد أننى أصبحت أديبًا.

كنت رضوخًا لإلحاح ريشارد، وعلى سبيل التمرين على الكتابة والأسلوب، أصف أحيانًا أشخاصًا من محيطنا، وبعض ما يعرض لنا، وأسجل محادثات وما إلى ذلك على نحو مطابق للواقع ما أمكن ذلك، ثم كتبت بعض المقالات تناولت فيها موضوعات تاريخية وموضوعات أدبية.

وذات صباح، كنت ما أزال راقدًا فى فراشى، فدخل ريشارد علىَّ ووضع مبلغ خمسة وثلاثين فرنكًا على اللحاف. وقال لى وهو يصطنع لغة رجال الأعمال: هذا المبلغ ملكك! وأخيرًا وبعد أن وجهت إليه الأسئلة تلو الأسئلة واستنفدت كل الاحتمالات الممكنة، أخرج صفحة من جريدة من جيبه، وأرانى فيها قصة بقلمى مطبوعة فيها. كان قد نسخ عددًا من مخطوطاتى وقدمها إلى محرر من أصدقائه فى هدوء وباعها إليه. وإذا بى أمسك فى يدى بأول عمل من أعمالى مطبوعًا ومعه المكافأة.

لم تعتمل نفسى من قبل بما اعتملت به فى تلك اللحظة. كنت فى قرارة نفسى غاضبًا من وصاية ريشارد علىَّ فى هذا الموضوع، ولكن أول فخار أدبى حلو، والنقود الجميلة والتفكير فى إمكانية بلوغ شىء من مجد أدبى صغير، كل هذا كان له الغلبة.

ورتب صديقى مقابلة بينى وبين المحرر فى مقهى. ورجانى المحرر فى أن أسمح له بأن يحتفظ بالأعمال الأخرى التى قدمها ريشارد إليه، ودعانى إلى أن أبعث إليه من حين إلى آخر بالجديد. وقال لى إن أعمالى فيها نغمة خاصة، خاصة فيما يتصل بالموضوعات التارخية التى يتمنى لو أمددته بمزيد منها لقاء مكافأة مجزية. هنالك تبينت أهمية الموضوع. تبينت أن النتيجة هى أننى سأنال كل يوم طعامًا جيدًا، وسأسدد ديونى القليلة، وعلاوة على ذلك كله سأتمكن عما قريب من نبذ الدراسة المفروضة علىّ فرضًا والاشتغال فى الميدان المحبب إلى نفسى معتمدًا فى معاشى على نفسى.

وتلقيت فى هذه الأثناء من هذا المحرر كمية من الكتب الجديدة، بعث بها إلى بيتى لكى أكتب كلمة فى نقدها. فالتهمت ما فيها التهامًا. وعكفت عليها عدة أسابيع. ولما كانت المكافأة تدفع مرة كل ثلاثة أشهر، ولما كنت فى انتظار هذه المكافآت أعيش على مستوى أعلى من المألوف، فقد تبينت ذات يوم أننى لا أملك من النقود شيئًا، وأصبح علىَّ أن أبدأ فترة من الصوم والجوع، فعشت أيامًا لا آكل إلا الخبز والقهوة فى

حجرتى، ثم دفعنى الجوع إلى مطعم. وأخذت ثلاثة من الكتب التى تأتينى لكتابة مقالات نقد عليها، وأنا أفكر فى تركها فى المطعم كرهن إلى أن أسدد ثمن ما آكله. وكنت قد حاولت من قبل أن أبيع شيئًا من هذه الكتب إلى مكتبات الكتب القديمة فلم أفلح. وتناولت فى المطعم وجبة شهية ختمتها بالقهوة السوداء، وبينما أنا أشرب القهوة، بدأ القلق يساورنى. واعترفت فى تردد للجرسونة بأننى لا أملك مالا، وبأننى أريد أن أترك لديها الكتب رهنًا، فتناولت أحد الكتب، وكان ديوانًا من الشعر، وقلبت فى أوراقه بشغف، وسألتنى إن كنت أسمح لها بأن تقرأه. وقالت إنها تحب القراءة، وإنها لا تصل إلى الكتب، وأحسست أننى أنقذت. فاقترحت عليها أن تحتفظ بالكتب الثلاثة تسديدًا لثمن الوجبة التى أكلتها. فوافقت، واشترت منى على هذا النحو، المرة بعد المرة، كتبًا مجموع أثمانها سبعة عشر فرنكًا. كنت أطلب لقاء كتيب صغير من الشعر، شريحة من الخبز عليها جبن، أما الروايات فكنت أنال لقاءها شريحة من الخبز بالجبن وكأسًا من النبيذ، وأما القصص القصيرة فكانت تقدم لى بدلا منها فنجانًا من القهوة وشيئًا من الخبز، وعلى قدر ما أذكر. كانت تلك المؤلفات فى أغلبها مؤلفات قليلة الأهمية مكتوبة بأسلوب مستحدث عصبى، ولا بد أن البنت الطيبة قد كونت من قراءة هذه الكتب فكرة غريبة عن الأدب الألمانى الحديث. وما زلت أذكر بالسرور تلك الأيام التى كنت أمضى صباحها فى

قراءة عاجلة لكتاب أكتب عليها بضعة سطور، حتى أفرغ منه عند الظهر لأنال بدلا منه شيئًا آكله.

وقد اجتهدت فى إخفاء مشاكلى المالية عن ريشارد لأننى كنت، دونما سبب، أخجل منها، ولم أكن ألجا إلى التماس معونة منه إلا كارهًا ولمدد قصيرة جدًا.

ولم أكن أحسب نفسى أديبًا شاعرًا. فما كنت أكتبه من حين إلى آخر، كان من قبيل الصحافة المسلية، لا من الأدب. ولكنى كنت فيما بينى وبين نفسى أحبس أملا فى أن تتاح لى فى يوم من الأيام فرصة خلق شىء من الأدب، نشيد عظيم جرىء للحنين والحياة.

وكانت صفحة نفسى المرحة الصافية تتعكر أحيانًا بشىء من الكآبة، لا تبلغ بها الاضطراب المهم. كانت هذه الكآبة تأتى ليوم أو لليلة، فى صورة حزن انعزالى حالم، ثم تختفى غير تاركة أى أثر، لتعاودنى بعد أسابيع أو شهور من جديد، وتعودت عليها بالتدريج كأنها صديقة أليفة، ولم أشعر بأنها تصيبنى بالعذاب، بل كنت أرى فيها تعبًا قلقًا فيه حلاوته. كانت هذه الكآبة إذا ساورتنى بالليل، أرقد الساعات ناحية النافذة، أنظر إلى البحيرة السوداء ، وإلى أخيلة الجبال المرتسمة حالكة على السماء الباهتة، ثم أرفع بصرى فوق أخيلة الجبال إلى النجوم الجميلة. وكان شعور مخيف حلو قوى يتملكنى بعد ذلك، فكان هذا الجمال الليلى يطل علىّ ويوجه إلىّ لوما عادلاً. كأن النجوم والبحيرات تشتاق إلى واحد يفهم جمالها

وألم وجودها الصامت ويعبر عنه، وكأنى أنا ذلك الواحد، وكان تلك هى مهنتى الحقيقية، هى: التعبير بالأدب عن الطبيعة الصامتة. وكيف يمكن ذلك، هذا هو الشىء الذى لم أفكر فيه، بل كنت أقف عند حد الإحساس بالليل الجميل الجاد الذى يوشك صبره أن ينفد، وهو يرجو ويلح فى الرجاء الصامت أن آتيه.

ثم إننى لم أكتب قط وأنا فى تلك الحال النفسية. ولكنى كنت أحس تجاه هذه الأصوات الغامضة بالمسئولية وكنت بعد أمثال تلك الليلة أقوم بجولات سيرًا على الأقدام لمدة أيام عديدة بمفردى. وكانت يبدو لى أننى أستطيع على هذا النحو أن أبين للأرض التى تعرض لى بتوسل صامت، شيئًا من الحب، وكنت أنا نفسى أضحك من هذا التصور. وقد تحولت هذه التجولات إلى قاعدة لحياتى فيما بعد: فقد أمضيت جزءًا كبيرًا من سنوات حياتى بعد ذلك كجوال، أسعى خلال البلاد المختلفة فى جولات تستمر أسابيع وشهورًا. وتعودت على أن أسير مسافة طويلة بقليلٍ من المال وبكسرة من الخبز فى جيبى، أسير أيامًا طويلة وحيدًا وأنام فى العراء فى أكثر الأحيان.

لقد نسيت حديثى عن الرسامة لانهماكى فى الحديث عن معالجة الأدب. جاءتنى منها ذات يوم بطاقة: سيجتمع عندى عدد من الأصدقاء والصديقات يوم الخميس لتناول الشاى. أرجوك أن تحضر وأن تحضر صديقك معك.

فذهبنا إليها ووجدنا عددًا كبيرًا من الفنانين معها، كانوا فى غالبيتهم من المغمورين، المنسيين، الفاشلين، وهو شىء كان يثير الشفقة، على الرغم من أنهم كانوا يبدون مسرورين راضين كل السرور والرضا. وأعدت الداعية للضيوف الشاى والساندوتشات واللحم المجفف والسلطة. ولما لم أجد بين الحاضرين أحدًا من معارفى، ولم أكن أطلق الحديث، فقد استسلمت لجوعى وبقيت نصف ساعة آكله وأنا هادئ البال قرير العين شديد الجلد، بينما كان الآخرون ينقنقون فى الشاى ويكثرون من الثرثرة. ولما هم هؤلاء، الواحد بعد الآخر، أن يمدوا أيديهم لتناول شىء. اتضح أننى قد أكلت اللحم كله وحدى تقريبًا. فقد اعتقدت خطأ أن هناك على الأقل طبقًا آخر أعد على سبيل الاحتياط. ولما بدأ البعض يضحكون وينظرون إلىّ نظرات ساخرة، اغتظت ولعنت الإيطالية مع كل ما قدمت من لحم مقدد. ونهضت واقفًا واعتذرت لها باختصار وقلت لها إننى فى المرة القادمة سأحضر طعامى معى، ومددت يدى إلى قبعتى.

فأخذت أليبتى القبعة من يدى، ونظرت إلىّ مندهشة وهادئة ورجتنى جادة أن أبقى. ووقع على وجهها نور لمبة واقفة، خفت حدته لنفاذه من خلال الطربوش الرقيق، فرأيت فى وسط غضبى بعينين أصابا الفهم فجأة الجمال الناضج الذى أتيح لهذه المرأة. وفى الحال أحسست بأننى جلف، غبى،

فاتخذت مكانًا فى ركن بعيد كتلميذ المدرسة الذى ينال العقاب. وبقيت فى هذا الركن جالسًا أقلب فى مجموعة صور تمثل بحيرة كومر. أما الآخرون فكانوا يشربون الشاى ويروحون ويجيئون ويتحدثون لغوًا متداخلاً بعضه فى البعض الآخر، وتناهى إلى الأسماع من بعيد صوت آلات الكمان والشيللو تضبط أنغامها، وأزيح ستار، وبدأ أربعة من الشباب أمام منصات مرتجلة، يستعدون لعزف رباعية وترية. وفى هذه اللحظة تقدمت الرسامة إلىّ، ووضعت فنجانًا من الشاى على منضدتى، وانحنت لى بلطف وجلست بجانبى. وبدأت الرباعية واستمرت وقتًا طويلاً، ولكنى لم أسمع شيئًا منها، بل رحت أعجب بعينين واسعتين بهذه المرأة الرشيقة الرقيقة الأنيقة التى كنت أشك فى جمالها والتى أكلت طعامها. وتذكرت بالفرح والخوف أنها كانت تريد أن ترسمنى. ثم فكرت فى روزى جيرتانر وفى تسلق السفح الخطير للحصول على ورد الألب. وفى قصة أميرة الثلوج، فى كل هذه الأشياء التى لاحت لى الآن كتمهيد للحظة اليوم.

فلما انتهت الموسيقى لم تنصرف الرسامة، كما توقعت ذلك خائفًا، بل ظلت جالسة وبدأت تلغو معى فى حديث. فهنأتنى على قصة رأتها لى فى جريدة. وتفكهت على ريشارد الذى كانت بعض البنات يتزاحمن حوله، والذى كان يطلق من حين لآخر ضحكات مجردة من الهموم، تعلو على أصوات الحاضرين جميعًا، ثم رجتنى مرة ثانية أن أسمح لها

بأن ترسمنى. واستأنفت معها الحديث مباشرة باللغة الإيطالية، وحصلت لقاء ذلك على نظرة غمرتها السعادة المفاجئة، نظرة عينين جنوبيتين ممتلئتين بالحيوية، وحصلت علاوة على ذلك على متعة رائعة، متعة الاستماع إليها وهى تتحدث بلغتها، اللغة التى تنسجم مع فمها وعينيها وقوامها، اللغة الإيطالية العذبة الرخيمة الأنيقة المنطلقة السريعة، وقد اصطبغت بمسحة خفيفة خلابة من لهجة تيسين. أما أنا فلم أكن أتكلم لا على نحو جميل ولا بطلاقة، ولكن هذا لم يكن ليسبب لى الحرج. واتفقنا على أن أحضر فى اليوم التالى لترسمنى.

وودعتها بالإيطالية قائلاً: «أريفيديرلا» وانحنيت متقنًا الانحناء ما استطعت إلى إتقانها من سبيل.

فابتسمت وأومأت برأسها وقالت بالإيطالية: «أريفيدرشى دومانى» (إلى اللقاء غدًا).

وشددت الخطى بعد أن خرجت من بيتها، إلى أن بلغ الشارع قمة تل، وفجأة امتد الريف الغارق فى ظلمة الليل أمامى هادئًا جميلاً قويًا. ورأيت قاربًا منفردًا له مصباح ينساب فوق البحيرة ويلقى أشرطة مرتشعة حمراء فوق صفحة المياه السوداء التى لم يكن يبرز منها عادة سوى عنقود منعزل ضيق من الأمواج فى حدود ضيقة رقيقة باهتة كالفضة. وسمعت فى حديقة مجاورة عزف ماندولين وضحكات. وكانت السماء مكتسية إلى نصفها بالسحب، وكانت ريح دافئة قوية تهب فوق التلال.

وكما تداعب الريح أغصان أشجار الفاكهة وهامات أشجار الكستنة، وتعنف بها وتلويها إلى أن تتأوه وتضحك وترتعد، كذلك لعبت بى العاطفة، عندما بلغت قمة التل ركعت، وارتميت على الأرض، وقفزت وتأوهت وخبطت الأرض برجلى، وألقيت القبعة بعيدًا عنى وتمرغت بوجهى فى الحشيش، وهززت جذوع الأشجار. وبكيت وضحكت وولولت وصحت وخجلت وأصبت السعادة والكآبة إلى درجة توشك على الموت. ومرت ساعة كان كل شىء فى متوترًا، مختنقًا فى زمتة حارة عكرة. لم أفكر ولم أدبر ولم أحس بشىء. بل نزلت التل وأنا غارق فى الحلم فجرجرت أذيالى خلال المدينة، ورأيت فى شارع بعيد غير مطروق حانة صغيرة لاتزال مفتوحة فدخلت عن غير إرادة وشربت لترين من نبيذ الفاتليندر ورجعت إلى بيتى قرب الصباح ثملا إلى درجة فظيعة.

وفى عصر اليوم التالى أصيبت الآنسة أليتى بالفزع عندما ذهبت إليها.

وقالت: «ماذا بك؟ هل أنت مريض؟ إنك تبدو زائغًا مشتتًا إلى أقصى حد».

فقلت لها: «ليس بى شىء ذو بال. يبدو لى أننى سكرت فى الليلة الماضية سكرًا مسرفًا. هذا كل ما فى الأمر. هيا ارسمى من فضلك».

وأجلستنى على كرسى ورجتنى أن ألزم السكون.

وقد فعلت، لأننى نعست على الفور وقضيت عصر اليوم نائمًا فى المرسم. ولابد أننى تأثرت

برائحة الترينتينة فى المرسم، فحلمت بأن جندولنا يطلى من جديد. ورأيتنى فى الحلم أرقد بجواره على الزلط وأرى أبى وهو يحرك يديه بالإناء وبالفرشاة. كذلك كانت أمى هناك، فلما سألتها هل لم تمت، قالت لى بصوت خفيض: «لا، لأننى إن لم أكن موجودة، فأنك ستنتهى إلى أن تصبح صعلوكًا مثل أبيك».

فلما صحوت وقعت من الكرسى، وتبينت فى دهشة أننى فى مرسم أرمينيا البيتى، ولم أرها هى، ولكنى سمعتها فى الحجرة المجاورة تعبث بفناجين وملاعق واستنتجت أن الوقت وقت تناول طعام العشاء.

وصاحت فىّ من بعيد: «هل صحوت؟».

ـ نعم. هل نمت طويلا؟

ـ أربع ساعات. ألا تخجل؟

ـ بلى. ولكنى حلمت حلمًا جميلا.

ـ قصه علىَّ إذًا.

ـ نعم، على أن تأتى أولا وتسامحينى.

وأتت، ولكنها أرادت أن تنتظر بالمسامحة إلى أن أكون قد فرغت من رواية حلمى. فحكيت. وبينما أنا أحكى الحلم، هويت عميقًا إلى أيام الطفولة المنسية، فلما سكت عن الكلام، وكانت الدنيا قد أظلمت، كنت قد حكيت لها ولنفسى قصة طفولتى كاملة. ومدت إلى يدها مصافحة، وأصلحت لى ثنيات ثوبى، ودعتنى

للحضور غدًا للمرسم، وأحسست أنها فهمت ورطتى اليوم وأنها عفت عنى.

وفى الأيام التالية كنت أجلس أمامها الساعة تلو الساعة. ولم يكن يتصل بيننا أثناء الرسم حديث تقريبًا كنت أجلس أو أقف ساكنًا كالمسحور، أسمع حركة قلم الفحم الناعمة وأتنسم رائحة ألوان الزيت الخفيفة، ولا أحس بشىء إلا بأننى بجوار امرأة أحبها وأعرف أن نظرها يقع دائمًا علىَّ. كان ضوء المرسم الأبيض ينساب فوق الحيطان، وكانت هناك ذبابات ناعسة تطن عند زجاج النافذة، وكانت شعلة موقد السبرتو تغنى فى الحجرة المجاورة لإننى كنت أتلقى فى نهاية كل جلسة فنجان قهوة.

وكنت فى البيت كثيرًا ما أفكر فى أرمينيا. لم يكن يمس عاطفتى نحوها أو يقللها أننى لم أكن أستطيع أن أقدس فنها. كانت هى جميلة، طيبة، واضح، مطمئنة النفس فما شأنى بصورها؟ كل ما فى الأمر أننى كنت أجد فى عملها الدائب شيئًا بطوليًا. إنها المرأة فى وسط الكفاح فى سبيل الحياة، بطلة ساكنة شجاعة صبور. ثم أنه لا يوجد فى الدنيا شىء أشد فشلا من أن يفكر الإنسان فى أمر إنسان يحبه. تلك أفكار تشبه بعض الأغانى الشعبية والعسكرية التى تعدد آلاف الأشياء، ثم تكرر القرار (الرفران) تكرارًا عنيدًا، حتى إذا لم يكن له مناسبة.

كذلك صورة الإيطالية التى كنت أحملها فى ذاكرتى، لم تكن غير واضحة، ولكنها كانت مجردة من

الخطوط والتقاطيع الكثيرة، التى يراها الإنسان فى الغرباء أكثر وأحسن مما يراها فى المقربين إليه. وأنا لم أعد أعرف تسريحة شعرها، ولا شكل ملابسها، وما إلى ذلك، بل ولا أعرف هل كانت طويلة أو قصيرة. فأنا عندما أفكر فيها أرى رأس امرأة سوداء الشعر، كريمة الشكل، وعينين حادتين غير كبيرتين، فى وجه شاحب ممتلئ بالحيوية، وفمًا ضيقًا له تمويجة جميلة جمالاً كاملا، متسمًا بنضج عنيف. وأنا عندما أفكر فيها فى وقت الغرام والهيام كله، فإننى أقف بذاكرتى دائمًا عند تلك الأمسية فوق التل، عندما كانت الريح الدافئة تهب من فوق البحيرة، وعندما بكيت وهللت واستسلمت لكثير من العنف. كذلك تقف ذاكرتى عند أمسية أخرى أحب أن أقص قصتها الآن.

كنت قد تبينت بوضوح أنه ينبغى علىّ أن أعترف للرسامة باعترافات معينة وأن أطلب ودها. ولو كانت بعيدة عنى، لاستمررت فى حبها من بعيد فى صمت، ولاحتملت من أجلها آلامًا لا أبوح بها. ولكنى لم أكن أستطيع أن أحتمل طويلاً رؤيتها والحديث معها، ومصافحتها، والدخول فى بيتها، كل يوم تقريبًا، واحتمال الإثارة هكذا على الدوام.

وحدث أن أقيم حفل صيفى صغير للفنانين وأصدقائهم، على حافة البحيرة فى حديقة جميلة، فى مساء ناضج ناعم دافئ من أمسيات الصيف المتقدم. وشربنا النبيذ والماء المثلج، واستمعنا إلى

الموسيقى، وتأملنا المصابيح الورقية الحمراء التى تدلت فى عناقيد طويلة بين الأشجار. واتصل الكلام والتهكم والضحك ثم الغناء فى النهاية. وكان هناك رسام شاب سخيف يتصنع الرومانتيكية، يلبس قبعة جريئة الشكل، ويرقد على ظهره ممددًا عند الحاجز ويعبث بجيتار طويل الرقبة. وكان الفنانون المعروفون أما غائبين وأما جالسين بعيدًا عن الأنظار فى ثلة الكبار. أما النساء فظهر منهن بعض الشابات فى ملابس صيفية خفيفة فاتحة. وظهر البعض الآخر فى الملابس المألوفة المترهلة، ولفتت نظرى خاصة طالبة متقدمة فى السن قبيحة المنظر، نفرتنى، كانت تلبس قبعة رجالية من الخوص فوق شعر قصير، وكانت تدخلن السيجار وتكثر من شرب النبيذ وتتحدث كثيرًا وبصوت عال. كان ريشارد كالمعتاد مع البنات الصغيرات. ولزمت أنا الاعتدال، على الرغم من انفعالى، فشربت قليلا، وانتظرت الييتى، التى كانت قد وعدتنى بأن تركب معى اليوم زورقًا أسيره أنا بتجديفى. وأتت بالفعل وقدمت إلى هدية من بضع زهرات وركبت معى فى جندول صغير.

كانت البحيرة ملساء كأنها الزيت وكانت كعادتها فى الليل مجردة من اللون.. ودفعت الجندول الخفيف بسرعة إلى داخل البحيرة الساكن، إلى بعيد، وصرت أشاهد أمامى على الدوام المرأة الرشيقة تستند فى مكان الدفة مرتاحة مسرورة. كانت السماء فوقنا لاتزال زرقاء، تدفع النجوم الخافتة الواحد بعد الآخر إلى الظهور. أما الشاطئ فكانت فيه هنا وهناك

الموسيقى والاحتفالات التى تقام فى حدائقه. وكانت المياه الخاملة تتلقى بكركرة خفيفة المجاديف عندما تهوى إليها، وكانت هناك زوارق أخرى تسبح هنا وهناك مظلمة توشك الأعين ألا تراها على الصفحة الهادئة، ولم أحفل بها إلا قليلا، وتعلقت بنظرات ثابتة فى الجالسة إلى الدفة، وأنا أحمل إعلان حبى الذى نويت على الإفضاء به كحلقة فولاذية ثقيلة حول قلبى الخائف. وقد أثر جمال وشاعرية المنظر المسائى كله، والجلوس فى الجندول، والنجوم والبحيرة الدافئة الهادئة، أثر كل هذا علىّ فأخافنى، لأنه بدا لى كديكور مسرحى جميل أجلس فى وسطه لأقوم بتمثيل منظر عاطفى. واشتددت في التجديف وسط خوفى. واكتئابى من السكون العميق، المطبق، لأننا صمتنا جميعًا.

وقالت الرسامة بعد تفكير: «ما أقواك!».

فسألتها: «هل تعنين أننى مكتنز»؟

فقالت ضاحكة: «لا، بل أعنى العضلات».

ـ أنا فعلا قوى العضلات.

لم تكن هذه العبارات بداية مناسبة فاستأنفت التجديف حزينًا غاضبًا. وبعد برهة رجوتها أن تحكى لى شيئًا من حياتها.

ـ ماذا تريد أن تسمع منى؟

فقلت: «كل شىء! والأفضل قصة حب! وبعدها أحكى لك أنا أيضًا، قصة حبى الوحيدة. وهى قصيرة وجميلة وستعجبك».

ـ ماذا تقول؟ قص القصة!

ـ .. لا. أنت أولا. وأنت على أية حال تعرفين عنى أكثر مما أعرف أنا عندك. أريد أن أعرف هل وقعت فى الحب مرة أما أنك. وهو ما أخشاه، كنت من المهارة والتكبر بحيث لم تقعى فيه.

وفكرت أرمينيا برهة.

وقالت: «هذه فكرة أخرى من أفكارك الرومانتيكية، أن تطلب إلى امرأة تحكى لك قصصًا بالليل فوق صفحة الماء السوداء. ولكنى للأسف لا أستطيع. فأنتم معشر الشعراء معتادون على إصابة كلمات جميلة لوصف كل شىء، وتظنون أن من يقلون من الحديث عن إحساساتهم بشر لا قلب لهم. ولكنك أخطأت فى حالتى، لأننى لا أعتقد أن هناك إنسانًا يستطيع أن يجب على نحو أشد عنفًا وقوة منى، إننى أحب رجلا مرتبطًا بامرأة أخرى، وهو يحبنى حبا لا يقل عن حبى، ولسنا نعلم كلانا هل سيتحقق لنا وصال فى حياة تضمنا. إننا نتراسل ونتقابل أحيانًا..»

ـ هل تسمحين لى بأن أسألك، وهل يجلب لك هذا الحب السعادة أم الشقاء أم الأثنين معًا؟

آه لم يوجد الحب ليجعلنا سعداء. بل أنا أعتقد أن الحب وجد ليبين لنا مدى قوتنا على المعاناة والاحتمال.

وفهمت كلامها، ولم أستطع أن أمنع فمى من أن تخرج منه آهه بدلا من الإجابة. وسمعت هى آهتى.

فقالت: «آه، أتعرف هذا أنت أيضًا؟ إنك لحديث السن. فهل تريد أن تعترف لى أنت أيضًا بشىء؟ ولكن لا تفعل، إلا إذا كنت فعلا تريد...»

فقلت: «فى مرة أخرى، ربما، يا آنسة اليبيتى. فحالتى النفسية اليوم مكتئبة، ويؤسفنى أننى ربما قد عكرت عليك مزاجك أيضًا. هل نريد أن نعود؟

كما تريد. هل بعدنا عن الشاطئ كثيرًا؟

ولم أعطها إجابة بعد ذلك، بل دسست المجدافين فى الماء فأحدثا حفيفًا، وأدرت إلى الاتجاه الآخر. وضربت ضربات قوية، كما لو كانت النسمة تردنا ردًا. وانساب القارب سريعًا فوق صفحة الماء، وأحسست وسط دوامة الحزن والخجل التى كانت تغلى فى كيانى، كيف ينهمر العرق بقطرات كبيرة فوق وجهى، وكيف كنت مع ذلك أرتعش. وكنت عندما أفكر فى أننى كنت أوشك على أن أمثل دور العاشق الذى يسجد ويتوسل فيلقى الصد الرفيق الحنون، أحس برعدة تسرى فى نخاع عظامى. لقد جنبت هذا على الأقل. وكان ينبغى علىّ أن أتكيف والحزن الباقى. وأخذت أجدف ناحية الشاطئ كالمجنون.

واندهشت الآنسة الجميلة بعض الشىء عندما ودعتها وداعًا مقتضبًا على الشاطئ وتركتها وحدها. كانت البحيرة ملساء، وكانت الموسيقى مرحة، وكانت المصابيح الورقية الحمراء بديعة كما كانت من قبل، ولكن هذه الأشياء لاحت لى غبية مضحكة. وخاصة الموسيقى. وكم وددت لو انهلت ضربًا على الشاب

المائع ذى الثوب القطيفة، الذى كان لا يزال ممسكًا بالجيتار من الشريط الحريرى العريض وهو يتصنع الزهو وينفخ أوداجه. كان البرنامج يضم كذلك ألعابًا نارية أوشك دورها أن يأتى. فجاجة صبيانية مسرفة!.

واستلفت من ريشارد بعض الفرنكات وكبست القبعة فى رأسى وبدأت أمشى ناحية المدينة، وما بعدها، ساعة تلو الأخرى، حتى غلبنى النعاس. فتمددت فى مرج، ثم صحوت بعد ساعة. مبللا بالندى، متخشب الجسم، مرتعد الأطراف، وذهبت إلى أقرب قرية. كان الوقت الصباح المبكر. وكان الساعون لقطع البرسيم يسيرون خلال حارات مترية، وكان خدم الحظائر المضطربون بين النوم واليقظة يحملقون من خلال أبواب الحظائر، وبدأ النشاط القروى الصيفى يعلن عن نفسه فى كل مكان بالقرية. وقلت فى نفسى، كان الأحرى بك أن تبقى فلاحًا! وسرت خجلا فى القرية، وتابعت المسير وأنا منهك القوى، إلى أن أتاحت لى الشمس بأول قدر من الدفء إمكانية الراحة. فارتميت إلى حافة صف من غرس البلوط بين حشيش جاف ونمت فى الشمس الدافئة إلى ما بعد العصر. فلما استيقظت، برأس مفعمة بعبير المروج. وأعضاء ثقيلة ناعمة، كما هو المألوف عندما يرقد الإنسان طويلا على أرض الله الحبيبة. تصورت الحفلة ورحلة الجندول، وكل هذه الأشياء حزينة قد انطفأ نصف بريقها، وكأنها رواية قرأتها قبل شهور.

وظللت مدة ثلاثة أيام بعيدًا، أترك الشمس تسطع على جلدى، وأفكر هل أرحل سيرًا على الأقدام دفعة واحدة إلى قريتنا وأساعد أبى فى الدرس.

ولم يكن الألم الذى أصابنى بالطبع قد انتهى على هذا النحو. فبعد أن عدت إلى المدينة كنت أهرب من نظرة الرسامة، وكأنها الطاعون، ولم يستمر هذا طويلا، فكنت فيما بعد كلما رأتنى وكلمتنى أحسن بالبؤس يصعد إلى حلقومى.

الفصل الرابع

هذا الذى فشل أبى فى الوصول إليه معى قديمًا، نجح فى الوصول إليه بؤس الحب. لقد ربانى بؤس الحب وجعل منى شريبًا.

ولقد أثر هذا على حياتى وكيانى على نحو أعظم أهمية من كل ما رويته حتى الآن. كان الله القوى الحليم قد أصبح صديقًا غاليًا لى وما زال كذلك إلى اليوم. من له قوته؟ من له جماله..؟.. إنه يستطيع المحال، أنه يملأ قلوب البشر المساكين بالأشعار الجميلة العجيبة. ولقد صيرنى أنا الفلاح العزوف، إلى ملك وشاعر وحكيم. وأنه يملأ قوارب الحياة عندما تفرغ بمصائر جديدة، ويعيد الغرقى إلى تيار الحياة العظيمة.

ثم سيطر علىَّ النبيذ! ولكن شأنه شأن النعم والفنون واللذيذة كلها. إنه يريد من الإنسان أن يحبه ويلتمسه ويفهه ويكتسبه بجهد جهيد. وهذا شىء لا يستطيعه الكثيرون، عندئذ يأتى على الآلاف تلو

الآلاف. يصيبهم بالهرم أو يقتلهم أو يطفئ شعلة الفكر فيهم.

أما أحباؤه فيدعوهم إلى أعياد ويبنى لهم جسورًا مختلفة الألوان إلى جزر ناعمة رغدة. فإذا ما تعبوا وضع وسادة تحت رأسهم، وإذا ما وقعوا فريسة الحزن، عانقهم عناقًا رقيقًا طيبًا حنونًا كأنه الصديق أو الأم الرءوم، وهو يحول اضطراب الدنيا إلى أساطير عظيمة ويعزف على آلة «هارب» ضخمة أغنية الخلق.

ثم هو وطفل، له خصلات طويلة حريرية، وكتفين ضيقتين وأطراف رقيقة. فهو يمتد حتى قلبك، ويرفع وجهه الصغير إلى وجهك ويتطلع إليك مندهشًا حالمًا بعينين كبيرتين حبيبتين، تتبللان فى أعماقهما بذكرى الجنة وبقرب من الله ضاع، وتضطربان بالموج كعين جديدة تفجرت فى الغابة. وأنه ليشبه نهرًا يخترق عميقًا رخيمًا ليلة من ليالى الربيع. وأنه ليشبه بحرًا تتحرك فوق موجه الباردة الشمس والعاصفة.

إنه عندما يتحدث إلى أحبائه فإن بحر الأسرار والذكرى والأدب والتوقعات يفاجئهم بما يملؤهم بالهيبة ويغمرهم غمرًا، فيصغر العالم المعروف لديهم ويتلاشى، وتندفع الروح فى فرح خائف إلى بعد لا طريق فيه، هو بعد المجهول الذى يتسم كل شىء فيه بأنه غريب فى وقت واحد الذى تجرى على الألسن فيه لغة الموسيقى، لغة الشعراء، لغة الحلم.

أما الآن فلابد أن أتابع القصة.

وحدث أننى كنت أستطيع لساعات طويلة أن أنسى نفسى وأن أبتهج، فأدرس وأكتب وأستمع إلى موسيقى ريشارد. ولكن لم يكن هناك يوم مر علىّ بدون ألم. كان الألم يعاودنى أحيانًا بالليل فى الفراش فأتأوه وأهب واقفًا ولا أعود إلى النوم إلا الدموع قد بللتنى. وأحيانًا أخرى وأنا نائم أحلم بأنى قابلت البيتى، فأصحو. وكان غالبًا ما يعترينى عند المغرب فى الوقت الذى تبدأ فيه أمسيات الصيف الجميلة الدافئة المتعبة. فكنت أذهب إلى البحيرة وأركب قاربًا، وأجدف إلى أن أسخن وأتعب، وكنت عند ذاك أجد أنه من المحال أن أذهب إلى البيت. فكنت أذهب إلى حانة أو إلى حديقة من الحدائق التى تقدم فيها المشروبات وجربت أنواعًا مختلفة من النبيذ. كنت أشرب وأسكر وأصحو فى اليوم التالى كالمريض. وكثيرًا ما حل بى فى تلك الظروف إحساس بالبؤس وبالقرف، حتى أقرر ألا أعاود الشرب بعد ذلك فى حياتى أبدًا. ولكنى كنت أعود وأشرب وتمكنت بالتدريج من التمييز بين أنواع النبيذ وتأثيرها. وتمتعت بها بشىء من الوعى، وأن كنت أفعل ذلك عامة، على نجو لايزال ساذجًا فجًا. توقفت أخيرًا عند الفيلتلينر الأحمر القانى. كان طعم الكأس الأولى منه لاذعًا مثيرًا، وكان ينزل ستارًا يوارى أفكارى، ويصل بى إلى حالة من التهويم الساكن الدائم، هنالك كنت أبدأ فى السحر والإبداع والإنشاء. فكنت أرى كل البقاع التى أعجبتنى، فى إضاءة لذيذة. وكنت أنا نفسى أتجول فيها، وأغنى وأحلم وأحس حياة مرفهة

دافئة تلف فى داخلى. وكان التأثير ينتهى بشعور من الحزن اللطيف إلى أقصى درجات اللطف، وكأنى أستمع إلى أغان شعبية تعزف على الكمان أو كأنى أعرف أن لى فى مكان ما حظًا عظيمًا، عبرت عليه عبورًا وضيعته.

وتطور الأمر من تلقاء نفسه إلى أننى لم أكن أذهب بمفردى إلى الحانة بل كنت أجد صحبة كثيرة تجالسنى. وكان النبيذ يؤثر فىّ تأثيرًا مختلفًا عندما يحيط بى الناس، كنت أنطلق فى الكلام، دون أن أنفعل، بل كانت تعترينى حمى باردة غريبة. كانت هناك ناحية من شخصيتى، كنت ذلك الحين لا أكاد أعرفها، تظهر بالليل وتتألق، ولكنها كانت ناحية تتصل بأزاهير الحدائق والزينة أقل مما تتصل بالأشواك. ففى الوقت الذى كان لسانى فيه ينطلق كانت روح حادة باردة تحل بى، وتجعلنى مطمئنًا ممتازًا لاذع النقد سريع النكتة. فإذا كان هناك أناس يضايقنى وجودهم، تعرضوا منى للتهكم والإغاظة على نحو رقيق خبيث تارة أو غليظ عنيد تارة أخرى، إلى أن يرحلوا، ولقد كان الناس عامة بالنسبة إلىَّ منذ الصغر غير محببين ولا ضروريين بدرجة خاصة، ولهذا بدأت الآن أتأملهم بعين النقد والتهكم. وكنت أحب أن أبتدع حكايات قصيرة وأحكيها، أمثل فيها العلاقات بين الناس مجردة من الحب مصورة فى سخرية تصطنع الموضوعية، وتتسم بالتهكم المرير. أما من أين أتتنى هذه النبرة المزدرية فهذا ما لم أكن أعرفه، لقد

تفجرت فى كما يتفجر الخراج فى الجسم. وبقيت سنوات عديدة لا أستطيع التخلص منها.

فإذا جلست فى أمسية بعد ذلك وحدى، حلمت من جديد بالجمال والنجوم والموسيقى الحزينة.

وفى تلك الأسابيع كتبت مجموعة من التأملات عن المجتمع والثقافة والفن فى عصرنا. كونت كتابًا صغيرًا مسمومًا، هو أحاديثى فى الحانة. واتصلت بهذه التأملات عناصر تاريخية مختلفة استقيتها من دراساتى التاريخية التى كنت أتابعها بجهد ونشاط، فكونت هذه العناصر التاريخية ما يشبه الخلفية الصلبة لهذا الكتاب.

وأدى هذا الكتاب بى إلى أن حصلت على وظيفة ثابتة فى إحدى الصحف الكبرى، كان مرتبى منها يوشك أن يكفينى. وظهرت تأملاتى المذكورة فى شكل كتاب مطبوع وحققت بعض النجاح. فانصرفت عن الدراسة اللغوية انصرافًا تامًا. وكنت فى تلك الأثناء قد تقدمت إلى الفصول الدراسية العليا، وكنت متصلا بالمجلات الألمانية، اتصالاً أخرجنى من مكمنى ومن فقرى، إلى دائرة المعترف بهم. كنت أكسب لقمة عيشى، واستطعت أن أتنازل عن المنحة الدراسية وأن أتجه فاردًا أشرع سفينتى على سعتها فوق مياه الحياة المقيتة متجهًا إلى وظيفة أديب صغير.

ولكنى على الرغم من النجاح، وعلى الرغم من غرورى، ومن كتاباتى الساخرة ومن عذابى فى الحب، كنت أتمتع بروعة الشباب الدافئ. التى تمتد فوقى

فى بهجة وكآبة معًا. كنت على الرغم من هذه السخرية كلها، ومن شىء من البلادة البريئة أرى لى على الدوام هدفًا وسعادة واكتمالا لشخصيتى. أما صورة هذا الهدف والسعادة والاكتمال النهائية، فشىء لم أكن أعرفه. كنت أحس أن الحياة لابد ستدفع إلى قدمى فى وقت ما سعادة مشرقة خاصة تغمرهما كالموج، ربما تكون على صورة مجد، وربما على صورة حب أو إرضاء لحنينى وإعلاء لكيانى. لقد كنت ما أزال الصبى الذى يعمل عند النبلاء ويحلم بألوان التكريم تأتيه من نساء نبيلات كريمات ومن ترسيم الفروسية.

كنت أعتقد أننى أقف على عتبة طريق صاعد، ولم أكن أعلم أن كل ماعانيته للآن لم يكن إلا مصادفات، وأن حياتى وكيانى يفتقران إلى النبرة الأساسية العميقة الخاصة. ولم أكن أعلم أننى أعانى من حنين ليس الحب والمجد وحده ولا تحقيقه.

وهكذا تمتعت بما نالنى من مجد قليل فيه شىء من الفجاجة واللذوعة، تمتعا انصب فيه كل نعيم شبابى. كنت أفرح وأنشرح عندما أرانى جالسًا إلى كأس من نبيذ بين أناس من أولى الفكر والنباهة، فإذا بدأت فى الحديث، رأيت وجوههم مشوقة متنبهة تتجه إلىّ وتتركز علىّ.

ولاحظت فى أثناء ذلك أن النفوس كلها تضطرب بشىء من الحنين يصرخ مطالبًا بالخلاص، وأنه ينساق فى طرق عجيبة لتحقيق هذا الخلاص. كان الإيمان برب يبدو فى نظرهم من قبيل الغباء

والسخف، وكان الناس بدلا من ذلك يؤمنون بمذاهب متعددة وأسماء مختلفة، مثل شوبنهاور وبوذا، وزرادشت وغيرهم كثيرون. وكان هناك أدباء وشعراء من المغمورين يقيمون فى بيوتهم ذات الرونق والبهاء شعائر عبادة أمام تماثيل ولوحات، كانوا يخجلون من الركوع أمام الله، ولكنهم كانوا يسجدون أمام زيوس وأمام أوتريكولى من الأرباب والقدامى، كان هناك من الزاهدين من يعذبون أنفسهم بألوان الحرمان الشديد، وتفوح منهم رائحة منفرة. كان ربهم اسمه تولستوى أو بوذا. وكان هناك فنانون يثيرون أنفسهم بأشياء معينة محددة مثل زخارف الحيطان والموسيقى والأطعمة والخمور والروائح العطرية والسجائر. بغية الوصول إلى حالات نفسية معينة غريبة فريدة. كانوا يتكلمون بطلاقة وببداهة مصطنعة عن خطوط موسيقية، وعن نغمات ملونة وعن أشياء من هذا القبيل، وكانوا يتربصون فى كل مكان بحثًا عن السمة الشخصية الخاصة «التى كانت فى الغالب عبارة عن إيهام للذات على نحو ساذج ضيق أو عن ضرب من ضروب الجنون. وكانت المهزلة كلها بالنسبة لى فى أساسها مسلية مضحكة، ولكنى كنت أحسن فى رعدة خاصة بمدى الحنين الجاد والقوة الروحية الخالصة التى تتأجج فى كل هذا وتخمد.

ولست أعرف بين الشعراء والفنانين والفلاسفة المحدثين ذوى المظهر العجيب، الذين تعرفت عليهم فى ذلك الوقت بالدهشة والسرور، واحدًا صار إلى شىء كريم نبيل مرموق. كان من بينهم واحد من شمال

ألمانيا فى مثل سنى، له مظهر لطيف، كان إنسانًا رقيقًا، حبيبًا، حساسًا فى كل الأمور التى تمس الفن. وكان يعتبر من شعراء المستقبل العظام،. ولقد سمعته عدة مرات يتلو قصائده، التى كانت على قدر ما أذكر، مفعمة بالعبير وبالجمال النابض بالحياة. وربما كان هذا الشاب الوحيد بيننا، الذى كان يمكن أن يصير إلى شاعر حقيقى بمعنى الكلمة. ولقد علمت فيما بعد قصته القصيرة المقتضبة فقد اعترته ألوان الفشل فى ميدان الأدب. حتى استبد به الخجل، فابتعد، لفرط حساسيته، عن أعين الناس، إلى أن وقع فى يد ثرى حقير من مشجعى الفنانين، وجهه إلى الهاوية، بدلا من أن يرده إلى العقل ويحفزه على التقدم، وهكذا راح هذا الشاعر يسعى فى فيللات هذا السيد الثرى بين نسائه العصبيات بإنتاج شعرى سخيف كاذب لا طعم له، وتصور نفسه فى خيالاته كالبطل المهمل، وما زال كذلك حتى ضيع عقله بانحرافه عن الطريق انحرافًا مؤسفًا أليمًا، وقوامه استثارة النفس إلى حالات من الذهول مستمرة على طريقة الجماعة البريرافائيلية(*) بالاستعانة بموسيقى شوبان دون غيرها.

ولايمكننى أن أعود بالذاكرة إلى هذه الزمرة الفجة التى أغريت فى ملبسها وفى تصفيف شعرها، من شعراء ومفكرين، بدون أن أحس بالفزع والأسف،

(*) إشارة إلى جماعة إنجليزية من الفنانين نشأت فى منتصف القرن التاسع عشر، وكانت تختص أول ما تختص بفن الرسم، وتبحث فى إصلاحه اتباعًا للمثل الرومانتيكية وبالعودة إلى بوتيشبللى ومونتينيا، ثم انتقلت مساعى هذه الجماعة من ميدان الرسم إلى ميدان الأدب فيما بعد. (المترجم).

لأننى لم أتبين إلا فيما بعد ناحية الخطر من مخالطة هؤلاء. وقد حفظنى من الشر هيئتى القروية الجنوبية، فلم أشترك فى هذا السخف.

وكانت الصداقة عندى أكرم وأسعد لى من المجد والشهرة والحب والخمر والحكمة. كانت الصداقة هى التى أقالت عثرة تثاقلى الفطرى وأبقت على سنوات شبابى صحيحة، مشرقة، وكان الشفق يصبغها بلونه الوردى. وأنا حتى الآن لا أعرف شيئًا أعظم قدرًا من صداقة خالصة نشيطة بين الرجال، وإذا تملكنى اليوم فى أيام الهم شىء كالحنين إلى الشباب، فإنما هو حنين إلى الصداقة التى أتيحيت لى أيام طلب العلم فى الجماعة، دون غيرها.

وكنت عقب هيامى بارمينيا قد أهملت ريشارد إلى حد ما، وجدت هذا الأعمال على نحو غير مقصود فى أول الأمر، ثم ما لبث ضميرى بعد عدة أسابيع أن تحرك ووخزنى. فاعترفت له بما عندى. فكاشفنى بأنه توقع آسفًا حدوث المصيبة كلها وتطورها على هذا النحو. وعدت إلى تعلقى به من جديد، بود قلبى وغيرة. كان كل ما نلته فى ذلك الوقت من فنون مرحة صغيرة منطلقة فى معالجة الحياة، منه هو. كان جميلا مرحًا، فى جسمه وروحه، وكانت الحياة تبدو، كأنها لا تلقى عليه شيئًا من ظلالها. كان يعرف آلام واضطرابات العصر، ولكنه كان يعرفها كرجل نبيه مرن، فكانت تنزلق عليه دون أن تمسه بضر. كان هيئته ولغته وشخصيته كلها طلية رخيمة ظريفة. آه. وما أعظم قدرته على الضحك!.

لم يكن يولى دراساتى الخمرية إلا القليل من الفهم. كان أحيانًا يذهب معى، ولكنه كان يقف بعد الكأس الثانية، وينظر إلى عبى الخمر فى سرف بعينين مندهشتين اندهاشًا ساذجًا. ولكنه كان عندما يرى أننى أتألم، وأننى خاضع فى يأس لكآبة وحزن، يعزف الموسيقى معى، ويطالع لى أو يأخذنى إلى النزهة. وكنا فى رحلاتنا الصغيرة ننطلق ونطلق لأنفسنا العنان وكأننا صبية صغار. وذات مرة كنا نأخذ قسطًا من الراحة فى واد دافئ بالغابة، ونتقاذف بالثمار الشوكية لشجر الشربين ونغنى أبياتًا من «هيلانة التقية» ونملأ ألحانها بالإحساس. وكان الجدول السريع الصافى يبعث خريره إلى آذاننا طويلا باردًا. مغريًا، حتى خلعنا ملابسنا وارتمينا فى الماء البارد. وخطر لريشارد أن نمثل كوميديا، فقعد على صخرة يغطيها الطحلب ومثل دور اللوريلاى، ومثلت أنا دور البحار الذى يدفع مركبه الصغير قريبًا منها. ومثل ريشارد بوجهه الأنثوى والخجل وظل يأتى بحركات، حتى أننى، الذى كان دورى يفرض على أن أظهر الألم العنيف. انفجرت ضاحكًا، ولم أستطع أن أتمالك نفسى(*) .

(*) أسطورة اللوريلاى أسطورة ألمانية مشهورة، نشأت حول صخرة عند منعطف بنهر الراين، وتقول الأسطورة: إن هذه الصخرة جلس عليها فتاة جميلة اسمها اللوريلاى، تغنى وتمشط شعرها الجميل الطويل، فإذا أتى بحار، خلب منظرها بصره، فانصرف عن السفينة، وغرق، وقد صاغ الشاعر الألمانى المشهور هاينرش هاينه هذه الأسطورة فى قصيدة لطيفة، وكذلك تناولها شعراء غيره. (المترجم).

وفجأة تناهت إلى أسماعنا أصوات عالية، وظهرت جماعة من السياح على الطريق، وكان علينا أن نتوارى بأسرع ما نستطيع فى الشاطئ المتآكل المائل. فلما تجاوزتنا الجماعة دون أن تشعر بوجودنا، راح ريشارد يحدث أصواتًا غريبة من عواء وصفير ونباح. واندهش الناس، وتلفتوا حواليهم، ونظروا فى الماء وأوشكوا على أن يكتشفونا. عند ذاك ظهر ريشارد من مخبئه إلى وسطه ونظر إلى الجماعة المغتاظة وقال بصوت عميق وبحركة تشبه حركة الكهان: «اذهبوا بسلام!» ثم اختفى على الفور ولكزنى فى ذراعى قائلاً: «كانت تلك أيضًا تمثيلية. فخمن ماهى!».

وسألته: ماهى؟

فقال ضاحكًا: «بان»(*) يفزع نفرًا من الرعاة. ولكن للأسف كان بينهم نساء.

لم يكن ريشارد يهتم بدراساتى التاريخية إلا قليلا، إلا أنه ما لبث أن شاركنى فى حبى المتيم بالقديس فرانتس الأسيزى، على الرغم من أنه كان يطلق عليه النكات التى كانت تثير غضبى. فكنا نرى الرجل الصبور السعيد يسعى فى المنطقة الأومبرية بإيطاليا وقد تملكه حماس لطيف وابتهاج كأنه طفل

(*) بان إله إغريقى أصله أكادى، وهو إله الخصب، وحامى الحيوان والقطعان، وإن كان أحيانًا يفاجئها بصفير من نايه، يفزعها فزعًا شديدًا. وكانت الأسطورة تصوره نصف إنسان ونصف كبش. وقد انتقل إلى الأسطورة الرومانية فيما بعد، وتفرعت منه هيئة الشيطان فى العصور الوسطى بأوروبا (المترجم).

كبير، سعيدًا بريه، ممتلئًا بالحب المتواضع حيال الناس جميعًا. وكنا نقرأ معًا فى أعماله الخالدة «نشيد الشمس» حتى حفظناه عن ظهر قلب تقريبًا. وذات مرة كنا عائدين من رحلة بالباخرة جلنا بها فوق سطح البحيرة وكانت ريح المساء تحرك الماء الذهبى، فسألنى بصوت خفيض: «ماذا يقول القديس فى هذا؟»

فأنشدته: «تباركت ربى، فى ريح لطيفة، وفى سحب كريمة صافية لا تعرف الزمان».

وكنا عندما نتشاجر أو نتبادل عبارات الخصام، ينهال علىّ، على نحو فيه شىء من المزاح، وعلى طريقة صبية المدارس بكمية كبيرة من الكنيات المضحكة، حتى أضطر إلى الضحك، وحتى يخرج من النزاع الإبرة اللاسعة المهيجة. وكان صديقى العزيز يجد إلى حد ما، عندما يسمع أو يعزف موسيقى مؤلفيه المحببين. على أنه كان أحيانًا يقطعها ليطلق شيئًا من النكت أو المزاح. ولكن حبه للفن ممتلئًا باندماج مخلص صاف صادر عن القلب، وكان إحساسه بنواحى الأصالة والأهمية إحساسًا يبدو لى صادقًا لا مراء فيه.

وما أعجب فهمه ومعرفته بفن رقيق لطيف، هو فن المواساة، والتعزية، والترويح، عندما يتعرض أصدقاؤه للمحن والمصائب. كان إذا وجدنى مكتئبًا، يحكى لى كميات كبيرة من النوادر المضحكة الظريفة. وكان صوته فيه نبرة مهدئة مبهجة لم أكد أستطيع مجابهتها بالصد إلا نادرًا.

وكان ريشارد يكن لى شيئًا من الاحترام، لأننى كنت أكثر جدًا منه. وكانت قوتى العظيمة مبعثًا أكبر على احترامه إياى. وكان يمتدحها أمام الآخرين ويفخر بأن له صديقًا يستطيع أن يحطمه بيديه تحطيمًا. كان كثير الاهتمام بالقدرات العظيمة وبالمهارة البدنية، ولقد علمنى التنس، وكان يجدف ويسبح معى ويأخذنى معه إلى الفروسية، ولم يهدأ حتى تعلمت منه البلياردو وأتقنته مثله تقريبًا، كانت لعبة البلياردو لعبته المفضلة وكان يمارسها بمهارة وتفوق، وكان علاوة على ذلك يجتهد فى أن يكون أثناء لعبها كثير الحيوية والنكتة والمرح.

وكثيرًا ما كان يسمى الكرات الثلاث بأسماء ثلاثة من معارفنا. وكان يكون من كل ضربة واقتراب وابتعاد بين الكرات. روايات وروايات مليئة بالنكت، والتلميحات والتشبيهات الكاريكاتيرية. ومع ذلك كان يلعب هادئًا خفيفًا رشيقًا إلى أقصى حدود الرشاقة، وكان من المتعة أن يتطلع إليه المرء وهو يلعب.

ولم يكن يقدر معالجتى الأدب على نحو أرفع منى، وذات مرة قال لى: «لقد كنت دائمًا أعتبرك شاعرًا، وما زلت على هذا إلى الآن، ولكنى لا أعتبرك هكذا اعتمادًا على ما تكتب من صحافة خفيفة، وإنما لأننى أحس أن هناك شيئًا جميلاً عميقًا يعيش فى داخلك، وأنه آجلا أو عاجلا سينطلق وسيكون أدبًا بمعنى الكلمة.

وتسللت الفصول الدراسية من بين أيدينا كالعملة الصغيرة، وحان الوقت بغتة ليفكر ريشارد فى العودة إلى موطنه. وتمتعنا بالأسابيع الهاربة ونحن نتصنع الهدوء تصنعًا، واتفقنا فى النهاية على أن نسبق الوداع المرير بعمل رائع عظيم ونختم به هذه السنوات الجميلة البهيجة المفيدة القيمة، واقترحت عليه أن يكون هذا العمل رحلة فى جبال الألب عند برن، ولكن الوقت كان الربيع المبكر، وهو وقت فى الحقيقة مبكر جدًا بالنسبة للجبال. وبينما أنا أجد رأسى أشد الجهد بحثًا عن اقتراحات أخرى. كتب ريشارد إلى أبيه وأعد لى فى السر مفاجأة عظيمة سعيدة، وفى يوم من الأيام أتى ريشارد إلىّ بصك مصرفى ضخم ودعانى إلى أن أقوده فى رحلة إلى شمال إيطاليا.

وانتفض قلبى بالرهبة والفرح معًا. لقد أوشكت رغبة حبيبة إلى نفسى منذ الصغر تعاودنى وتشغل الآلاف من أحلامى أن تتحقق. وأعددت أمتعتى كالمحموم وعلمت صديقى قليلاً من الكلمات الإيطالية وكنت حتى اليوم الأخير أخشى ألا تتحقق الرحلة.

وأرسلنا متاعنا قبلنا، وجلسنا فى العربة نتطلع، فمرت علينا الحقول والتلال الخضراء كأنها ترتعش، ثم جاءت بحيرة أورن وجبل جوتهارت، وتوالت الجداول والقرى الجبلية والسفوح المكونة من الصخور المنهارة والقمم المكسوة بالثلوج فى منطقة تيسين، ثم جاءت البيوت الحجرية السوداء الأولى فى جبال من الكروم المنبسطة، ثم كانت المسافة الشيقة المتجهة

ناحية البحيرات والمخترقة سهل اللومباردى الخصيب إلى ميلانو التى تمتلئ بالحيوية والصخب، وبالجاذبية والنفور فى وقت معًا.

لم يكن ريشارد قد كون صورة فى ذهنه عن كنيسة ميلانو، كان يعرف عنها فقط أنها بناء عظيم شهير. وكان من الممتع أن يشاهد المرء خيبة أمله وغضبه عندما وقعت عيناه عليها. فلما تغلب علىّ ما ألم به من فزع فى بادئ الأمر، واستعاد مرحه، اقترح علىّ أن نتسلق السقف وأن نلف بين المجموعة المضطربة المختلطة من التماثيل القائمة هناك. وتبينا بشىء من الرضا، أن من لم ير مئات التماثيل السخيفة الممتلئة للقديسين والقائمة على الأبراج الصغيرة، لم يخسر شيئًا كثيرًا. فالمؤكد أن أغلبها، وخاصة الجديد منها كله، من صنعة المصنع بالشكل العادى وتمددنا نحو ساعتين على البلاط الرخامى العريض المائل، الذى كان يلتهب بشىء من الحرارة الرقيقة من شمس إبريل التى تركزت عليه. واعترف لى ريشارد فى هدوء: «الحقيقة أننى لا أعارض فى معاناة قدر أكبر من خيبة الأمل التى اعترتنى عند الكنيسة المجنونة. فقد كنت طوال الرحلة كلها خائفًا من الأشياء العظيمة الكثيرة التى سنراها والتى ستطبق علينا أطباقًا. وها هو ذا الأمر يبدأ بداية لطيفة، مضحكة على نحو إنسانى». واستثارته الكمية الضخمة من التماثيل الحجرية المضطربة التى كنا نتمدد وسطها إلى الانطلاق إلى تهويمات طريفة تتعمد المبالغة.

قال: «لابد أن برج الجوقة، الذى هو أعلى قمة فى البناء، يحمل تمثال أعظم وأرفع قديس. ولما لم يكن من الممتع إطلاقًا أن يظل الإنسان أبدا كراقص الحبل على قمة هذا البرج يحفظ توازنه، فقد يكون من الممكن أن يتخلص القديس الذى يحتل القمة العليا من وقفته ويذهب إلى السماء. تصور المنظر الذى يحدثه هذا التبادل فى كل مرة! لأن القديسين الآخرين جميعًا سيتقدمون بطبيعة الحال حسب رتبتهم لشغل المكان الذى شغر، ويكون على كل واحد منهم أن يقفز قفزة كبيرة لينتقل إلى البرج الذى كان يقف عليه سلفه، وقد تملك كل واحد منهم التعجل الشديد، واستبدت به الغيرة من كل الذين يسبقونه!».

وكنت فيما بعد كلما مررت بميلانو، تذكرت عصر ذلك اليوم، وتصورت وأنا أضحك فى أسى، مئات القديسين الرخاميين وهم يقفزون قفزات جريئة.

وفى جنوة زادت ثروتى حبًا عظيمًا. كان اليوم يومًا مشرقًا عاصف الريح وكان الوقت بعد ساعة الظهر. كنت أسند ذراعى على حاجز عريض. وكانت مدينة جنوة الملونة تمتد خلفى. وكان تحتى الماء العظيم الأزرق عاليا تدب فيه الحياة. البحر. كان عنصر الخلود والصمود يواجهنى بخرير غامض ورغبة غير مفهومة، وأحسست أن شيئًا فى نفسى تصادق مع هذه المياه الزرقاء الزابدة على الحياة والموت.

وعلى النحو نفسه من القوة استحوذ على أفق البحر الواسع. وعدت أرى، كما كنت أرى أيام الصغر،

أن الأفق الأزرق العبق ينتظرني وكأنه باب مفتوح. وتملكنى من جديد إحساس بأننى لم أخلق لأعيش ساكنًا فى الحياة المنزلية بين الناس فى المدائن والمساكن، بل خلقت لأهيم خلال المناطق الغريبة ولأقوم برحلات ضالة على صفحات البحار. وعادت الرغبة المحزنة ترتفع فى داخل نفسى بقوة غامضة. وتحثنى على أن أربط برباط الإخاء حياتى الصغيرة باللانهائية واللازمنية.

وعند راباللو تصارعت سابحًا لأول مرة مع التيار البحرى، وذقت الماء المالح اللاذع وأحسست بقوة الأمواج. ومن حولى أمواج زرقاء صافية، وصخور شطآنية صفراء داكنة وسماء عميقة ساكنة، وحفيف عظيم دائم أبدى.

وظل منظر السفن السائرة على بعد يتملكنى دوامًا ويجدد تأثيره علىّ تجديدًا، صارى أسود وشراع مشرق، أو علم صغير من الدخان يتصاعد من باخرة متباعدة. ولست أعرف إلى جانب أحبائى السحب الدائبة التى لا تخلد إلى راحة صورة للحنين والتجوال أجمل وأجد من صورة سفينة تسير على بعد شديد، ولاتزال تصغر وتصغر إلى أن تتوارى فى الأفق المفتوح وتتلاشى.

وذهبنا إلى فلورنسا. كانت المدينة ممتدة على الهيئة التى عرفتها من مئات الصور ومن آلاف الأحلام - مشرقة، فسيحة، كريمة، يتخللها نهر أخضر عليه جسور، وتحيط بها التلال الصافية. وبها البرج

الجرىء فى القصر القديم «بالاتسوفيكيو» يرتفع إلى السماء الصافية وكأنه يندس فيها، وإلى جوارها مدينة فيزولا الجميلة البيضاء المشمسة وكانت التلال كلها بيضاء مصطبغة بحمرة الورد تزدهر عليها أشجار الفاكهة. وبدت لى الحياة الإيطالية البهيجة البريئة كالمعجزة وما لبثت أن أحسست كأنى فى موطنى، إحساسًا يفوق إحساسى فى بيتى ذاته. وأمضينا الأيام فى جولات بالكنائس والميادين والحارات والدور القديمة والأسواق، وأمضينا الأمسيات فى الحدائق وفوق التلال فى أحلام، هناك حيث ينضج الليمون، أو فى الحانات الصغيرة الساذجة فى شرب ولغو. وبين هذا وذاك، كنا نمضى الساعات السعيدة الغنية فى المتاحف الفنية وفى البارجيللو (متحف فلورنسا)، وفى الأديرة، وفى المكتبات وفى مخازن الكنائس، ونمضى ساعات النصف الأخير من النهار فى فيزولا وسان ميناتو وستينيانو وبراتو.

وكنا قد اتفقنا قبل رحيلنا على أن أترك ريشارد بمفرده أسبوعًا، وهكذا فعلت، وتمتعت بأعظم وأمتع جولة قمت بها فى فترة شبابى كلها، جولة خلال المنطقة الأومبرية الغنية الخضراء ذات التلال. وسرت فى شوارع القديس فرانتس، وأحسست به يتجول بجوارى فى بعض الساعات، وقد امتلأت نفسى بحب لاسبيل إلى سبر أغواره، رحت أحيى كل طائر وكل نبع وكل خميلة من خمائل الورد بالامتنان والفرح. وقطفت بعض الليمون وأكلته، فوق السفوح المشمسة المشرقة،

وأمضيت الليالى فى القرى الصغيرة، أغنى وأصب الشعر فى نفسى، واحتفلت بعيد العنصرة فى أسيزى، فى كنيسة قديسى الحبيب.

وأننى لأحس دائمًا كأن هذه الأيام الثمانية من التجوال فى المنطقة الأومبرية هى تاج شبابى، وشفقه الوردى الجميل. كانت الينابيع تتفجر فى نفسى كل يوم، ونظرت إلى مشهد الربيع المشرق الحافل، وكأنى أرى عينى الرب الحنونتين.

فى منطقة أومبريا تتبعت بالتبجيل آثار فرانتس، المنشد الربانى وفى فلورنسا تمتعت بصورة ثابتة للحياة فى القرن الرابع عشر. وكنت قد كتبت من قبل قصائد هجائية نقدت فيها أساليب حياتنا المعاصرة. فلما زرت فلورنسا شعرت لأول مرة بالتفاهة المضحكة للثقافة الحديثة. هناك خطر ببالى لأول مرة أننى سأظل إلى الأبد غريبًا فى مجتمعنا، وهناك استيقظت لأول مرة فى نفسى الرغبة فى أن أعيش خارج هذا المجتمع، وأن أعيش فى الجنوب ما استطعت إلى ذلك سبيلا. كنت فى الجنوب استطيع أن أخالط الناس وكنت أفرح فى كل خطوة بالطبيعة المنطلقة التى تتسم بها الحياة تلك الطبيعة التى كانت تقاليد ثقافة كلاسيكية وتاريخ كلاسيكى تقوم عليها فتزيدها رفعة ورقة.

وجرت الأسابيع الجميلة من بين أيدينا رائعة مسعدة، ولم أر ريشارد من قبل مسرورًا هائمًا على النحو الذى رأيته عليه آنذاك. كنا نفرغ كئوس الجمال والمتعة وقد تملكتنا البهجة والنشوة. كنا نتجول إلى أن

نصل إلى قرى فى التلال بعيدة حارة، ونصاحب أصحاب الحانات والرهبان وبنات الريف وصغار القس السعداء، ونتصنت على محادثات الناس العابرة الساذجة، ونطعم الأطفال السمر الصغار بالخبز والفاكهة، ونتطلع من المرتفعات الجبلية المشمسة إلى منطقة توسكانا الغارقة فى بهجة الربيع، ونتجاوزها إلى البحر الليجورى الرقراق. وكنا نحس إحساسًا قويًا بأننا جديران بالسعادة التى أتيحت لنا وبأننا نسير هكذا نحو حياة جديد غنية. كان العمل والكفاح والنعيم والمجد أمامنا متقاربين، مشرقين، مؤكدين، كانت هذه الأمور ماثلة أمامنا، حتى أننا كنا لا نتعجل فى التمتع بالأيام السعيدة. كذلك بدا لنا الفراق هينًا عابرًا، لأننا نعرف عن يقين، اشد من أى وقت مضى، إننا يحتاج الواحد منا للآخر، وإن كلا منا قد كتب لصاحبه مدى الحياة.

كانت تلك قصة شبابى، وأنها لتبدو لى عندما أتمثلها فى ذاكرتى، كأنما كانت قصيرة كليلة من ليالى الصيف. كانت عبارة عن قليل من الموسيقى ومن الفكر ومن الحب ومن الغرور ـ ولكنها كانت جميلة، غنية، ملونة كعيد من الأعياد الايكليزية الغامضة القديمة.

وانطفأت سريعة مسكينة كنورٍ من ريح.

فى زيورخ ودعنى ريشارد. ولقد نزل من القطار مرتين ليقبلنى، وظل يحيينى بحركة رقيقة من رأسه وهو يطل من الشباك إلى أن توارى كل منا عن صاحبه.

ومر أسبوعان غرق ريشارد بعدهما وهو يستحم فى نهر صغير مضحك فى جنوب ألمانيا. لم أره بعد ذلك، ولم أكن حاضراً عندما دفن، فقد سمعت الخبر بعد أيام، بعد أ كان قد استقر بالنعش فى جوف الأرض. عند ذاك تمددت على أرض حجرتى الصغيرة، وأخذت أسب وألعن، وأشتم بأقذع الألفاظ، وأبكى وأنوح. فلم أكن قد كرت لحظة فى أن الشىء الوحيد الذى أملكه فى تلك السنوات، كانت هذه الصداقة: ولقد تلاشت.

وتعذبت طويلا فى المدينة، حيث كانت الذكريات الكثيرة تمتد إلىّ، وتمنع الهواء أن يعبر حلقومى. لم أعد أهتم بما سيأتى، فقد كنت مريضًا فى ذات نفسى وكنت أفزع من كل ما ينبض بالحياة. وبدا لى فى بعض الأحيان أن احتمال قيام كيانى بعد أن تحطم ضئيل، وكنت أشك فى إمكانية تزويد سفينة حياتى بأشرعة جديدة تسير بها نحو مصير سنى الرجولة القادمة. ولقد شاء الله، أن أعطى من كيانى أفضله لصداقة خالصة بهيجة. كنا كقاربين سريعين انطلقا عاصفين معا وكان قارب ريشارد هو القارب الملون الخفيف السعيد المحبوب الذى تعلقت به عيناى ووثقت فى أننى إذا تبعته، جذبنى إلى أهداف جميلة، وهاهو ذا القارب قد غرق بعد صرخة قصيرة، وهأنذا أحرك قاربى دونما اتجاه فوق مياه فاجأتها الظلمة.

وأصبح علىّ أن أحتمل المحنة، وأن أوجه قاربى حسب النجوم وأنا أجاهد للسير به من جديد ساعيًا

للحصول على تاج الحياة، وأن أضل كذلك. كنت قد آمنت بالصداقة وبحب المرأة وبالشباب. ولقد تركتنى هذه الأمور الثلاثة، الواحد بعد الآخر. فلماذا لا أومن بالله وأستسلم ليده القوية؟ ولكنى كنت طوال حياتى غليظًا عنيدًا كالطفل وكنت أنتظر دائمًا أن تأتينى حياتى الخاصة فى تيار العاصفة، فتجعلنى ذا فهم وثروة وتحملنى على جناحين عظيمين إلى سعادة ناضجة.

ولكن الحياة الحكيمة المقتصدة صمتت وتركتنى أسعى. فلم ترسل إلىّ عواصف ولم ترسل لى نجومًا، بل انتظرت حتى أتواضع وأصبر وأكسر عنادى. تركتنى الحياة ألعب كوميديا الزهو وادعاء المعرفة، ولم تركز بصرها عليك، بل تجاوزتها وانتظرت حتى يجد الطفل التائه الطريق إلى أمه.

الفِصل الخامس

وتأتى الآن فترة من حياتى تبدو أكثر اضطرابًا وأكثر ألوانًا من الفترة السابقة فترة تخرج على أية حال رواية صغيرة حديثة. كان المفروض أن أحكى كيف اختارتنى جريدة ألمانية لأعمل محررًا بها، وكيف أننى سمحت لقلمى ولقلمى القبيح بكثير مفرط من الحرية وتعرضت بسبب ذلك للمشكلات وللمنغصات، وكيف ألصقت بى بعد ذلك كنية السكران المدمن، وكيف حدثت تطورات عصيبة تركت الوظيفة بعدها، وطلبت إرسالى إلى باريس للعمل كمراسل للصحيفة بها، وكيف عشت فى هذا العش اللعين عيشة الفجر، أهيم على وجهى وأرتكب الحماقات فى مواضع كثيرة.

وليس من الجبن أننى أخرج لسانى فى وجه المتلوفين الذين ربما يكون منهم من يقرأ لى، وأعبر على هذه الفترة عبورًا، وأنا أعترف أننى سلكت طريق الضلال الواحدة بعد الأخرى، وأننى رأيت الكثير من القذارة واندسست فيه. ولقد تركنى منذ ذلك الحين

إحساسى بقيمة رومانتيكية الحياة البوهيمية، وينبغى عليكم، أن تسمحوا لى بأن أتشبث بالنقاوة والخير، اللذين كانا فى حياتى، وأن أترك هذه الفترة الضائعة المنتهية وشأنها.

وكنت ذات مساء أجلس وحيدًا فى غابة باريس وأفكر هل أخرج من باريس وحدها أم أخرج من الحياة كلها وأنتهى. وبينما أنا فى هذا التفكير، استعرضت حياتى لأول مرة منذ زمن طويل، وحسبت أننى عندما أخرج من الحياة لا أخسر الكثير.

وفجأة رأيت من قبيل الذكرى الحادة يومًا مضى وانقضى منذ زمن طويل ـ هو فجر يوم من أيام الصيف المبكر، فى الوطن حيث الجبال، ورأيتنى أركع عند سرير، كانت أمى فيه تعانى الموت.

وفزعت وخجلت من أننى لم أستعيد بذاكرتى فجر ذلك اليوم منذ أمد طويل. وتركتنى أفكار الموت الغبية. فأنا أعتقد أن الإنسان الجاد الذى لا يكون قد فقد الطريق فى الحياة تمامًا، لا يمكن أن ينتحر، إذا شاهدت ذات مرة انطفاء حياة صحيحة طيبة. رأيت أمى من جديد وهى تموت. ورأيت من جديد فى وجهها عمل الموت الساكن الجاد، ذلك الموت الذى أضفى على وجهها سمة من النبل والرفعة. كان الموت يبدو لاذعًا، وكان قويًا وطيبًا معًا. كأب حنون يعود إلى البيت بابن تاه.

وعلمت فجأة من جديد، أن الموت هو أخونا الذكى الطيب، الذى يعرف الساعة المناسبة والذى

ينبغى علينا أن ننتظره آمنين مطمئنين. وبدأت كذلك أفهم أن الألم وألوان الخيبة والكآبة لا توجد لتحزننا ولتجردنا من القيمة والكرامة، وإنما وجدت لتزيدنا نضجًا وصفاءٍ.

وبعد ثمانية أيام كنت قد أرسلت صناديقى إلى مدينة بازل، وتجولت سيرًا على الأقدام مسافة طيبة فى جنوب فرنسا، وأحسست اليوم بعد اليوم بتعاسة الأوقات التى أمضيتها فى باريس، تلك الأوقات التى كانت تلاحقنى كالرائحة الكريهة، الباهتة التى تستحيل إلى غمام. وشاهدت حفلة من محاكمات الحب، تستعيد ذكرى العصر الوسيط. وقضيت الليالى فى القصور وفى الطواحين وفى الشون، وشربت النبيذ الدافئ المشمس مع شباب غامض ثرثار.

ووصلت بازل بعد شهرين، مهلهل الثياب، ناحل البدن، مسمر البشرة، وقد تغيرت فى باطنى تغيرًا تامًا، كانت تلك الجولة أول جولة كبيرة من جولاتى. وقد تلتها فيما بعد جولات كثيرة. وليس بالمنطقة بين لوكارنو وفيرونا، وبين بازل وبريج، وبين فلورنسا وبيروجا، إلا القليل من المواضع التى لم أحج إليها مرتين وثلاث مرات وقد علا التراب حذائى من كثرة التجوال، فى سعى وراء أحلام لم يتحقق منها حلم واحد.

وفى بازل استأجرت حجرة فى الضاحية، وأخرجت أمتعتى وبدأت العمل. وسعدت بالحياة فى

المدينة الهادئة التى لا يعرفنى فيها إنسان، وكانت علاقاتى ببعض الجرائد والمجلات لا تزال قائمة، وكان علىَّ أن أعمل وأن أعيش. كانت الأسابيع الأولى طيبة هادئة، ثم ما لبث الحزن القديم أن عاودنى تدريجيًا، وظل يتملكنى الأيام بل الأسابيع ولا ينصرف عنى مهما اشتغلت وعملت. وأن من لم يحس فى نفسه بالكآبة فعلا، لا يستطيع أن يفهم حديثى هذا. كيف السبيل إلى وصفها؟ كنت أحس بوحدة فظيعة. كان هناك خد عميق يفصل بينى من ناحية وبين حياة المدينة. والميادين والبيوت والشوارع من ناحية أخرى. وحدثت كارثة من الكوارث الهائلة وامتلأت الجرائد بالكثير المهم من أخبارها ـ ولكنه لم يكن يعنينى فى شىء. كانت الأعياد تقام، والموتى توسد التراب، والأسواق تضرب، والحفلات الموسيقية تنظم، ـ لماذا؟ لأى هدف؟ كنت أجرى إلى العراء فأضرب فى الغابات والتلال والطرق الزراعية، وكانت المراعى والأشجار والحقول من حولى صامتة حزينة حزنًا لا تبوح به، وتنظر إلى خرساء متوسلة وقد اضطربت فيها حاجة إلى أن تقول لى شيئًا، وأن تسير ناحيتى، وتسلم علىّ. ولكنها كانت تمتد هناك حيث هى، ولا تستطيع النطق بشىء، وكنت أفهم ألمها، وأعانى معها، لأننى لم أكن أستطيع أن أخلصها.

وذهبت إلى طبيب، وحملت إليه مذكرات تفصيلية، وحاولت أن أصور له ألمى. وقرأ ما قدمته إليه، وفحصنى ثم قال مادحًا: «أنت بصحة جيدة

تحسد عليها. ليس بك من الناحية الجسمانية شىء. حاول أن تسرى عن نفسك بالقراءة أو الموسيقى».

«أنا أقرأ بحكم عملى كل يوم الكثير من الكتابات الجديدة».

«عليك على أية حال أن تتيح لنفسك شيئًا من الحركة فى العراء».

«أنا أسير كل يوم ثلاث أو أربع ساعات، وفى أيام الإجازات أسير ضعف ذلك».

«إذًا فعليك أن تكره نفسك على أن تندمج فى الناس. أنت فى خطر، أنت توشك أن تصاب بالخوف من البشر».

«وما يضرنى فى ذلك؟».

«يضرك الكثير. كلما ازداد نفورك الآن من مخالطة الناس، كلما تحتم عليك أن تزيد من الضغط على نفسك لترى الناس، إن حالتك الآن ليست حالة مرضية، وهى لا تبدو لى مخيفة. أما إذا لم تكف عن التجوال السلبى الذى تستسلم إليه، فربما انتهى بك الأمر إلى فقدان الاتزان».

كان الطبيب رجلا واسع الفهم، حسن النيلة. وقد صعبت عليه حالتى. فأوصانى بأن أذهب إلى عالم يختلف الكثير من أهل الفكر والأدب على بيته فيعج بهم. وذهبت إلى هناك. فتبينت أن اسمى معروف لديهم، ولقيت الاستقبال اللطيف الكريم، الذى أوشك أن يكون قلبيا، فعادوت الذهاب مرارًا وتكرارًا.

وذات مرة ذهبت إلى هناك فى مساء يوم بارد من أيام الخريف. ووجدت مؤرخًا شابًا وفتاة رشيقة جدًا، سمراء البشرة. لم يكن هناك فيما عداهما ضيوف. وقامت البنت على إعداد الشاى، وكانت تكثر من الكلام وتتعمد نقد المؤرخ الشاب نقدًا لاذعًا. ثم عزفت بعد ذلك شيئًا من الموسيقى على البيانو. ثم قالت لى إنها قرأت قصائدى الناقدة، ولكنها لم تستسغها. كانت تلوح لى ذكية، تتصنع المزيد من الذكاء، وبعد برهة عدت إلى البيت.

وكانوا فى هذه الأثناء قد اكتشفوا بالتدريج أننى أكثر من الجلوس فى الحانات وأننى فى الحقيقة مدمن متخف. ولم يدهشنى هذا، فالثرثرة تزدهر فى الوسط الأكاديمى بين الرجال والنساء أشد الازدهار. على أن هذا الاكتشاف المخجل لم يؤثر فى زياراتى بل جعلنى مطلوبًا مرغوبًا، لأن الناس كانوا فى ذلك الوقت متحمسين للاعتدال فى الشراب، وكان هناك من السادة والسيدات من هم أعضاء فى لجان جمعيات مكافحة المشروبات الروحية وكانوا يفرحون بكل مذنب يقع فى أيديهم. وذات يوم حدث أول هجوم مهذب. فصورت لى بذاءة الحياة فى الحانات، ولعنة الكحولية، وعرضت على هذه الأمور من الناحية الطبية والأخلاقية والاجتماعية، ودعيت لحضور حفل من حفلات جمعية مكافحة الإدمان. ولقد تملكتنى الدهشة التى لا حد لها، لأننى لم أكن قد سمعت عن مثل هذه الجمعيات والمساعى من قبل. وذهبت. كانت

جلسة الجميعة فيها موسيقى وفيها شىء من المسحة الدينية، ولكنها كانت هزلية إلى حد أليم، ولم أخف انطباعى هذا بل أظهرته. واستمرت المحاولات معى أسابيع بأسرها واتخذت طابع اللطف اللحوح، وما لبثت أن أحدثت بى الملل المفرط، وذات ليلة حاول بعضهم أن ينشد لى النشيد نفسه، وهو يأمل مشتقًا فى أن أعود إلى جادة الصواب، فتملكنى السخط الشديد، ورجوت المتحدث بشدة أن يعفينى من هذا السخف. وكانت الفتاة حاضرة. وأنصتت باهتمام إلى كلامى ثم قالت لى من كل قلبها: «برافوا» ولكنى كنت غاضبًا ولم أحفل بكلامها.

على أننى شاهدت بمتعة عظيمة حادثة صغيرة مضحكة، حدث أثناء احتفال عظيم من احتفالات جماعة تجنب المسكرات. كانت الجمعية الكبيرة تولم وليمة لأعضائها وضيوفها، وتجتمع فى دارها، وتليت الخطب وعقدت الصداقات، وأنشدت الجوقات، وهلل لتقدم نشاط مكافحة المسكرات تهليلاً كبيرًا. ولكن الخطب المناهضة للخمر طالت على موظف من موظفى الجمعية، وكان المفروض أن يحمل العلم على رأس مسيرة، فهرع إلى أقرب خمارة، فلما بدأت المسيرة العظيمة للجمعية تخترق الشوارع تمتع الآثمون المبتهجون بالبشر بمنظر مسل ممتع، فقد تقدم موكب المتحمسين لمكافحة الخمر، زعيم مبسوط مخمور يحمل بين يديه على الصليب الأزرق شبيهًا بصارى سفينة مشرفة على الغرق فى بحر لجى.

وأبعد الموظف السكران، ولم تبعد مجموعة مضطربة من ضروب الغرور الإنسانى والغيرة والمؤامرات، كانت تظهر فى اجتماعات الجمعيات المتنافسة واللجان، وكانت تزداد ازدهارًا على الدوام. فقد انقسمت الحركة الداعية إلى مناهضة المسكرات، وأراد بعض الطامحين الاستئثار بالمجد كله لأنفسهم، فكانوا يشتمون كل مدمن الخمر لا يكف عن الإدمان ويهتدى عن طريقهم، وكانوا يستغلون المعاونين الكرام المتفانين استغلالاً قبيحًا وأتيح للمقربين أن يروا، كيف كانت الواجهة المثالية لهذه الحركة تخفى وراءها الكثير من الأعمال القبيحة التى تصاعدت إلى السماء رائحتها الكريهة. كنت أسمع أخبار هذه الكوميديات من أناس وصلتهم، وكنت أنشرح لها فى سكون وربما فكرت فى بعض الليالى وأنا عائد إلى البيت بعد معاقرة للخمر مسرفة: نحن الأشقياء أفضل منكم!.

وعكفت فى حجرتى الصغيرة العالية الخالصة من الحواجز المطلة على الراين، على الدراسة والتأمل. كنت آسفًا لأن الحياة مرت علىَّ عابرة، فلم يأت تيار يجرفنى، ولم تدفئنى عاطفة عنيفة أو مواساة قوية وتنتزعنى من أحلامى السخيفة. حقيقة أننى كنت أعمل بجانب الأعمال اليومية الضرورية، فى الإعداد لمؤلف يصور حياة الرهبان الصغار الأول من الفرنسيسكان. ولكن هذا العمل لم يكن خلقًا، بل كان مجرد جمع متواضع لم يرض دافع الحنين فى نفسى، وبدأت بداية، عدت فيها بذكراتى إلى زيورخ وبرلين

وباريس. واستوضحت فيها الأمانى والعواطف والمثل الرئيسية التى يضطرب بها المعاصرون. كان هناك من الناس من يعمل على القضاء على الأثاث وأوراق زخرفة الحيطان والملابس المعروفة. ويسعى إلى تعويد الناس على بيئات أكثر جمالا وحرية. وكان هناك آخر يجتهد فى تبسيط نظرية وحدة عنصر الوجود لهيكل ونشرها فى مؤلفات شعبية ومحاضرات بسيطة بين الناس. وكان هناك ثالث يعتقد أنه من الضرورى أن يسعى الناس لتحقيق السلام الدائم فى العالم. ورابع يناضل من أجل الطبقات الدنيا المسكينة، أو يجمع الأموال ويخطب الخطب من أجل إنشاء مسارح ومتاحف تفتح للشعب. وكان هناك فى بازل من يجتهد فى مناهضة الكحول.

كانت كل هذه الجهود فيها الحياة والدافع والحركة، ولكن لم يكن بينها ما يلوح لى مهمًا ضروريًا، ولو أن هذه الأهداف كلها تحققت جميعًا، لما مست حياتى ولما مستنى. وهويت إلى ظهر الكرسى يائسًا، ودفعت الكتب والأوراق بعيدًا عنى، وفكرت وفكرت، فسمعت من النوافذ نهر الراين ينساب والريح تهيب وأرهفت السمع متأثرًا إلى هذه اللغة التى ينطق بها اكتئاب وحنين عظيمان لا يفتآن يتربصان فى كل صوب. ورأيت سحب الليل الشاحبة متجمعة فى أكداس ترتعش عبر السماء كطيور مفزوعة، واستمعت إلى الراين وهو يتجول وفكرت فى موت أمى، وفى القديس فرانتس، وفى وطنى وفى الجبال ذات الثلج

وفى ريشارد الغريق، ورأيتنى أتسلق على السفوح الصخرية، لأقطف ورد الألب لروزى جيرتانرو رأيتنى في زيورخ تثيرنى الكتب والموسيقى والأحاديث، ورأيتنى مع أليتى أسير على ماء مصطبغ بلون الليل، ورأيتنى أستسلم إلى اليأس بعد موت ريشارد، وأرحل ثم أعود وقد أصبت الشفاء والبؤس معًا. لماذا؟ لأى هدف؟ رباه، هل كان كل هذا لعبًا، مصادفة صورة من الخيال مرسومة؟ ألم أناضل وأعانى عذاب الرغبة والسعى نحو الفكر والصداقة والجمال والحقيقة والحب؟ ألم تختلج فى على الدوام موجة الحنين والحب الحارة؟ كان كل ذلك للاشىء. لعذابى أنا، وليس لمتعة كائن من كان.

ثم أصبحت من رواد الحانات. فنفخت فى المصباح حتى انطفأ، وتلمست طريقى إلى السلم الدائرى القديم فنزلت لأذهب إلى حانة أصيب فيها الفيلتلينر أو الفاتليندر كنت هناك أستقبل بالاحترام، على الرغم من أننى كنت عادة عنيدًا وكنت من حين لآخر أغلظ فأكون فى غلظة الجوت، وقرأت رواية «زيمبليسيسيموس» واغتظت منها المرة بعد المرة، وشربت النبيذ، وانتظرت أن يواسينى. ولمسنى النبيذ الحلو بيده الناعمة النسائية، فأصاب أعضائى بالتعب اللطيف وساق روحى الضال إلى بلد الأحلام الجميلة ضيفًا عليها.

وكانت أحيانًا أدهش أنا نفسى من أننى أعامل الناس هذه المعاملة الخشنة وأننى أجد شيئًا من المتعة

فى تبكيتهم وإغاظتهم. كانت جرسونات الحانات التى أتردد عليها يخشوننى ويلعننى ويتهمننى بأننى فظ غليظ، وبأننى لا أرضى بشىء وبأننى دائم النقد واستظهار العيوب فيما يقدم إلىَّ. وكنت إذا وقعت فى محادثة مع زبائن آخر، اشتد فىَّ التهكم والغلظة، وبالطبع كان هؤلاء الناس يستحقون هذه المعاملة. ومع ذلك فقد كان هناك من رواد الحانات قلة، ارتبطت بهم بعلاقات لا بأس بها بعد أمسية من الشراب معًا. وكان هؤلاء جميعًا من المشرفين على الشيخوخة ومن المدمنين الذين لا أمل فى شفائهم كان من بينهم رجل متقدم فى السن، غليظ الطبع، يحترف الرسم عدو للنساء سليط اللسان، ومدمن خمر من الدرجة الأولى. كنت إذا التقيت به ذات مساء فى حانة وحده، تبدأ معركة شديّدة من الشرب. فيجرى حديث من اللغو، والنكت، ونفرغ بجانب هذا الحديث زجاجة من النبيذ الأحمر فى كئوسنا، ثم يتقدم الشرب إلى الخط الأول من الأهمية، وينام الكلام، ونقعد الواحد منكمشًا أمام الآخر. يرتشف كل نصيبه من زجاجة البريساجو، ثم يتجه كل منا إلى زجاجاته هى فيفرغها. وكان كل واحد منا فى معرض هذا الشراب، مساويًا لصاحبه، فكنا نقدم الزجاجتين لإعادة ملئهما فى وقت واحد معا، ويتأمل الواحد منا صاحبه بانتباه وبشىء من تمنى الشر. وفى وقت النبيذ الجديد، فى الخريف المتأخر، كنا أحيانًا نتجول معًا فى بعض القرى الماركجرافلرية التى تتعاطى صناعة النبيذ، ولقد حكى لى الرجل العتيق فى حانة «الوعل» بقرية

كيرشين قصة حياته. وأعتقد أن هذه القصة كانت ظريفة وغريبة، ولكنى نسيتها كلها. ولم يبق فى ذاكراتى منها سوى وصف إحدى حلقات الشراب، وهى بلا شك من أحداث سنواته المتقدمة. حدث هذا فى مكان ما بالريف أثناء احتفال قروى، وكان ضيفًا على مائدة الأعيان، وتمكن من إغواء القسيس والعمدة فى وقت غير مناسب، للشراب المفرط، وكان المفروض أن يلقى القسيس خطبة. وجروه بجهد جهيد إلى المنصة، فلما وقف عليها تكلم كلامًا فظيعًا حتم إنزاله من المنصة، فقفز العمدة إلى المنصة لإنقاذ الموقف. وبدأ يتكلم ارتجالا، وفجأة ساءت حاله نتيجة للانفعال العنيف، وانتهت خطبته نهاية غير لائقة أو مألوفة.

وكنت فيما بعد أحب أن أطلب إليه أن يعيده على هذه الحكاية وغيرها. ولكن مشاحنات حدثت بيننا أثناء حفل من حفلات الرماية وتجادلنا جدالا عنيفًا، وتفرقنا غاضبين، لا سبيل إلى التوفيق بيننا. منذ ذلك الحين كان يحدث أن نلتقى بضع مرات فنجلس كالعدوين فى الحانة. كل إلى مائدته بطبيعة الحال، ولكنا طبقًا لعادتنا القديمة كان يلاحظ أحدنا الآخر فى صمت، ونشرب بسرعة واحدة، ونظل جالسين إلى أن يكون جميع الرواد قد انصرفوا من مدة طويلة، وتركونا وحدنا، ويأتى من الحانة من يرجونا أن ننصرف. ولم يحدث صلح بيننا مطلقًا.

وكان التفكير الدائم فى أسباب حزنى وعجزى فى الحياة متعبًا لا يؤدى إلى أية نتيجة. لم أكن أحس

بحال من الأحوال بأننى انتهيت واستهلكت، بل كنت أحس بأننى ممتلئ بالدوافع الغامضة، وكنت أعتقد أننى فى الوقت المناسب سأتمكن من إبداع شىء فيه العمق والجودة ومن انتزاع حفنة سعادة على الأقل من الحياة المعاندة. ولكن هل يأتى هذا الوقت المناسب؟ أبدًا. وفكرت بمرارة فى هؤلاء الرجال العصبيين المحدثين الذين يستثيرون أنفسهم بألف من الوسائل المصطنعة بغية الإبداع الفنى بينما أنا أحمل فى جنباتى قوة ضخمة لم تستغل. وعدت أتأمل فى أمر العائق أو الشيطان الذى يكمن فى جسمى القوى العنيد. فيعرقل روحى ويثقل تنفسى أثقالاً متزايدًا.

وخطر ببالى فى هذه الأثناء رأى غريب يصورنى على أنى إنسان منحوس فريد فى بابه، يتألم ألمًا لا يوجد إنسان يعرفه أو يفهمه أو يواسيه. وهذا هو العنصر الشيطانى فى الكآبة، إنها لا تمرض الإنسان فحسب، بل تجعله موهوما قصير النظر، بل وتجعله كذلك قريبًا من العجرفة والتعالى. إن الإنسان ليتصور نفسه كأطلس هاينه التافه، الذى يحمل على كتفيه وحده كل آلام وكل ألغاز العالم، ولا يتصور أن هناك الآلاف من الناس تعانى الآلام ذاتها وتضطرب فى التيه نفسه. كذلك راح من بالى فى عزلتى وبعدى عن الوطن أن غالبية الصفات والفرائد التى أتصف بها، ليست خاصة بى، بل هى تراث أو هى آفة آل كامينتسند.

وكنت أذهب مرة كل عدة أسابيع إلى بيت العالم الكريم. وعرفت بالتدريج كل أولئك الذين يختلفون

إليه تقريبًا. كانوا فى غالبيتهم من شباب الأكاديميين، بينهم كثرة من الألمان، من كل الكليات الجامعية، باستثناء بعض الرسامين والموسيقيين وبعض الوجهاء الذين كانوا يصحبون زوجاتهم وبناتهم معهم. وكنت كثيرًا ما أتطلع بالدهشة إلى هؤلاء الناس الذين كانوا يحيوننى كضيف فريد نادر، والذين كنت أعلم عنهم أنهم يتقابلون فيما بينهم العديد من المرات أسبوعيًا. ماذا كانوا يقولون ويفعلون معًا فى هذه اللقاءات؟ كان أغلب هؤلاء الناس يبدو على هيئة نمطية هى هيئة الإنسان الاجتماعى، وكانوا يلوحون لى كأن هناك بينهم قرابة ما، تقوم على أساس فكر اجتماعى متساو بينهم كنت أنا الوحيد الذى لا أملكه. وكان بينهم أناس ذوو رقة وأهمية، لم تجردهم الاجتماعات الدائمة أبدًا على ما يبدو من نضارتهم وقوتهم الشخصية أو على الأقل من كثير منها. وكنت أستطيع أن أتحادث مع أفراد منهم حديثًا طويلاً مفعمًا بالاهتمام. ولكنى لم أكن أستطيع الانتقال من واحد إلى واحد والبقاء مع هذا لحظة ومع ذلك لحظة، وارتجال شىء من العبارات اللطيفة بغير مناسبة وقولها للسيدات، وتوجيه الاهتمام إلى فنجان من الشاى، أو حديثين أو قطعة من الموسيقى كل هذا فى وقت واحد، أتظاهر فيه بالاهتمام وبالسرور. وكان أفظع شىء بالنسبة إلىَّ الحديث عن الفن أو الأدب. فقد تبينت أن هذين الميدانين، يقل فيهما التفكير، ويكثر الكذب، وينطلق الهراء واللغو بما لا يقال، وهكذا اشتركت فى الكذب، ولكنى لم أجد متعة فى الكذب، ووجدت أن اللغو

الكثير السمج ممل خانق. كنت أفضل أن أسمع امرأة تتحدث عن أولادهما وأفضل أن أتحدث عن رحلاتى، وعن أحداث يومية صغيرة وعن أشياء أخرى واقعية. وكنت فى أثناء ذلك أزداد أحيانًا ثقة وأحس بشىء يوشك أن يكون البهجة. وكثيرًا ماكنت عند نهاية السهرات أذهب إلى حانة وأبلل جفاف حلقى ومللى البليد بخمر الفيلتلينر وما أزال أصب عليها حتى ينجرفا.

وفى سهرة من هذه السهرات رأيت الفتاة السمراء مرة ثانية. كانت هناك جماعة كبيرة مجتمعة، تعزف الموسيقى وتضطرب فى اللغو المعهود، وكنت أنا أجلس فى ركن إلى مصباح أقلب صفحات مجلد الصور. كانت الصور تمثل مشاهد من توسكانا، ليست هى المشاهد المألوفة، التى تحملها آلاف الصور المتداولة، بل كانت هذه الصور تمثل مناظر خاصة من تخطيط فريد، وكانت فى أغلبها هدايا من رفاق فى رحلة أو من أصدقاء رب البيت. ووجدت رسمًا لبيت صغير من الحجر نوافذه ضيقة، يقوم فى واد منعزل بسان كليمنته، كنت أعرفه لأننى تنزهت فيه مرارًا. وهو واد قريب جدًا من فيزولا، ولكن السياح جلهم لا يقصدونه مطلقًا، لأنه خال من الآثار القديمة. وهو واد ذو جمال لاذع غريب، فهو جاف يوشك ألا يكون آهلا، وينحصر بين جبال قاسية عالية جرداء، بعيدة عن الدنيا، حزينة وغير مطروقة.

وتقدمت البنت نحوى ونظرت إلى من فوق كتفى وقالت: «لماذا تجلس دائمًا بمفردك هكذا يا سيد كامينتسند؟».

وغضبت من ذلك الكلام. وفكرت أنها شعرت بأن الرجال يهملونها فأتت إلىَّ.

وعادت تقول: «ثم هأنذا لا أحصل على إجابة؟».

ـ أنا متأسف يا آنسة. ولكنى لا أعرف إجابة أقولها إننى أجلس بمفردى لأن العزلة تعجبنى.

ـ إذًا فأنا أقلقك؟

ـ أنت غريبة الأطوار.

ـ أشكرك. ولكن على العكس.

وجلست. وتمسكت أنا بالورقة بين أصابعى.

وقالت: أنت من منطقة الجبال. وأنا أتمنى أن أسمع شيئًا من أخبار هذه المنطقة. فقد قال أخى إن القرية التى أنت منها، وليس فيها سوى اسم واحد، كل الناس اسمهم كامينتسند. هل هذا حقيقى؟

فقلت متبرمًا: إلى حد ما. ولكن هناك فرانًا اسمه فوسلى وهناك صاحب حانة اسمه نيديجر.

«ومن عداهما اسمهم كامينتسند. وهل أنتم أقرباء بعضكم لبعض؟».

ـ قرابة بين القديمة والبعيدة.

وقدمت إليها الصورة. فأمسكت الصورة بقوة، ولاحظت أنها تحسن فعل ذلك، فقلت لها ما لاحظته.

فقالت ضاحكة: إنك تمدحنى، ولكن على طريقة مدرسى المدارس».

فسألتها فى خشونة: «ألا تريدى التطلع إلى الصورة؟ إن لم تريدى فقولى، حتى أضعها فى مكانها من المجلد».

وسألت: «ماذا تمثل هذه الصورة؟».

ـ سان كليمنته.

ـ أين؟

ـ عند فيزولا.

ـ هل كنت هناك؟

ـ نعم أكثر من مرة.

ـ فصف لى منظر الوادى. فالصورة لاتمثل إلا جزءًا.

واستغرقت فى التفكير. وتمثلت لى البقعة الجادة الجميلة القاسية، فأقفلت عينى نصفا، حتى أبقى على المنظر ومكثت هكذا برهة، بدأت بعدها فى الكلام، وتكلمت راضيًا، لأنها كانت صامتة ساكنة تنتظر. كانت قد فهمت أننى مستغرق فى التفكير.

وصورت لها سان كليمنته، وكيف أنه واد يمتد صامتًا أجرد عظيمًا فى حرارة الشمس وقت العصر، وهناك بجانبه فى فيزولا يمارس الناس الصناعة ويصنعون القبعات الخوصية والسلال، ويبيعون أشياء الذكرى والبرتقال. ويغشون السياح أو يمدون إليهم أيديهم بالتسول. وإلى أسفل بعد مسافة أخرى مدينة فلورنسا التى تضم تيارًا فياضًا من الحياة القديمة والحديثة. ولكن المنظرين لايمكن رؤيتهما من كليمنته هذا الوادى واد مسكين نسية التاريخ، فلم يعمل به رسام ولم ينشأ به بناء من أبنية الرومان. ولكن هناك تكافح الشمس والمطر ضد الأرض، وتبقى شجرات الزان على الحياة بجهد جهيد، وتمد شجرات السرو

قممها الهزيلة تتحسس بها الهواء لتعرف هل العاصفة العدوة قريبة، العاصفة التى تقصر حياتها التعسة التى تتشبث بها بجذور ظامئة. وأحيانًا تمر عربة يجرها الثيران آتية من عزبة من العزب المجاورة العظيمة، أو تقبل أسرة من الفلاحين متجهة إلى الحج إلى فيزولا، ولكن هؤلاء الضيوف عارضون، حتى أن ملابس الفلاحات الحمراء التى تبدو فى العادة لطيفة شيقة، تقلق المنظر هنا ويود الإنسان أن ينساها.

وقصصت عليها كيف تجولت فى هذه المنطقة عندما كنت شابًا، وكنت أرافق صديقًا لى، وكيف تمددت أسفل شجرات السرو واستندت إلى جذوعها الهزيلة، وكيف أن السحر المنعزل الحزين الجميل لهذا الوادى الفريد ذكرنى بالتجاويف الجبلية الهاوية فى موطنى.

ولذنا بالصمت برهة.

وقالت البنت: أنت شاعر.

فقطبت وجهى.

وعادت تقول: «أعنى معنى آخر. لا أريد أن أقول إنك تكتب القصص وما إليه ولكن أريد أن أقول إنك تفهم الطبيعة وتحبها. فماذا يعنى بالنسبة للناس الآخرين أن تحدث الشجرة حفيفًا أو أن يتأجج جبل فى الشمس، ولكن بالنسبة إليك، هناك حياة فى هذه الأشياء وأنت تستطيع أن تشارك فى عيشها».

وأجبت عليها قائلاً إنه ليس هناك من «يفهم الطبيعة»، وإن الإنسان مهما بحث ومهما اجتهد فى

الفهم لن يجد سوى الألغاز ولن يعود إلا بالحزن. إن الشجرة القائمة فى الشمس أو الحجرة المتآكلة من الطقس، أو الحيوان أو الجبل ـ كل هذه لها حياة، لها تاريخ، إنها تعيش وتعانى وتعاند وتتمتع وتموت، ولكننا لا نفهمها.

وبينما أنا أكلمها وأتمتع بانتباهها الصابر الساكن، بدأت أتأملها. كانت نظرتها مركزة فوق وجهى. ولم تكن تفلت من نظرتى إليها. كان وجهها هادئًا جدًا، متحمسًا متوترًا من شدة الانتباه. كانت كأن طفلا يستمع إلى، لا. كانت كأن كبيرًا ينهمك فى الاستماع إلى، وينسى نفسه، ويتخذ عينين شبيهتين بعينى الطفل دون أن يدرى وبينما أنا أتأملها، اكتشفت بالتدريج بفرحة المكتشف الساذج، أنها جميلة جدًا.

فلما توقفت عن الكلام، ظلت هى أيضًا ساكنة. ثم عادت إلى نفسها فجأة ورمشت فى ضوء المصباح.

وسألتها دون أن أكثر من التفكير فى سؤالى:

ـ وما اسمك يا آنسة؟

ـ إليزابث.

وانصرفت، وطلبت إليها بعد ذلك أن تعزف على البيانو، فعزفت وأجادت. فلما اقتربت منها، رأيت أنها لم تعد جميلة كما كانت.

وعندما نزلت درج السلم اللطيف القديم لأذهب إلى بيتى، سمعت كلمات من حديث بين اثنين من الرسامين كانا فى المدخل يرتديان معطفيهما.

قال أحدهما ضاحكًا: هه، لقد ظل طوال السهرة مشغولاً بالجميلة إليزابث.

فقال الرسام الآخر: ماء تحت تبن. وقد عرف كيف يختار وينتقى.

إذًا لقد بدأ القردة والنسانيس يلوكون بأفواههم وفجأة خطر ببالى أننى على نحو يوشك أن يكون ضد إرادتى حكيت لهذه البنت الصغيرة الغريبة ذكريات خاصة وقدمت إليها قطعة كاملة من حياتى الذاتية. فما الذى ساقنى إلى هذا؟ ثم ها هى ذى الأفواه القبيحة تشتغل شغلها ـ كالعصابة.

وخرجت ولم أعد إلى البيت بعد ذلك مدة طالت إلى شهور. وتصادف أن كان أحد الرسامين هو الذى التقى بى فى الشارع وكلمنى فى هذا.

قال: لماذا انقطعت عن الذهاب إلى هناك؟

فقلت: لأننى لا أستطيع تحمل الثرثرة اللعينة.

فضحك الرجل وقال: نعم، نساؤنا!

فأجبته: لا، بل أعنى الرجال، وبخاصة السادة الرسامين!

ولم أر إليزابث فى هذه الفترة إلا مرات قليلة فى الشارع، مرة فى محل تجارى ومرة فى معرض رسوم كانت إليزابث فى العادة لطيفة، ولم تكن جميلة. وكانت حركات قوامها النحيف تتميز بسمة فريدة خاصة، تضفى عليها جمالا وامتيازًا فى أغلب الأحيان، ولكنها كانت أحيانًا تبدو متكلفة غير أصيلة. وكانت إليزابث جميلة، رائعة الجمال فى المعرض. لم

ترنى هناك. فقد كنت أنتحى جانبًا أجلس فيه طلبًا للراحة، وأقلب فى أوراق الكتالوج وكانت هى تقف قريبا منى، أمام لوحة كبيرة لسيجانتينى وكانت غارقة فى اللوحة تمامًا. كانت تلك اللوحة تمثل بعض المروج الفقيرة وفيها بعض البنات الفلاحات يعملن، وإلى الخلف الجبال الصلبة ذات التقاطيع الحادة، التى تذكر مثلا بمجموعة جبال شتوكهورن، وإلى أعلى سحابة عاجية اللون مرسومة بعبقرية لا نظير لها، فوق سماء باردة صافية. كانت هذه السحابة تلفت النظر لأول وهلة بكتلتها المكورة تكورًا عجيبًا، المتداخلة تداخلا عجيبًا.

كان الإنسان يتبين أنها قد تكورت من شدة الريح لتوها، فانعجنت وتهيأت للصعود وللطيران شيئًا فشيئًا. والظاهر أن إليزابث فهمت هذه السحابة. لأنها كانت مندمجة فى التطلع إليها كل الاندماج. وعادت روحها الكامنة المتوارية عادة، وإلى الظهور فى وجهها، وضحكت ضحكًا رقيقًا بعينين متسعتين، وألانت فمها الرقيق الإنة ناعمة طفلية، وبسطت الثنية القاسية بين حاجبيها، المعبرة عن ذكاء مسرف، بسطا واضحًا، لقد تملك روحها جمال وصدق هذا العمل الفنى العظيم، واضطرها إلى أن تظهر روحها هى أيضًا جميلة صادقة لا تتوارى.

وجلست عن قرب ساكنًا، أتأمل سحابة سيجانتينى الجميلة وأتأمل البنت الجميلة التى خلبت هذه السحابة لبها وخشيت أن تدور فترانى وتكلمنى وتفقد جمالها، فتركت القاعة مسرعًا ساكنًا.

في هذا الوقت بدأت علاقتي بالطبيعة الصماء وسعادتي بها، تتغير. كنت ما أزال أكثر من التنزه خلال المنطقة الرائعة المحيطة بالمدينة، وأفضل الذهاب إلى جبال اليورا. وكنت أرى الغابات والجبال والمروج وأشجار الفاكهة والخمائل قائمة تنتظر شيئًا ما. ربما تنتظرني أو تنتظر على أية حال الحب.

وبدأت أحب هذه الأشياء. ونشأت حاجة قوية ظامئة في نفسي تتجه إلى جمالها الصامت. وكذلك اندفعت من نفسي حياة عميقة وشوق عميق غامض إلى أعلى يبحث عن شعور وعن فهم وعن حب.

الكثيرون يقولون إنهم «يحبون» الطبيعة. وهذا يعني أنهم لا يمتنعون عن قبول سحرها العارض من حين لآخر. فهم يخرجون ويفرحون بأنهم يدوسون بأرجلهم جمال الأرض، ويدهسون المراعي ويقطعون في النهاية كمية من الأزهار والأغصان، لا يلبثون أن يلقوا بها أو يتركوها في البيت إلى أن تذبل! وهكذا هم يحبون الطبيعة وهم يتذكرون حبهم الطبيعة يوم الأحد، عندما يكون الجو جميلا، فيتأثرون من قلبها الطيب. وما هم بحاجة إلى ذلك «فالإنسان تاج الطبيعة» نعم، تاجها، وأي تاج!.

كنت إذًا لا أكف عن النظر شغوفًا إلى أبعد أعماق الأشياء. كنت أسمع الريح كثيرة الأنغام ترن في هامات الأشجار، وأسمع الجداول تفور خلال التجاويف الجبلية العميقة، والأنهار الهادئة الساكنة تتسلل خلال السهول المنبسطة، وكنت أعلم أن هذه

الأنغام لغة الله، وأن الإنسان إذا فهم هذه اللغة المستغلقة الجميلة جمالاً أصيلاً، فإنه بذلك يرجع إلى الفردوس. والكتب تعرف عن هذا الأمر القليل، إلا التوراة ففيها كلمة عجيبة عن زفرة للخليقة لاسبيل إلى التعبير عنها بكلام. ولكنى كنت أعرف أنه كانت هناك فى كل العصور. أناس تملكها مثلى هذا الحديث غير المفهوم، فتركت عملها اليومى ولاذت بالخلاء الساكن، لتنصت إلى نشيد الخليقة، وتراقب حركة السحاب وتعبد الواحد الصمد بحنين لا يهدأ وأذرع مرفوعة فكانت من الزهاد والنساك والقديسين والأولياء.

ألم تزر بيزا أو كامبوسانتو؟ إن الحيطان هناك تحليها صور من العصور القديمة أصابها الزمان بالشحوب وواحدة من هذه الصور تمثل حياة النساك فى صحراء ثيبة والصورة الساذجة، مازالت إلى اليوم بألوانها الباهتة تفجر تيارًا من سحر سلام ناعم إلى درجة تجعلك تحس كأنك تشعر بألم مفاجئ، وكأن بك حاجة إلى أن تبكى من ذنوبك وأثمك فى مكان ما بالأفق القدسى البعيد. لاتود أن تعود منه. عدد لايحصى من الفنانين حاولوا على هذا النحو أن يعبروا فى صورهم عن حنينهم، وثمة لوحة بها طفل صغير لطيف من رسم لودفيج ريشتر يغنى النشيد نفسه الذى تغنيه صور بيزا الكبيرة، لماذا أعطى تيزيانوه صاحب الحاضر وصديق الجسم، لصوره الواضحة الموضوعية، أحيانًا خلفية من لون أزرق حلو

يمثل البعد؟ هى عبارة عن خط من اللون الأزرق العميق الدافئ، لايظهر منه غير ذلك فلا ترى جبالا بعيدة ولا ترى مكانًا يريد هذا اللون أن يظهر لا حدوديته. حتى تيزيانو الواقعى لم يعرف. وهو لم يضع هذا اللون الأزرق، كما يدعى مؤرخو الفن، لأسباب من انسجام وتوافق الألوان، وإنما وضع هذا اللون جزية دفعها إلى ذلك الحنين الذى لايرضى، الذى كان يضطرب فى روح هذا الرجل السعيد المبتهج. وهكذا بدا أن الفن كان فى كل العصور يسعى لمنح هذا الحنين الربانى فى نفوسنا لغة يعبر بها.

ولقد نطق القديس فرانتس بهذا على نحو أكثر نضجًا وجمالا وإن اتصف بكثير من سذاجة الطفولة. لم أفهمه بتمامه إلا فى ذلك الوقت. لقد شمل بحبه لله الأرض كلها والنباتات والأحجار والحيوانات والرياح والمياه. وعبر بذلك مسرعًا مسرف السرعة العصر الوسيط كله ودانتى، ووجد لغة الإنسانية المجردة من الزمن. إنه يسمى كل قوى وظواهر الطبيعة أخوته الأحباء وأخواته الحبيبات، حتى عندما مرض فى سنواته الأخيرة، وفرض عليه الأطباء أن يكون بحديد متوهج فى جبهته، استقبل ـ وهو وسط خوف المريض المعذب ـ الحديد محييا فيه الفظيع «أخته النار»!.

فلما بدأت أحب الطبيعة حبًا شخصيًا، وأنصت إليها إنصاتى إلى زميل وإلى رفيق سفر يتكلم لغة أجنبية، لم تشف كآبتى، بل تسامت وتطهرت. زادت

أذنى وعينى حدة وتعلمت أن ألحظ النغمات الرقيقة والفروق الطفيفة واشتقت إلى أن أستمع إلى نبض قلب الحياة كلها على نحو يتزايد وضوحًا وقربًا، وربما إلى أن أفهمه، وربما أوتى ذات مرة موهبة تمكننى من التعبير عنه بكلمات الشعر، حتى يقترب منه الآخرون ويسعون بفهم أفضل إلى منابع النشاط والطهر والبراءة. كان ذلك فى وقت ما أملى، وحلمى - ولم أكن أعرف هل يتحقق يومًا ما أم لا، ولذلك تعلقت بأقرب الأمور إلىَّ، فأتحت الحب لكل ما تراه العين، وعودت نفسى على ألا أعود إلى الاستخفاف بالأشياء والتهكم عليها.

ولست أستطيع أن أقول إلى أى حد أثر هذا على حياتى المظلمة بالتجديد والسلوان. فليس فى الدنيا شىء أكرم ولا أكثر إسعادًا للمرء من حب دائم لا ينطق به كلام، ولا ينفعل بهيام، ولست أتمنى من كل قلبى شيئًا أكثر من أن يبدأ بعض قرائى، أو اثنان أو واحد منهم، بتحريضى، فى تعلم هذا الفن الناعم الصافى، هناك من الناس من لهم هذا الفن بالفطرة، وهم يمارسونه لا شعوريًا، هؤلاء هم أحباب الله، هؤلاء هم الأخيار وهم الأبرار بين البشر. وهناك من الناس من تعلموا هذا الفن فى وسط آلام عصيبة - ألم تروا بين العجزة والمساكين من لهم عيون فائقة ساكنة براقة؟ فإذا لم تريدوا الاستماع إلى كلماتى المسكينة فاذهبوا إلى أولئك الذين أتيح لهم حب مجرد من الرغبة فتغلب على الألم والعذاب وتسامى به.

هذا الكمال الذى مجدته أنا فى بعض الصابرين المساكين، هو ما أقف الآن بعيدًا عنه بعدًا أليمًا. ولكنى فى هذه السنوات كلها لم أفقد الإيمان المواسى إلا نادرًا، الإيمان بمعرفة الطريق الصواب إليه.

ولست أستطيع القول بأنى سلكت هذا الطريق دائمًا بل أننى بقيت فى منتصف الطريق جالسًا على مقاعده كلها ولم أنأ بنفسى عن سبل ملتوية شريرة. وكان هناك ميلان أنانيان قويان يتنازعان فى نفسى على الحب الخالص. كنت مدمنًا على الشرب وكنت نافرًا من البشر. والحقيقة أننى كنت أتجاوز معيارى من النبيذ تجاوزًا هائلاً ولكن النبيذ الحنون كان كل بضعة أسابيع يحثنى على أن أرتمى بين ذراعيه، أما أننى بقيت فى وسط الطريق أو عدت إلى مشاهد ليلية مشابهة للمشاهد السابقة، فهذا مالم يتكرر على الإطلاق بعد ذلك تقريبًا، لأن النبيذ يحبنى ويجتذبنى إلى الحد الذى تخالط فيه أرواحه روحى ويدور بينهم حديث من الصداقة والود. وظل ضميرى يؤنبنى بعد كل مرة أسرف فيها فى الشراب، وفى النهاية لم أستطع أن أجرد النبيذ من حبى تمامًا. فقد ورثت عن أبى الميل الشديد إلى معاقرة الخمر. وبقيت وسنوات طويلة أتشبث بهذا الميراث وأحرص عليه وآخذه بالتقوى، حتى جعلت منه ملكًا أساسيًا لى وتمكنت من أن أعقد بين الدافع والضمير عقدًا نصفه جاد ونصفه مازح. وأضفت إلى أغنية مدبح القديس فرانتس فون أسيزى «أخى النبيذ الحبيب!».

الفصل السادس

كان عيبى الآخر أخطر بكثير. كنت قليل الكلف بالناس، أعيش كالزاهد وأعد التهكم والتحقير لمواجهة كل الأشياء التى تتصل بالإنسان.

ولم أفكر فى هذا على الإطلاق وأنا أبدأ حياتى الجديدة كنت أرى من الصواب أن أترك الناس بعضهم لبعض، وأن أمنح عاطفتى وميلى ومواساتى للحياة الصامتة للطبيعة وحدها. وأتانى هذا المسلك فى أول الأمر بالرضا الكامل.

كنت عدما آوى بالليل إلى سريرى، يخطر ببالى فجأة تل أو سفح أو شجرة حبيبة منعزلة، لم أزرها منذ مدة طويلة، كنت أتصور الشجرة وحدها وسط الريح، تحلم أو ربما تنعس، أو تتأوه وتحرك أغصانها. فما منظرها يا ترى؟ وكنت أترك البيت وأسعى إلى الشجرة وأتطلع إلى هيئتها الغامضة وسط الظلام الحالك وأحمل لها فى ذاتى صورة غارية.

أنتم تجدون فى هذا ما يضحك. ربما كان هذا الحب ضالا، ولكنه لم يكن على أية حال مضيعًا. ولكن كيف السبيل من هذه البداية إلى الوصول إلى حب الناس؟

على أنه حيث يتمكن الإنسان من بداية، يجد أن أفضل الأشياء تأتى من تلقاء ذاتها. كانت فكرة عمل أدبى عظيم لاتزال منى وتلوح لى قريبة الإمكان. فإذا وصل الحب بى إلى أن أتكلم لغة الغابات والأنهار، فمن أجل من؟ ليس فقط من أجل أحبابى، وإنما قبل كل شىء آخر من أجل البشر الذين أريد أن أكون بالقياس إليهم القائد ومعلم الحب. ولقد كنت غليظًا مع هؤلاء البشر، وكنت ساخرًا، عاريًا عن الحب. وأحسست بالمشكلة وبضرورة مكافحة الغرابة اللاذعة، وبضرورة إظهار الإخوة للناس. وكان هذا شيئًا صعبًا، لأن العزلة وأحداث القدر جعلتنى فى هذه النقطة بالذات قاسيًا غليظًا. ولم يكن من الكافى أن أجتهد فى البيت وفى الحانة فى أن أخفف من لذوعتى وفى أن أومئ برأسى فى ود تحية من يقابلنى. وتبينت فى أثناء هذا إلى أى حد من العمق قد أتلفت علاقتى بالناس إتلافًا، فقد أصبح الناس يقابلون محاولاتى للتلطف معهم بالريبة والفتور أو التهكم. وأسوأ شىء تورطت فيه، هو انصرافى عن «بيت العالم» وكان البيت الوحيد الذى ارتبطت به بالتعارف، عامًا كاملاً تقريبًا، وتبينت أنه ينبغى علىَّ قبل كل شىء آخر أن أقرع بابه من جديد وأن أبحث لى عن طريق يوصلنى بلون الاجتماع المعروف هنا.

كذلك ساعدتنى إنسانيتى الضالعة فى السخرية فى هذا المجال مساعدة لايستهان بها. فما كدت أفكر فى ذلك البيت، حتى تصورت إليزابث فى ذهنى كما رأيتها أمام سحابة سيجانتينى، ولاحظت فجأة مدى مشاركتها إياى الحنين والكآبة. وحدث لأول مرة أننى فكرت جديًا فى أن أخطب امرأة. كنت حتى تلك اللحظة أعتقد فى عدم صلاحيتى تمامًا للزواج، ولهذا استسلمت لهذه الفكرة بتهكم قارص. لقد كنت شاعرًا، وسواحًا، ومدمنًا للخمر وعزوفًا عن الناس. أما الآن فإذا بى أعتقد أننى أعرف مصيرى الذى يتلخص فى إقامة جسر هو حب الزوجة، يوصلنى إلى عالم البشر. ولقد بدت لى هذه الفكرة جذابة وأكيدة إلى أقصى حد. وكنت قد أحسست ورأيت أن إليزابث تولينى اهتمامًا، وتبينت كذلك أنها ذات كيان كريم يحسن التقبل والاستجابة. وفكرت فيها وكيف امتلأ جمالها حيوية أثناء حديثنا عن سان كليمنته، وكذلك عندما وقفت أمام لوحة سيجانتينى. أما أنا فكنت قد جمعت منذ سنين ثروة باطنية كبيرة من الفن والطبيعة. ستتعلم إليزابث إذًا أن ترى منى الجمال الناعس فى كل الأرجاء، وسأحيطها أنا بالجمال والحقيقة، حتى ينسى وجهها وتنسى روحها كل المنغصات، وتتمكن هكذا من التطور وتحقيق الازدهار لقدراتها. ومن الغريب أننى لم أحس بسمة السخرية فى هذا التحول المفاجئ الذى اعترانى. لقد تحولت أنا العزوف المنعزل الوحيدة بين عشية وضحاها إلى

عاشق ولهان يحلم بالسعادة الزوجية وبإقامة بيت خاص به.

وأسرعت ما استطعت فى السعى إلى البيت الكريم ولقيت منه استقبالا كريمًا ولومًا رفيقًا على انقطاعى.

وكررت الزيارات، وتمكنت بعد عدد منها من الالتقاء بإليزابث مرة أخرى. آه، كم كانت جميلة! كانت تبدو، كما كانت أتمثلها حبيبة لى، كانت جميلة وسعيدة. وتمتعت ساعة كاملة بالجمال البهيج الذى يشعه وجودها، حيتنى بلطف، تحية من القلب، تتسم بالصداقة الأليفة فسعدت بذلك.

أتذكرون الأمسية التى كنت فيها على سطح البحيرة على مرأى المصابيح الورقية، وعلى مسمع الموسيقى، وكيف اختنق إعلانى الحب فى مهده؟ كانت تلك قصة حزينة مضحكة لصبى عاشق ولهان.

أما قصة الرجل الولهان بيتر كامينتسند فهى قصة مضحكة وحزينة على نحو يفوق الأخرى ويزيد عليه.

فقد علمت على نحو غير مباشر أن إليزابث قد خطبت منذ وقت قصير. فهنأتها، وتعرفت بخطيبها، الذى كان قد أتى ليرافقها إلى بعض الشئون، وهنأته هو الآخر، وبقيت طوال السهرة أرسم على وجهى ابتسامة الكريم، ابتسامة كانت تؤرقنى وكأنها قناع. ولكنى فى هذه المرة لم أهرع إلى غابة أو حانة، بل بقيت جالسًا على سريرى، أتطلع إلى المصباح حتى

فاحت منه رائحة دخان كريهة وانطفأ وقد تملكتنى الدهشة والصمت إلى أن أفاق وعيى من جديد. لقد عاد الأمل واليأس يبسطان فوقى أجنحتهما السوداء، حتى تمددت خائر القوى محطم الكيان، وصرت أنوح كالطفل.

وحملت خرجى على ظهرى وذهبت فى الصباح إلى القطار ورحلت إلى البيت. كنت أحس بالحنين إلى تسلق الزينا لبشتوك، وإلى التفكير فى طفولتى وإلى البحث عن أبى وهل ما زال على قيد الحياة.

واستغرب كل منا الآخر. كان الأب قد علا رأسه الشيب كلية، وانحنى ظهره، ولم يعد يتميز بشىء يلفت النظر. عاملنى برقة وخجل، ولم يسألنى عن شىء، وعرض علىَّ أن يترك لى سريره، وبدت زيارتى كأنها أحدثت به من الاضطراب أكثر مما فاجأته. كان أبى لايزال يحتفظ بالبيت الصغير. ولكنه كان قد باع المروج والحيوان، وأصبح يتقاضى ربحًا بسيطًا من البنك، ويقوم من حين لآخر بشىء من العمل البسيط،

فلما تركنى وحدى، ذهبت إلى الموضع الذى كان فيه قديمًا سرير أمى، وأنساب الماضى كنهر عريض هادئ. لم أعد صبيًا بعد، وفكرت فى السنوات وكيف ستنقضى سريعة، وأصبحت أنا كذلك رجلا منكمشًا منحنى الظهر أشيب الشعر وأرقد لأموت الموت المرير. كانت هذه الأفكار تتسم بطبيعة مريحة مهدئة فى الحجرة القديمة الفقيرة التى لم تتغير، التى كنت فيها صغيرًا، وتعلمت فيها اللغة اللاتينية وشاهدت فيها موت أمى. وتذكرت بالشكر والامتنان كل ثراء شبابى،

وخطرت لى قصيدة لورينكو ميديتشى التى حفظتها فى فلورنسا:

مهما كان الشباب جميلا.

فإنه يهرب.

من أراد أن يكون سعيدًا.. فليعلم..

أن الغد ليس من المؤكد.

واندهشت فى الوقت نفسه، لأنى أنقل إلى حجرتى القديمة ببيتنا ذكريات من إيطاليا ومن عالم الفكر الفسيح.

وأعطيت بعد ذلك أبى شيئًا من المال. وفى المساء ذهبنا إلى الحانة وجرى هناك كل شىء كما جرى فى المرة الماضية، مع فارق هو أننى أنا الذى دفعت ثمن النبيذ وأن أبى عندما تكلم عن نبيذ شتيرنفاين وعن الشمبانيا، استشهد بى، وأننى كنت أحتمل من النبيذ أكثر منه. وسألت عن الفلاح الشيخ الذى سكبت على رأسه الأصلع الخمر آنذاك. كان هذا الفلاح ضحوكًا عبقريًا فى النكتة والقفشة، وعلمت أنه مات منذ مدة طويلة، وأن الحشيش بدأ ينمو على نكاته وقفشاته وبواريها، شربت نبيذ الفاتليندر، وأنصت إلى الأحاديث وحكيت قليلا، وعدت مع أبى إلى البيت، وأحسست فى الطريق إلى البيت والقمر طالع، وهو فى النشوة لا يزال يحكى ويلوح، إحساسًا غريبًا سحريًا لم أحسه من قبل. ظلت صور الزمان الخالى تحيط بى: الخال كونراد،روزى جيرتانر، الأم، ريشارد، أليبتى، وظللت أنظر إليها وكأنها مجلد من الصور

الجميلة يعجب الإنسان حياله، بجمال وروعة الأشياء التى به، وهى فى الحقيق لاتصل إلى نصف الجمال المصور. كيف مر كل هذا علىَّ كما تمر النشوة، وكيف انقضى، وأوشك أن يواريه النسيان وظل مع ظلك واضحًا جليًا مسجلا فى نفسى نصف الحياة، محفوظًا فى ذاكرتى دون إرادة منى.

ولم أعد إلى التفكير فى إليزابث إلا بعد أن رجعنا إلى البيت وآوى أبى إلى الفراش ورقد وصمت ونام. حتى الأمس كانت أمامى، وحيتنى، وأعجبت أنا بها، وتمنيت لخطيبها السعادة. ومع ذلك فقد بدا لى كأن وقتًا طويلا انصرم من ذلك الحين. ولكن الألم صحا، واختلط بتيار الذكريات المفزعة، وهز قلبى الأنانى الذى بقى فى السوء هزًا كهز ريح الفون فى كوخ مرتعش منهار بمروج الجبال. ولم أحتمل البقاء فى البيت فخرجت من النافذة المنخفضة واجتزت الحديقة الصغيرة إلى البحيرة وحللت الجندول الذى كان فى حالة سيئة. وجدفت فى سكون إلى داخل شحوب الليل المطبق على البحيرة. وكانت الجبال المحاطة بالغمام الفضى تصمت رائعة حول المكان، وكان القمر المكتمل تقريبًا معلقًا فى الليل الأزرق. وكنت قمة جبل الشفارتسنشتوك قد أوشكت أن تبلغه، كان السكون مطبقًا، حتى أننى استطعت أن أسمع شلال الزينالبشتوك البعيد يبعث خريره الخافت. ومستنى أرواح الوطن وأرواح شبابى بأجنحتها الشاحبة، وملأت جندولى الصغير، ولوحت فى توسل وهى تمد أذرعها، بحركات أليمة غير مفهومة.

ما كان معنى حياتى؟ لماذا مرت على ألوان الفرح وألوان الألم؟ لماذا كنت ظامئًا إلى الحقيقة والجمال، ما دمت إلى الآن ظامئًا؟ لماذا عانيت فى عناد ودموع ما عانيت من حب وآلام بسبب تلكم النساء المرغوبات - أنا الذى أطأطئ الرأس اليوم فى خجل ودموع حول حب حزين؟ ولماذا وضع الله فى قلبى هذا الحنين المتأجج إلى الحب، مادام قد كتب على حياة الوحيدة الذى لاينال من الحب إلا أقله؟

وترقرق الماء مصطدمًا مكتومًا بمقدم الجندول، وتساقط كالفضة من المجدافين، وكانت الجبال تقوم حول المكان قريبة، صامتة، وكان ضوء القمر البارد يتحرك فوق غمام التجاويف الجبلية. ووقفت أرواح شبابى صامتة حولى، تنظر إلىَّ متسائلة، صامتة من عينين عميقتين. وأحسست كأنى أرى بينها إليزابث الجميلة، وكأنها تحبنى وكأنها أصبحت لى، لو أننى ذهبت إليها فى الوقت المناسب.

كذلك أحسست كأنما كان الأفضل لى أن أهوى ساكنًا فى البحيرة الشاحبة فلا يسأل عنى أحد. ومع ذلك فقد جدفت بسرعة أكبر، عندما تبينت أن الجندول القديم بدأ ينفذ الماء، وارتعدت فجأة من البرد وأسرعت لأذهب إلى البيت وإلى السرير. وفى السرير رقدت متعبًا، يقظًا، وفكرت فى حياتى وحاولت أن أتبين ما ينقصنى وما أنا بحاجة إليه، لكى أعيش حياة أكثر سعادة وأصالة ولكى أقترب من قلب الوجود.

كنت أعلم أن نواة كل طيبة وبهجة هى الحب، وأن علىّ برغم ألمى الحديث من إليزابث، أن أحب الناس جادًا. ولكن كيف؟ ومن؟

وخطر ببالى أبى الشيخ، وتبينت لأول مرة أننى لم أحببه قط كما ينبغى أن يكون الحب. كنت كصبى قد نغصت عليه عيشته، ثم بعد ذلك انصرفت عنه، ولما ماتت أمى تركته وحده، وكثيرًا ما اغتظت منه، ثم نسيته فى النهاية. ودفعت نفسى إلى تصوره وقد رقد فى فراش الموت وقد وقفت وحدى يتيمًا عنده، أنظر إلى روحه وهى تجرى، روحه التى ظلت غريبه علىّ والتى لم أسع لحبها قط.

وبدأت لهذا أجرب تعلم الفن الحلو الصعب، على هذا الرجل العجوز الغليظ المدمن بدلاً من أن أجريه عل حبيبة جميلة محوطة بالإعجاب. فلم أعد أرد عليه ردودًا خشنة، واجتهدت فى أن أشغل نفسى به ما استطعت، وتلوت عليه بعض القصص المسلية، وحكيت له عن الكروم، التى تنمو فى فرنسا وإيطاليا وعن النبيذ الذى يتخذ منها ويشرب هناك. ولم أستطع أن أقوم عنه بالشغل القليل الذى كان يقوم به، لأنه إن لم يؤده أحس بالحزن. ولم أستطع أن أعوده على تناول كأس المساء فى البيت معى بدلا من الحانة. ولقد جربنا ذلك بضع مرات، فأعددت النبيذ والسيجار واجتهدت فى تسلية الرجل والترويح عنه. ولكنه فى المرة الرابعة أو الخامسة لزم الصمت وعاند واشتكى لى عندما سألته عما به قائلا: «أظن أنك لاتريد أن تدع أباك يذهب إلى الحانة بعد الآن».

فقلت له: «هذا موضوع لايحتاج إلى كلام. أنت الأب وأنا الابن، وأنت صاحب الأمر والتصريف».

ونظر إلىّ بعينين مضطربتين فاحصتين، ثم تناول قبعته مسرورًا، وذهبنا إلى الحانة معًا.

وكان من الواضح أن بقاءنا معًا مدة أطول شيء لا يروق لأبى، على الرغم من أنه لم يقل عن ذلك شيئًا. وكذلك دفعنى إلى الرحيل إلى أى مكان فى الغربة بحثى عن وسيلة لتهدئة حالتى المنفصمة. وسألت أبى: «ما رأيك إذا أنا رحلت فى هذه الأيام؟» وهرش رأسه وهز كتفيه الناحلتين وابتسم فى لؤم وانتظار ثم قال: هه، كما تريد» وقبل أن أرحل ذهبت إلى بعض الجيران وإلى من بالدير ورجوتهم أن يلاحظوا الرجل المسن مما استطاعوا. وكذلك انتهزت فرصة يوم جميل لتسلق جبل الزينالبشتوك. فلما بلغت رأسه الواسع والنصف دائرى شاهدت الجبال والوديان الخضراء والمياه اللامعة، وغيم المدن البعيدة. كل هذه الأشياء ملأتنى عندما كنت صبيًا بحاجة قوية كنت آنذاك قد خرجت سعيًا لغزو العالم الفسيح الجميل، وهاهى ذى ممتدة مرة ثانية، جميلة وغريبة كما كانت دائمًا، وكنت أنا مستعدًا للسعى من جديد التماسًا لأرض السعادة.

كنت حبًا فى دراساتى قد قررت من زمن طويل أن أذهب لقضاء فترة طويلة من قرية أسيزى. وذهبت أولا إلى بازل حيث أعددت الضرورى للرحلة، وحزمت أمتعتى القليلة وأرسلتها قبلى إلى بيروجا. أما أنا فسافرت بالقطار إلى فلورنسا فقط ثم سرت من

هناك ببطء وهدوء حاجا إلى الجنوب. فى تلك المنطقة لا يحتاج الإنسان إلى فهم أى من الفنون والأفانين ليخالط الناس مخالط ودية. فحياة هؤلاء الناس ظاهرة دائمًا على السطح، وهى بسيطة منطلقة وساذجة، حتى أن الإنسان وهو ينتقل من مدينة إلى مدينة يصادق عددًا كبيرًا من الأهلين بكل بساطة. وأحسست كأنى أنقذت من جديد بعد غرق، وكأننى فى وطنى، وقررت أن ألتمس فيما بعد عندما أعود إلى بازل قرب الحياة الإنسانية لا فى المجتمع الرفيع بل بين الشعب البسيط.

وفى بيروجا وأسيزى أصاب اشتغالى بالتاريخ اهتمامًا وحياة. ولما كانت الحياة اليومية هناك لطيفة لذيذة، فقد بدأ كيانى فى المصاب ينشئ بينه وبين الحياة جسورًا جديدة سريعة، ويقترب من الشفاء، وانعقدت بينى وبين صاحبة البيت فى أسيزى، وكانت امرأة خالصة القلب تقية تعمل بائعة خضر، صداقة وطيدة بعد محادثات بيننا عن القديس فرانشيسكو الأسيزى ألصقت بى سمعة الرجل الكاثوليكى المؤمن. وعلى الرغم من أننى لم أكن أستحق هذه السمعة، فإنها أفادتنى فائدة هى تمكنى من مخالطة الناس مخالطة أكثر عمقًا، لأنها جردتنى من شبهة الكفر التى تعلق بكل أجنبى.

كانت هذه المرأة تدعى أنونسياتا ناردينى. وكانت فى الرابعة والثلاثين، أرملة، ضخمة الجسم، حسنة الأخلاق. كنت أراها كل أحد تلبس فستانًا مزركشًا بهيجًا كثير الزهور وكأنها العيد فى جسم امرأة،

وتتحلى بالحلقان وبسلسلة ذهبية تتدلى على صدرها وفيها مجموعة كبيرة من الميداليات الذهبية الخفيفة تحدث شخشخة. كذلك كانت تحمل معها كتاب الصلاة الثقيل المطعم بالفضة، ولابد من استعماله كان أمرًا عسيرًا عليها، كذلك كانت تأخذ معها مسبحة جميلة حباتها بين سوداء وبيضاء ولها سلسلة صغيرة من الفضة، ولابد أنها كانت تجيد معالجة هذه المسبحة، بقدر عجزها من معالجة كتاب وكانت عندما تجلس فى اللوجيتا، بين صلاتين، وتعدد لجاراتها المعجبات بها خطايا الصديقات الغائبات، يبدو وجهها المدور التقى معبرًا تعبيرًا مؤثرًا عن روح حسنة الصلة الرب.

وكان الناس هناك يسموننى السينتيور بيترو، فقد استحال عليهم التلفظ باسمى. وكنا فى الأمسيات الجميلة الذهبية نجلس معًا فى اللوجيتا الضئيلة ومعنا الجيران والعيال والقطط، أو نجلس فى الدكان بين الفاكهة وسلال الخضراوات وعلب البذور، وأحبال السجق المدلاة، ونتحاكى خبراتنا، ونناقش إمكانات المحصول الجديد، وندخن سيجارًا أو نرتشف شقة من الشمام. كنت أحكى عن القديس فرانشيسكو، وعن قصة كنيسة البورتيونكولا وعن كنيسة القديس، وعن القديس كلارا، وعن الرهبان الأول. كانوا جادين، وكانوا يسألون آلافًا من الأسئلة الصغيرة، ويمتدحون القديس، وينتقلون إلى رواية ومناقشات أحداث جديدة مثيرة، وكانت قصص اللصوص والمنازعات السياسية أحبها إلى قلوبهم. وكانت القطط والعيال والكلاب

الصغيرة تعبث فى هذه الأثناء بيننا وتلعب. وكنت بدافع من الشغف ومن السعى إلى الإبقاء على سمعتى الطيبة، أنقب فى الأسطورة بحثًا عن حكايات مؤثرة فيها موعظة، وكان من حسن حظى أننى أتيت ضمن الكتب القليلة التى أتيت بها معى بكتاب أرنولد «حياة الآباء القدامى وغيرهم من الصالحين»، وكنت أنقل حكاياته اللطيفة بشىء من التحوير إلى اللغة الإيطالية الدارجة. وكان المارة فى الطريق يقفون برهة ويسمعون ويشاركون فى الحديث، وكثيرًا ما كانت الجماعة تتغير أفرادها ثلاث أو أربع مرات، وكنت أنا والسيدة ناردينى الوحيدين اللذين يظلان جالسين لايغيبان إطلاقا. وكنت أضع النبيذ الأحمر فى زجاجة كبيرة بجانبى وأثير دهشة الشعب البسيط المسكين المعتدل فى حياته بكثرة استهلاكى منه. وامتلأت البنات الخجولات فى المنطقة المجاورة تدريجيًا بالثقة، اشتركن فى الحديث من أعتاب بيوتهن، ثم طلبن هدايا من الصور، وبدأن يؤمن بقدسيتى، وبخاصة أننى لم أكن أطلق المزاح والملح ولا أظهر أننى أسعى لكسب ثقتهن وكانت بينهن حسناوات حالمات ذوات أعين واسعة، يظهر أنهن كن ينحدرن من صور بيروجينو. كنت أحبهن جميعًا وكنت أفرح بوجودهن الساذج الطيب، ولكنى لم أهتم بأى منهن، لأن الجميلات كن متساويات فى الجمال، حتى أننى كنت أتصور هذا الجمال على أنه جنس، لا على أنه سمة شخصية. وكثيرًا ما كان يندمج فى مجلسنا ماتيو سبينللى، وهو صبى صغير، ابن المعلم الفران، وكان

يمتاز بنكته وخبثه. كان يستطيع تقليد صوت كثير من الحيوانات، وكان يعرف خبر كل فضيحة تحدث، وكان يمتلئ بنوايا لئيمة وقحة توشك أن تنفجر منه أو تفوح رائحتها الكريهة إلى عنان السماء، كنت عندما أقص الأساطير ينصت إليها بتقى وتواضع لا نظير لهما، ثم ما يلبث بعد ذلك أن يسخر من الآباء الأولياء بأسئلة وتشبيهات واستنتاجات ساذجة خبيثة، فتغتاظ بائعة الفاكهة ويبتهج أغلب الحاضرين ابتهاجًا غير خفى.

وكثيرًا ما كنت أجلس مع السيدة ناردينى وحدى، أستمع إلى أحاديثها الممتلئة بالعظة. وأسعد بأعمالها ونواياها الإنسانية العديدة. ولم يكن يفلت منها خطأ أو إثم فى أحد من المقربين إليها، وكانت ترسم لهؤلاء أماكنهم فى النار مقدمًا. هابطة بمركزهم أشد الهبوط. أما أنا فقد أفسحت لى فى قلبها مكانًا، وكانت تسر إلىّ فى صراحة بأصغر الخبرات والملاحظات التى تعرض لها. كانت تسألنى بعد أن أشترى أى شىء مهما صغر، كم دفعت، وتلتفت إلىّ تنصحنى حتى لا يستغلنى البعض. وكانت تطلب إلىّ أن أحكى سير الأولياء، وتعرفنى بأسرار بيع الفاكهة والخضر والمطبخ. وذات مساء كنا جالسين فى القاعة العليلة وكنت قد غنيت سويسرية وأطلقت زغرودة ألبية مما أدهش البنات والأولاد دهشة كبيرة مبتهجة. وصاروا يتلوون فى فرط السرور ويحاولون تقليد نبرة اللغة الأجنبية، ويبينون لى أن تفاحة آدم ظلت تطلع وتنزل على رقبتى بشكل مضحك أثناء الزغرودة، وبدأ أحدهم فى الحديث عن الحب. وضحكت البنات

باستحياء متكلف، وحولت السيدة نارديني عينيها وتنهدت تنهيدة تحترق بالعاطفة، وأخيرًا انهالوا على الرجاء أن أحكى عن غرامياتى. فلم أحك عن إليزابث، وحكيت عن رحلة الجندول مع البيتى وإعلان الحب الفاشل التعيس، واستغربت أنا نفسى من أننى تناولت هذه القصة التى لم أشر لأحد بكلمة واحدة عنها، إلا ريشارد، وقصصتها على الجماعة الإيطالية المتعطشة إلى الاستماع إليها، وأمامى حارات الجنوب الضيقة الحجرية، والتلال التى كان المساء الأحمر الذهبى يثير العبير فوقها. كنت أقص دون إكثار فى التفكير، على طريقة القصص القديمة، ولكن قلبى كان حاضرًا، وكنت أخشى فى السر أن يضحك المستمعون أو يسخروا منى.

فلما فرغت من القصة، كانت العيون كلها متعلقة بى مواسية حزينة.

وصاحت واحدة من البنات بهمة: «رجل على هذا الجمال! رجل على هذا الجمال، يتعرض لحب تعيس!»

أما السيدة نارديني فقد مسحت بيدها الناعمة البضة على شعرى باحتراس وقالت: «يامسكين!».

وقدمت لى بنت أخرى ثمرة كمثرى كبيرة، فلما رجوتها أن تقضم منها القضمة الأولى فعلت ونظرت إلىّ باهتمام. فلما أردت أن أجعل الآخريات يقضمن كذلك، لم تحتمل وقالت: «لا، كلها أنت، لقد قدمتها إليك هدية لأنك حكيت لنا قصة محنتك!».

وقال رجل أسمر من زراع الكروم: «ولكنك ستحب بلا شك أخرى».

فقلت: «لا».

ـ إنك لاتزال تحب أرمينيا هذه القبيحة؟

ـ أنا الآن أحب القديس فرانشيسكو، وهو قد علمنى أن أحب الناس جميعًا، أنتم وأهل بيروجا وكل الأطفال هنا، وكذلك حبيت ارمينيا.

وبدأ اضطراب معين وخطر يندسان فى هذه الحياة السعيدة البسيطة، فقد اكتشفت أن السنيورة ناردينى الطيبة قد تملكتها الرغبة الشيقة، فى أن أبقى نهائيًا وأتزوجها. وصيرتنى هذه المشكلة الصغيرة إلى دبلوماسى محنك، فلم يكن من اليسير على الإطلاق، تحطيم هذه الأحلام، بدون إفساد الانسجام وتضييع الصداقة اللطيفة، وكذلك كان ينبغى علىّ أن أفكر فى العودة، ولو لم يحركنى حلم كتابى القادم ونقصان المال معى، لبقيت هناك. وربما كنت قد تزوجت السيدة ناردينى بدافع من حافظتى الخاوية. لكن لا، لقد صدنى عن ذلك، ألمى الذى لم يلتئم بعد جرحه، ألمى الذى أصابنى بسبب إليزابث، وشوقى إلى رؤيتها مرة أخرى.

وانضوت الأرملة السمينة، على عكس توقعى، لهذا المسلك الذى لا سبيل إلى تغييره ولم تنتقم منى جزاء الخيبة التى لحقت بها. فلما رحلت، صعب علىّ الوداع أكثر مما صعب عليها. لقد تركت هنا أكثر بكثير مما تركته فى وطنى، ولم يحدث من قبل أن

ضغط على يدى للوداع أناس أحباء بهذه الكثرة، ولا كان الضغط بهذا الود الخالص. وأعطانى هؤلاء الناس الفاكهة والنبيذ وخمر الأشنبص والخبز والسجق معى فى القطار، وأحسست إحساسًا غير عادى، بأننى أنفصل عن أصدقاء لم يكن يستوى فى نظرهم أن أبقى أو أن أرحل. أما السيدة أنونسياتا ناردينى فقد طبعت على خدى قبلتين مودعة وكان الدمع يترقرق فى مآقيها.

كنت فيما مضى أعتقد أن ثمة متعة غير عادية فى أن يكون الإنسان محبوبًا، دون أن يكون هو محبا. ولقد تعلمت الآن مدى الإيلام فى هذا الحب الذى يعرض ولا يستطيع الإنسان أن يستجيب له. ومع ذلك فقد كنت فخورًا إلى حد ما؛ لأن امرأة غريبة أحبتنى وتمنتنى زوجًا لها.

كان هذا القسط من الغرور يعنى شيئًا من الشفاء بالنسبة إلىَّ. لقد أسيت ناردينى، ولكنى لم أتمن لو لم يحدث ماحدث. كذلك تبينت بالتدريج وعلى نحو متزايد، أن السعادة لا شأن لها بتحقق رغبات خارجية إلا قليلاً، وأن آلام الشبان العاشقين مهما اشتدت، تفتقر إلى عنصر المأساة تمامًا. لقد تألمت لأننى لم أستطع أن أنال إليزابث. ولكن حياتى وحريتى وعملى وتفكيرى، كل هذه الأشياء ظلت كما هى لم تنقص، وظل فى مستطاعى أن أحبها من بعيد كما كنت أفعل، وعلى القدر الذى يحلو لى. كانت هذه الأفكار، وأكثر منها، كانت البهجة الساذجة لحياتى أثناء الشهور التى قضيتها فى المنطقة الأومبرية،

مجلبة لشفاء عظيم لنفسى، كنت منذ القدم ذا عين تبصر بالأشياء المضحكة وتلتقط القفشات، ولكنى كنت أفسد على نفسى هذه البهجة باسترسالى فى التهكم، وبدأ بصرى بالتدريج يتفتح على فكاهة الحياة، وبدا لى من الممكن السهل أن أتصالح مع نجومى وأن أمنح نفسى هذه أو تلك من اللقم الجميلة على مائدة الحياة.

والإنسان بطبيعة الحال عندما يعود من إيطاليا إلى موطنه، يتصرف التصرف التالى. فهو أولا يسخر من المبادئ ومن الأحكام السابقة ويبتسم عن تفهم للأخطاء، ويضع يديه فى جيبى «البنطلون» ويتصور نفسه فنانًا محنكًا من فنانى الحياة. فقد أمضى الإنسان فترة فى حياة الشعب الدافئة اللطيفة بالجنوب وسبح معه وإذا به يفكر فى أن الأمور ينبغى أن تسير فى الوطن على هذا النحو نفسه. هذا هو ما كان يحدث لى عند عودتى من إيطاليا، وهذا ماحدث لى فى تلك المرة بأكبر قدر. فعندما عدت إلى بازل ووجدت الحياة هناك كما هى قديمة جامدة لم تزدد شبابًا ولم تتغير، نزلت من أعالى بهجتى الدرجة تلو الدرجة. صامتًا مغضبًا. ولكن شيئًا مما اكتسبته ظل يعمل فى نفسى ومنذ ذلك الحين لم تسر سفينة حياتى فى مياه صافية أو عكرة مطلقًا دون أن تلوح على الأقل براية صغيرة مزركشة تلويحًا فيه الجسارة والثقة معًا.

ثم أن أفكارى فيما عدا هذا قد تغيرت تدريجيًا، فقد أحسست دون أسف شديد، بأننى كبرت على

سنوات الشباب، وبأننى أسير نحو أوقات، يتعلم الإنسان فيها أن يعتبر حياته مسافة قصيرة من طريق، وأن يعتبر نفسه فيها كالمسافر الذى لاتؤثر سفراته ولا ضياعه فى الدنيا أثرًا كبيرًا، ولا تشغلها بحال، الإنسان يتمسك بهدف فى الحياة، بحلم محبب إلى النفس، ولكن لا ينبغى أن يتصور الإنسان نفسه كشىء لا محيص عنه، وعليه أن يمنح نفسه فى الطريق من حين لآخر فترات عطلة دون وخز ضمير يتأخر فيها مسافة يوم، فيرتمى على الحشيش الأخضر، ويغنى شيئًا من نشيد ويسعد بالحاضر المحبوب دونما أفكار منغصة خفية. ولقد كنت أنا دون أن أكون قد صليت إلى زرادشت من قبل قط. إنسانًا سيدًا، وتماديت فى تعظيم نفسى وفى احتقار من هم دونى، وإذا بى أرى بالتدريج وعلى نحو متزايد الوضوح، أنه ليست هناك حدود ثابتة وأن الوجود فى دائرة الصغار المظلومين والفقراء فى مثل تنوع الوجود فى دائرة المحظوظين اللامعين، بل أكثر تنوعًا، وأكثر دفئًا وصدقًا ونموذجية ثم أننى وصلت بازل فى الوقت المناسب بالضبط، لأحضر السهرة الأولى فى بيت إليزابث التى تزوجت فى تلك الأثناء. كنت سعيدًا، ما أزال أحمل نضارة وسمرة الرحلة، وكنت معبأ بكمية من الذكريات البهيجة الصغيرة، وتكرمت علىَّ المرأة الجميلة فشرفتنى بثقة رقيقة وتبسط، وظللت طوال السهرة سعيدًا بحظى الذى وفر علىَّ آنذاك ملامة التقدم فى وقت متأخر لخطبة فتاة قد خطبت بالفعل. وكنت على الرغم من خبرتى الإيطالية ما أزال

أنظر إلى النساء بشىء من عدم الثقة، وأتصور أنهن يتمتعن متعة فظيعة بالآلام اليائسة التى تصيب الرجال الذين يقعون فى غرامهن. وكنت أوضح مثل هذا الوضع المزرى الأليم توضيحًا مسرف الحيوية بقصة قصيرة من حياة التلاميذ الصغار، سمعتها قديمًا من فم تلميذ فى الخامسة من عمره. كانت المدرسة التى يذهب إليها تسود فيها العادة الغريبة الرمزية التالية. إذا ارتكب تلميذ حماقة شديدة جدًا وتقرر عقابه بعلقة، كانت ست بنات صغيرات يؤمرن بالإمساك بالصبى الذى يحاول التملص، وإرقاده على الدكة فى الوضع المطلوب للعلقة، ولما كان التصريح للبنات بإمساك المشاغب، يعتبر متعة وشرفًا عظيمًا، فقد جعل الاشتراك فى هذه المتعة الفظيعة مقصورًا على ست بنات هن أحسن البنات أخلاقًا وأكثرهن ممارسة للفضيلة. ولقد شغلتنى هذه القصة المضحكة، بل وتسللت مرات إلى أحلامى، حتى علمت على الأقل من الأحلام، مدى بؤس الإنسان إذا تعرض لهذا الوضع.

الفصل السابع

لم أكن أنا شخصيًا لعملى الأدبى الاحترام. لا فيما مضى ولا الآن. كنت أستطيع الحياة من عملى، وأن أوفر شيئًا من المال، وأن أرسل إلى أبى من حين لآخر مبلغًا، وكان أبى يحمل ما أرسله إليه من مال إلى الحانة مسرورًا، ويغنى هناك أغنية المديح لى بكل النغمات والمقامات، بل أنه فكر فى أن يؤدى إلىّ خدمة فى مقابل ما أرسله إليه. وكنت قد قلت له مرة فى حديث عابر إننى غالبًا ما أكسب لقمة العيش من كتابة مقالات للصحافة. وأعتقد أننى محرر أو مراسل، مثل أولئك الذين يعملون فى الصحف المحلية القروية، وأملى على بعضهم ثلاثة خطابات أبوية إلىّ أخبرنى فيها بأحداث لاحت له مهمة وأعتقد أنها ستكون مادة لمقالاتى وكسبًا ماديًا لى. فى أحد الخطابات يتحدث عن جريق فى شونة، وفى آخر عن سقوط بعض السياح من سفح الجبل، وفى الثالث عن نتيجة انتخاب العمودية. كانت أخباره هذه مكتوبة

بأسلوب صحفى مضحك، وأثلجت صدرى؛ لأنها كانت آية على اتصال ودى بينه وبينى، ولأنها كانت الخطابات الأولى التى تصلنى من الوطن منذ سنين. كذلك أسعدتنى هذه الخطابات، لأنها كانت تمثل سخرية غير مقصودة من عملى الأدبى، فقد كنت فى كل شهر أناقش كتابًا تتضاءل قيمته ونتائجه بالقياس إلى هذه الأحداث القروية.

وظهر فى هذا الوقت كتابان لمؤلفين، كنت قد عرفتها فى زيورخ قديماً كائنين من الشباب المهووس المشتغل بالشعر الغنائى. كان أحدهما يعيش فى برلين ويعرف كيف يصف الكثير من الأشياء القذرة التى تحدث فى مقاهى ومواخير المدينة الكبيرة. وكان الثانى قد ابتنى فى المنطقة المحيطة بميونخ صومعة منعزلة فاخرة وكان يترنح فيها بين تأملات ذاتية عصبية واهنة واستثارات روحانية، فى ازدراء ويأس، وكان علىّ أن أناقش الكتابين وبالطبع سخرت من الكتابين معا بكل بساطة. أما الكاتب العصابى فقد أرسل إلىّ خطابًا زريا مكتوبًا بأسلوب يحاكى بالفعل أسلوب الأمراء. وأما البرلينى فقد أثار فى إحدى المجلات فضيحة، وقال إنه تعرض لإنكار إرادته الجادة، استشهد بزولا ولامنى على نقدى المجرد من الفهم، ولام الفكر السويسرى كله وقال عنه إنه موهوم وأنه يفتقر إلى مقومات الشعر. ويبدو أن الرجل أتيحت له فى زيورخ فى ذلك الوقت الفترة السليمة اللائقة الوحيدة نوعًا ما فى حياته الأدبية كلها.

والحق أننى لم أكن وطنيًا على نحو بارز خاص، ولكن طريقة هذا الأديب البرلينى كانت فى نظرى قد تعدت الحدود، فأجبت على الكاتب الغاضب برسالة طويلة، لم أخف فيها احتقارى للاتجاه العصرى المدعى فى المدينة الكبيرة.

وقد أحسن هذا الشجار إلىّ، ودفعنى إلى التفكير من جديد فى رأيى عن الحياة الثقافية الحديثة. كان ذلك عملا جهيدًا طويلاً، ولكنه توصل إلى نتائج غير مفرحة على خط مستقيم. وكتابى هذا لا يخسر شيئًا إن أنا مررت على هذه النتائج دون أن أتعرض لها.

واضطرتنى هذه التأملات فى الوقت نفسه إلى التفكير فى نفسى وفى عمل العمر الذى خططت له، تفكيرًا أكثر عمقًا وإلحاحًا.

كنت، كما هو معروف، آمل أن أصنف كتابًا أدبيًا كبيرًا أقرب فيه إلى الناس فى هذه الأيام حياة الطبيعة العظيمة الصامتة، وأحببهم فيها. كنت أريد أن أعلمهم أن ينصتوا إلى خفقة قلب الأرض، وأن يشتركوا فى حياة الكل المتكامل وألا ينسوا فى زحمة مصائرهم الخاصة الصغيرة، أننا لسنا آلهة، وأننا لم نخلق أنفسنا بأنفسنا، بل أننا أبناء وأجزاء الأرض والكل الكونى. كنت أريد أن أذكر الناس بأن الأنهار والبحار والسحب الزاحفة والعواصف مثلها مثل أغنيات الشعراء وأحلام الليالى، رموز وحملة الحنين الذى يبسط جناحيه بين السماء والأرض يهدف إلى اليقين الذى لايزعزع من حق المواطن واليقين الذى

لايزعزع من خلود كل ما هو حى. وإن النواة الداخلية العميقة فى كل كائن على يقين من هذه الحقوق، فهى خلقة الله، وهى ترقد دونما خوف فى حجر الأبدية. أما عنصر السوء والمرض والفساد الذى فينا عنصر المعاندة وهو الذى يؤمن بالموت.

كذلك كنت أريد أن أعلم الناس أن يلتمسوا فى الحب الأخوى للطبيعة منابع الفرحة وتيارات الحياة. كنت أريد أن أدعو إلى فن المشاهدة والتجول والتمتع، وإلى الابتهاج بما هو حاضر. وكنت أريد أن أجعل الجبال والبحار والجزر والخضراء تتحدث إليكم بلغة قوية خلابة، وكنت أريد أن أجبركم على أن تروا الحياة النشيطة المنوعة إلى أقصى درجات التنوع والتى تضطرب خارج حدود بيوتكم ومدنكم كل يوم فتزدهر وتفيض فيضًا. كنت أريد أن أصل بكم إلى أن تخجلوا من أنكم تعرفون عن الحروب الأجنبية وعن الموضة وعن اللغو والغيبة وعن الأدب والفنون، أكثر مما تعرفون عن الربيع الذى يتفتق أمام مدائنكم بنشاط منطلق وعن النهر الذى ينساب تحت كباريكم، وعن الجبال والمروج الرائعة التى يجرى فيها قطاركم. كنت أريد أن أحكى لكم عن سلسلة ذهبية من متع لاتنسى وجدتها أنا الوحيد الثقيل فى هذه الدنيا، وكنت أريد منكم، وربما كنتم أكثر سعادة وابتهاجًا منى، أن تكتشفوا هذه الدنيا ببهجة أكثر وأعظم من بهجتى.

وكنت أريد قبل كل شىء آخر أن أزرع فى قلوبكم سحر المحبة الجميل. وكنت آمل فى أن أعلمكم أن

تكونوا لكل حى أخوة بمعنى الكلمة وأن تمتلئوا بالحب حتى لاتخافوا الألم ولا تخافوا الموت، بل تستقبلونهما فى جد وإخاء أخوين جادين لكم عندما يحلان بكم.

ولم أكن آمل أن أقص عليكم هذا كله فى شكل أناشيد وأغان رفيعة. بل كنت آمل أن أعرضه عليكم بسيطًا حقيقيًا موضوعيًا، جادًا مازحًا معًا، كما يفعله العائد من رحلة عندما يحكى لرفاقه عما شاهد فى الخارج.

كنت أريد كنت أتمنى.. كنت أمل.. تلك عبارات مضحكة بلا شك! كنت ما أزال أنتظر اليوم التى تتخذ فيه هذه الرغبات شكل الخطة. ولكنى كنت مشغولا بالجمع، ولم أكن أجمع فى رأسى فحسب، بل أجمع فى كمية من الكراسات الصغيرة، التى كنت أحملها معى فى الحقيبة أثناء رحلاتى وجولاتى، وأملأ واحدة منها كل عدة أسابيع. كنت أسجل باقتضاب مذكرات عن كل ما يلوح للعين فى الدنيا، دونما تفكير أو ربط. كانت تلك الكراسات شبيهة بكراسات تخطيطات الرسامين، وكانت تحتوى على أشياء واقعية بحتة فى كلمات قليلة: صور من الحارات والطرق الزراعية، مناظر طلية للجبال والمدن، أحاديث فلاحين تصنت عليهم من حيث لا يعلمون، صبية يتعلمون الحرف، نسوة الأسواق، وكذلك قواعد المناخ، ملاحظات عن الإضاءة، رياح، أمطار، أحجار، نباتات، حيوان، طير الطيور تشكيلات الأمواج، تشكيلات ألوان البحر، وأشكال السحب. وكنت من حين إلى آخر أشتق منها

قصصًا قصيرة وأنشرها، على اعتبار أنها دراسات للطبيعة أو التجول، وكانت كلها لا تتصل مطلقًا بما هو إنساني. كانت قصة شجرة أو حياة حيوان أو رحلة سحابة مادة مهمة لطيفة بما فيه الكفاية بدون إضافة عناصر إنسانية.

وقد خطر ببالي مرارًا أن عملاً أدبيًا لا يظهر فيه بشر على الإطلاق، عمل مستهجن ومحال، ولكني تعلقت لسنوات عديدة بهذا المثل الأعلى وأملت أملا غامضًا في أن أنال إلهامًا عظيمًا يقضي على هذا الاستهجان والاستحالة. وأخيرًا فهمت في النهاية، أنه ينبغي عليَّ أن أعمر مشاهدي الطبيعة الجميلة ببشر، وتبينت أن هذه الشخصيات البشرية لن يمكنني أن أصورها بما يكفي من الطبيعة والصدق. كان هذا العمل يعني أنه ينبغي عليّ أن أعوض الكثير مما فاتني فقد كان البشر بالنسبة إليَّ حتى ذلك الحين شيئًا واحدًا في مجموعهم، شيئًا غريبا عليّ في أساسه تمامًا. ولقد تعلمت حديثًا أنه من المجدي أن أنصرف عن الإنسانية المجردة، وأتعرف بالدرس على الأفراد، وبدأت كراساتي وذاكرتي تمتلئ بصور جديدة مختلفة تمام الاختلاف.

كانت بداية هذه الدراسة بداية ناجحة مفرحة. فقد خرجت عن استهانتي الساذجة بالناس وأصبت اهتمامًا ببعض الناس. واكتشفت أن هناك أشياء بديهية كثيرة ظلت غريبة تمامًا عني، وكذلك اكتشفت كذلك أن كثرة التجوال والنظر قد فتحت عيني

وزادتهما حدة. ولما كنت منذ الأزل أحس بحب خاص يجذبنى إلى الأطفال، فقد اهتممت بالأطفال اهتمامًا متزايدًا متسمًا بالميل والحب.

على أن ملاحظة السحب والأمواج كانت أكثر مجلبة للبهجة لى من دراسة البشر. ورأيت بالدهشة أن الإنسان يتميز عما عداه من كائنات الطبيعة بالكذب الذى يحيطه ويسنده بمادة هلامية. ولاحظت فى كل معارفى بعد قليل الظاهرة نفسها ـ وهى نتيجة لأن كل شخص يضطر إلى تمثيل هيئة واضحة، دون أن يعرف ذات نفسه. واكتشفت الشىء نفسه وأنا أتأمل نفسى، فتملكتنى إحساسات غريبة، وانصرفت عن التغلغل فى الأشخاص إلى ذوات نفوسهم، وجدت فى حالة أغلب الأشخاص أن المادة الهلامية التى يتسورون بها أكثر أهمية. ووجدت هذه المادة الهلامية فى كل الأحوال حتى لدى الأطفال الذين يفضلون فى كل الأحوال بطريقة شعورية أو غير شعورية أن يمثلوا دورًا، على أن يعلنوا عن أنفسهم بوضوح وفطرة.

ولاح لى بعد قليل أننى لم أعد أحرز تقدمًا، وأننى أتوه فى تفصيلات. وبدأت بالبحث عن العيب فى نفسى، ثم لم أستطع بعد ذلك أن أخفى تورطى فى الخطأ، وأتأكد من أن بيئتى المحيطة بى لا تقدم إلى الناس الذين أبحث عنهم. لم أكن أبحث عن أشخاص يلفتون النظر ويثيرون الاهتمام، بل كنت أبحث عن أنماط بشرية، ولكن طبقة الأكاديميين وطبقة الناس الذين يختلفون على مجالس السهرات

الراقية لاتقدم لى مطلبى. وفكرت فى إيطاليا، وفكرت بحنين فى الأصدقاء الهائمين فرادى.. رفاق رحلاتى الكثيرة التى قمت إلى سيرًا على الأقدام.. الشباب الذين يرحلون من مكان إلى مكان سيرًا على الأقدام لتعلم الحرف. كنت قد اشتركت مع كثير من هؤلاء الشباب فى رحلاتى، ووجدت أن فيهم كثرة ممتازة.

لم يكن من المجدى أن أتخذ فنادق الجوالة وطنًا وألتمس بعض الخمارات الغليظة. لم تكن غالبية الجوالة الأشقياء تفيدنى فى شىء.. وهكذا بقيت فترة فى حيرة من أمرى، وركزت دراساتى على الأطفال، وأكثرت من ارتياد الحانات ومن دراسة من بها، ولم أجد فيها بطبيعة الحال ضالتى. وأتت عدة أسابيع حزينة، فقدت فيها الثقة بنفسى، ووجدت آمالى وتمنياتى مسرفة إلى حد يثير الضحك. وتجولت فأكثرت التجول فى العراء. وأمضيت أنصاف الليالى لدى الخمر وأنا أفكر.

وكانت الموائد عندى فى ذلك الوقت تعج بالكتب، التى ارتفعت إلى تلال، وكنت أود أن أحتفظ بها، وألا أقذف بها إلى باعة الكتب القديمة، ولم تكن فى دواليبى فسحة لجديد. ولهذا ذهبت إلي ورشة صغيرة للنجارة ورجوت المعلم النجار أن يأتى إلى مسكنى ويأخذ مقاييس رف للكتب كى يصنعه لى.

وأتى المعلم، وكان رجلا قصيرًا القامة، بطىء الحركة، فى طباعه تؤدة، فقاس المكان، وركع على الأرض، ومد المقياس إلى السقف، وكان هناك شىء

من رائحة الغراء يفوح منه، وسجل بعض الأرقام فى مذكرته، وحدث بطريق المصادفة، أن أدت بعض حركاته إلى الاصطدام بكرسى محمل بالكتب. فوقعت بعض المجلدات وانحنى هو ليلتقطها. وكان بين المجلدات قاموس صغير للغة صبيان الحرف، وهو كتاب صغير مجلد بالكرتون يجده الإنسان فى كل فنادق صبيان الحرف الجوالة الألمانية، وهو كتاب جيد التصنيف مسل.

فلما رأى النجار هذا الكتاب الصغير الذى يعرفه خير المعرفة، رفع إليه بصره مندهشًا، وقد أخذته البهجة والريبة معًا.

وسألته: «ماذا بك؟».

«بعد إذنك، لقد رأيت كتابًا أعرفه. هل درست هذا الكتاب فعلا؟».

فأجبته بقولى: «لقد تعلمت لغة صبيان الحرف هذه فى الطرق الزراعية. وأنا أحب أن أقلب فى هذا الكتاب بحثًا عن معنى كلمة أو عبارة».

فصاح: «يا للعجب. فهل قمت أنت نفسك مرة بجولة كصبى يلتمس تعلم حرفة؟».

وقلت: «ولكن ليس بالضبط بالمعنى الذى تقصده لقد تجولت كثيرًا وقضيت الليل فى بعض فنادق صبية الحرف مرات ليست بالقليلة».

وكان فى تلك الأثناء قد رتب الكتب من جديد وتأهب للانصراف.

وسألته: «وأين كان تجوالك أيام كنت صبيًا تتجول لتعلم الحرفة»؟

فقال: «من هنا إلى كوبلنتس ثم فيما بعد إلى جنيف فى الطريق الآخر. ولم يكن ذلك الوقت أسوأ أوقات حياتى».

«هل دخلت السجن عدة مرات كذلك؟».

«لا، مرة واحدة فقط، فى دورلاخ».

«فلا بد أن تحكى لى قصة هذه المرة، إن لم يكن لديك مانع. هل توافق على أن نلتقى مرة إلى كأس من شراب؟».

«لست أحب ذلك كثيرًا ياسيدى. ولكن إذا شئت أن تمر علىَّ مرة بعد فراغى من عملى اليومى، لتسأل كيف الحال؟ كيف الصحة؟ فلا بأس. على ألا تثقل علىَّ ولا تعذبنى».

ومضت أيام، وكان مساء من أمسيات إليزابث التى تستقبل فيها الضيوف، وبقيت فى الشارع واقفًا، أفكر فيما إذا كان الأفضل أن أذهب إلى النجار. وغيرت اتجاهى، وتركت ثوب السهرة فى البيت وزرت النجار. كانت الورشة قد أقفلت وأظلمت، وسرت بخطى متعثرة خلال حوش مظلم ثم فناء ضيق، وارتقيت السلم المتخذ فى آخر البيت، وظللت أبحث فوق وتحت إلى أن وجدت على باب لافتة باسم المعلم النجار، ودخلت، فإذا بى أعبر مطبخًا صغيرًا جدًا، كانت فيه امرأة نحيفة تعد طعام العشاء وترعى فى الوقت نفسه ثلاثة أطفال كانوا يملئون المكان الصغير

بالحياة والصخب الشديد. وقادتنى المرأة مندهشة إلى الحجرة المجاورة، وكان النجار يجلس فيها إلى النافذة التى توشك أن تكون مظلمة، ويمسك جريدة، وتبرم الرجل فى قلق، لأنه لم يرنى فى الظلام واعتقد أننى عميل لحوح، ثم ما لبث أن عرفنى وحيانى.

ولما وجدته مندهشًا من المفاجأة مرتبكًا، تحولت إلى الأطفال، فهربوا منى إلى المطبخ. فتبعتهم إلى هناك. وهناك رأيت المرأة منهمكة فى إعداد الأرز، وفصحت فى نفسى ذكريات مطبخ صاحبة البيت الإيطالية، واشتركت مع المرأة فى الطهى. والناس عندما يفسدون الأرز الجميل عندما يطهونه بلا ضمير، ويحولونه إلى ما يشبه العجينة التى لا طعم لها والتى لا تسيغ للأكل للزوجتها المنفرة، وكانت هذه المصيبة نفسها توشك أن تحدث هنا أيضا، واستطعت فى آخر دقيقة أن أنقذ الوجبة، بأن أسرعت إلى حلة ومقصوصة من آنية المطبخ، وقمت أنا شخصيًا بعملية الطبخ، وتركتنى المرأة أفعل وقد استبدت بها الدهشة ونجح الأرز وحملناه إلى المائدة، وأشعلنا المصباح، ونلت أنا أيضًا صحنا.

وجرت زوجة النجار لسانى فى هذا المساء إلى أحاديث مطولة على مسائل الطبخ ولم يتمكن زوجها من الاشتراك بكلمة تقريبًا. وهكذا أجلنا قصة مغامرات تجواله إلى مرة قادمة. وأحسن هؤلاء الناس الطيبون بأننى فى ظاهرى من السادة ولكنى فى الحقيقة واحد من أبناء الشعب الفقير، ابن فلاح.

وهكذا تصادقنا منذ الليلة الأولى واتصلت الثقة فيما بيننا. وكما وجدوا هم فى انسانًا مساويًا لهم، كذلك أنا شممت فى هذا البيت الفقير رائحة وطنى ورائحة من هم فى رقة من الحال. لم يكن عند هؤلاء الناس وقت لاصطناع العبارات والحركات الرقيقة، ولاتخاذ الأوضاع التمثيلية، ولتمثيل المهازل، كانت الحياة الخشنة الفقيرة المجردة من غطاء الثقافة والاهتمامات العليا محببة إلى نفوسهم، وكانت عزيزة عليهم لدرجة أنهم لا يفكرون فى تغطيتها بعبارات منمقة.

وتكررت زياراتى للنجار ونسيت لديه كلفى بسهرات المجتمع، ونسيت علاوة على ذلك أحزانى وآلامى، وأحسست كأنى أجد هنا قطعة من طفولتى باقية لى، واستأنفت هنا الحياة التى قطعها على آباء الدير قديمًا، عندما أرسلونى إلى المدارس.

وأكب النجار على خريطة مهلهلة مصفرة من العرق قديمة العهد، وتتبع معى رحلاته ورحلاتى، وفرحنا بكل بوابة وبكل حارة كنا نعرفها كلانا، واستعدنا نكت صبية الحرف الجوالة بل وغنينا ذات مرة عددًا من أغانى صبية الحرف التى لا يأتى الزمان عليها. وكنا نتحدث عن مشاكل الحرفة، والبيت، وعن الأطفال وعن أمور المدينة، وتحول الأمر بالتدريج وتبادلنا الأدوار، فأصبحت أنا الشاكر الممتن، وأصبح هو المعلم صاحب العطاء، وأحسست أنا أتنفس الصعداء أننى هنا محاط بالوقائع الحقيقية، لابأنغام الصالون.

ولفت نظرى من بين أولاد النجار بنته التى كانت تبلغ من العمر خمس سنين، والتى كانت تتميز بضعف ورقة. كان اسمها انجنس، وكانوا ينادونها باسم «أجى» كانت شقراء الشعر، شاحبة، ذات أطرف هزيلة، وعينين واسعتين متخوفتين، وكان تتسم فى كيانها بخجل لطيف هادئ. وفى يوم من أيام الآحاد، ذهبت لآخذ الأسرة إلى نزهة فعلمت أن أجى مريضة، وبقيت أمها معها، وذهبنا نحن إلى المدينة فى نزهة بطيئة الخطى كالحج. وجلسنا وراء سانت مارجريته على مقعد، وجرى الأولاد وراء الأحجار والأزهار والحشرات، أما نحن - الرجلين - فرحنا نتأمل المروج فى حلتها الصيفية، وننظر إلى مقابر بيننجر، وإلى تيار نهر اليورا الجميل المزرق. كان النجار متعبًا ومنقبضًا وساكنًا، وبدا لى كأن به همومًا.

فسألته: «ماذا بك يا معلم؟». كان الأولاد بعيدين عنا. ونظر هو فى وجهى تائهًا حزينًا.

وبدأ يتكلم: «ألم تر ما يوشك أن يحدث؟ أن أجى موشكة على الموت. وأنا أعرف هذا منذ مدة طويلة، وإنما يدهشنى أنها بلغت هذا العمر، لقد كان الموت دائمًا فى عينيها، أما الآن فلابد أن نؤمن بأنه وشيك».

ورحت أواسيه.. ثم مالبثت أن سكت من تلقاء نفسى.

وضحك حزينًا وقال: «أرأيت. أنك أنت نفسك لا تعتقد أن البنت ستشق طريقها إلى الحياة. وأنا لست من المصلين، لا أذهب إلى الكنيسة إلا فيما ندر،

ولكنى أحس بأن الله يريد الآن أن يكلمنى كلمة صغيرة. والحقيقة أنها طفلة صغيرة، وأنها لم تكن صحيحة الجسم مطلقًا. ولكن يعلم الله، لقد كانت أحب إلىَّ من الآخرين جميعًا».

وأتى الأولاد عدوًا يهللون ويسألوننى أسئلة كثيرة، وأحاطوا بى ليعرفوا منى أسماء الزهور والحشائش، وطلبوا فى النهاية منى أن أحكى لهم قصصًا. فقصصت عليهم عن الزهور والأشجار والخمائل، وأن لها مثل الأطفال جميعًا روحًا وملاكًا. وكذلك أنصت الأب إلى قصتى، وابتسم وكان من حين لآخر يؤيدنى بكلمة خافتة. ورأينا الجبال تزداد زرقة. وسمعنا أجراس المغرب فعدنا إلى البيت.

كانت المراعى تعلوها نسمة من الليل محمرة، وكانت أبراج الكنيسة البعيدة ترتفع صغيرة رقيقة إلى الهواء الدافئ، وبدأ لون الصيف الأزرق فى السماء يتحول إلى لون جميل ذهبى مخضر، وكانت الأشجار تلقى ظلالا طويلة. كان الأولاد الصغار متعبين ساكنين، وكانوا يفكرون فى ملائكة أزهار الخشخاش والقرنفل الجريس، بينما كنا نحن الكبار نفكر فى الصغيرة آجى، التى كانت روحها تتهيأ لتتلقى أجنحة لتتركنا نحن الزمرة الصغيرة الخائفة.

وسارت الأمور على نحو طيب فى الأسبوعين التاليين، ولاحت البنت كأنها تتماثل للشفاء، وكانت تستطيع مغادرة الفراش لساعات، وكانت هى راقدة على مخدتها الباردة تبدو أكثر جمالاً وسعادة عن ذى قبل. ثم أعترتها ليال من الحمى وتبينا دون أن نتكلم

أن الطفلة ستظل ضيفة علينا مدة لعلها الأسابيع ولعلها الأيام. ولم يتكلم الأب عن ذلك إلا مرة. كان ذلك فى الورشة، ورأيته يبحث فى المخزون من الألواح وعلمت من تلقاء ذاتى. أنه يبحث عن قطع تصلح لصنع نعش للطفلة.

وقال لى: «لابد أن الواقعة ستقع قريبًا، والأفضل أن أضعه وحدى بعد أن تنتهى الورشة من العمل اليومى».

كنت أجلس على منضدة المسح بالفارة، وكان هو يعمل على المنضدة الأخرى. فلما فرغ من مسح الألواح بالفارة، أرانى إياها بشىء من الفخار. كان الخشب خشب موسكى جميل نما فى شجرته نموًا صحيحًا. وخرج مجردًا من كل عيب.

وقال: «ولست أريد أن أدق فيه مسمارًا، بل أريد أن أبيت الأجزاء بعضها فى بعض شحطا، حتى تكون الصناعة جميلة متينة. والآن كفى ما عملته، هيا بنا نصعد إلى زوجتى».

ومرت الأيام، أيام صيف جميلة رائعة، وكنت كل يوم أقضى ساعة أو ساعتين عند الصغيرة أجى، فأحكى لها عن المراعى الجميلة والغابات. وأمسك يدها الصغيرة الضئيلة الخفيفة فى يدى العريضة، وامتص بكل روحى الطلاوة الحبيبة المشرقة التى ظلت حتى اليوم الأخير حائمة حولها.

وفجأة هببنا مذعورين حزانى، ورأينا كيف جمعت الصغيرة قواها مرة أخيرة لتصد الموت القوى،

فغلبها بسرعة وبسهولة. كانت الأيام ساكنة قوية، أما الأب فتمدد على السرير وودع ابنته مائة مرة، ومسح على شعرها الأشقر، وداعب حبيبته الميتة.

وتبع احتفال قصير بسيط بالدفن، وتبعت الأمسيات الحزينة التى كان الأولاد فيها يلتصقون بعضهم ببعض فى السرير ويبكون. ثم جاءت زياراتنا الجميلة للمقابر حيث زرعنا على القبر الجديد النبات، وجلسنا على مقعد معا دون أن نتكلم، ننظر إلى الخضرة الباردة، ونفكر فى آجى ونتأمل الأرض بعين أخرى، ففيها حبيبتنا راقدة، ونتأمل الأشجار والحشائش التى نمت فوقها، ونتأمل الأطيار التى كانت تملأ المقابر الهادئة بأنغام شدوها سعيدة منطلقة لايعوقها عائق.

وما لبث يوم العمل الجاد أن عاد إلى مجراه، وعاد الأطفال إلى غوغائهم وصخبهم وضحكهم، وطلبوا الاستماع إلى قصص، وتعودنا دون أن نلحظ على ألا نرى آجى الحبيبة أبدًا، وعلى أن لنا فى السعادة ملاكًا جميلا صغيرًا.

وفى أثناء هذا كله أهملت سهرات العلامة ولم أزر سهرات إليزابث إلا مرات قليلة. وكنت فى خلالها أحس بالحيرة والانقباض على نحو غريب أثناء تيارات المحادثات الدافئ، وذهبت الآن إلى البيتين فوجدتهما أغلقا أبوابهما وانتقل أهلهما إلى الريف منذ مدة طويلة، وتبينت فجأة بدهشة أننى كنت قد نسيت أن الوقت هو فصل الصيف الحار وفصل الإجازات،

نسيت هذا لانهماكى فى صداقة أسرة النجار وفى مرض ابنته. وكنت من قبل لا أستطيع بحال من الأحوال أن أبقى خلال يوليو وأغسطس فى المدينة.

وودعت الأصدقاء لغيبة قصيرة وقمت برحلة سيرًا على الأقدام عبر الغابة السوداء. وبيرجشتراسه وأودنفالد وكنت فى الطريق أجد متعة غير عادية فى إرسال بطاقات مصورة من الأماكن الجميلة إلى أولاد النجار فى بازل، وكنت فى كل مكان أتصور كيف سأحكى لهم ولأبيهم عن رحلتى هذه.

فلما وصلت فرانكفورت قررت أن أزيد رحلتى أيامًا أخرى. وتمتعت فى أشافنبورج ونورنبرج وميونخ وأولم فى شغف جديد بأعمال الفن القديمة. ثم وقفت وقفة بسيطة مجردة تمامًا من كل نية سيئة فى زيورخ. وكنت حتى ذلك الحين ولسنوات طويلة أتحاشى هذه المدينة وكأنها القبر، وهأنذا أنزلها وأسير فى شوارع معروفة، وألتمس الحانات القديمة والحدائق، وأستطيع بلا ألم أن أفكر فى السنوات الجميلة الماضية. كانت الرسامة الييتي قد تزوجت وأعطانى بعضهم عنوانها، وفى المساء أو قبله بقليل ذهبت إلى هناك. وقرأت على الباب اسم زوجها، وتطلعت من أسفل إلى النوافذ العالية وترددت فى الدخول. وبدأت الأوقات القديمة تتراءى لى حية، وصحا غرام شبابى نصفا من نومه ومعه ألم رفيق. ورجعت أدراجى ولم أتلف الصورة الجميلة لحبيبتى الإيطالية بلقاء لا فائدة منه. واستأنفت السير وزرت

الحديقة المطلة على البحيرة والتى قام فيها الفنانون فى ذلك الوقت حفلهم الصيفى. ونظرت إلى أعلى إلى البيت الذى سكنت فى حجرة على سطحه ثلاثة أعوام طيبة قصيرة، كان اسم إليزابث يطفو برغمى على شفتى فوق كل هذه الذكريات. كان الحب الأخير أقوى من سابقيه. وكان الحب الأخير أكثر سكونًا وتواضعًا وامتنانًا.

وأردت أن أبقى على نفسى المزاج المعتدل، فأخذت قاربًا وجدفت بهدوء وبطء إلى قلب البحيرة المشرقة الدافئة. كان الوقت يوشك على المساء وكانت هناك على صفحة السماء سحابة واحدة معلقة جميلة بيضاء بلون الثلج. وثبت عينى عليها، وأومأت برأسى إليها، إلى حب السحب فى أيام طفولتى، وإلى إليزابث، وكذلك إلى سحابة سيجانتينى المرسومة التى رأيت أمامها إليزابث جميلة مندمجة. لم أحس من قبل قط بحبى إليها، الذى لم تعكره كلمة ولا رغبة غير طاهرة، لم أحس به من قبل قط يسعدنى ويصفو بى كالآن، عندما نظرت إلى السحابة، واستعدت فى هدوء وامتنان كل خير فى حياتى، وأحسست بدلا من الاضطرابات والآلام العاطفية القديمة، حنين الطفولة القديم فى - وقد أصبح هذا الحنين هو الآخر أكثر نضجًا وسكونًا.

وكنت منذ القدم معتادًا على أن أغنى أو أدندن مع إيقاع المجاديف الرفيق شيئًا. كذلك غنيت الآن بصوت منخفض بينى وبين نفسى، ولم أتبين إلا فى

وسط الغناء إننى أشدو بأبيات منظومة. وقد ظلت هذه الأبيات فى ذاكرتى، وسجلتها فى البيت، تذكارًا لأمسية على صفحة بحيرة زيورخ:

مثل سحابة بيضاء

فى السماء العالية واقفة

مشرقة، جميلة، بعيدة

أنت يا إليزابث.

السحابة تروح وتجول

لا تكادين أن تتنبهى إليها

ولكن أحلامك تجعلها

تسير فى الليل البهيم.

تسير وتلمع ناعمة

حتى أنك تظلين دون هدوء

تحسين بحنين حلو

إلى السحابة البيضاء

وفى بازل وجدت عند عودتى خطابًا وصل من اسيزى. كان الخطاب من السيدة انونسياتا ناردينى وكان مليئًا بالأخبار السارة. لقد وجدت رجلا آخر. وأعتقد أن الأفضل أن أنقله بحرفه:

السيد المحترم المحبوب جدًا بيتر:

تكرم على صديقتك العزيزة وامنحها حرية كتابة خطاب إليك. لقد رضى الله بأن يهبنى سعادة

عظيمة، وأنا أود أن أدعوك للثانى عشر من أكتوبر لتحضر حفل زواجى. هو اسمه مينوتى ولايحتكم إلا على القليل من المال، ولكنه يحبنى جدًا، وكان فيما مضى يتاجر فى الفاكهة. وهو لطيف، ولكنه ليس طويل القامة جميلا مثلك ياسيد بيتر. وسوف يبيع هو الفاكهة فى الميدان، بينما أبقى أنا فى الدكان. كذلك جارتنا الجميلة ماريته ستتزوج، ولكن زوجها ليس إلا عامل بناء من غير أهل البلد.

لقد فكرت كل يوم وحكيت لكثير من الناس عنك. وأنا أحبك جدًا، وأحب كذلك القديس الذى وقفت عليه أربع شمعات بدافع من ذكراك. وكذلك مينوتى سيكون مسرورًا جدًا عندما تأتى لحضور الفرح. وإذا حدث ولم يكن لطيفًا معك، فسأنهره وأمنعه. ولقد اتضح للأسف أن الصغير ماتيو سبينللى ولد شرير فعلا كما كنت أقول دائمًا. كان كثيرًا ما يسرق منى الليمون والآن أبعد بعيدًا، لأنه سرق من أبيه، الفران اثنتى عشرة ليرة ولأنه سم كلب الشحاذ جانجا كومو.

أرجو لك بركة الله والقديس. وأنا مشتاقة جدًا إليك.

صديقتك الغالية الخاضعة المطيعة أنونسياتا ناردينى:

ملحوظة:

المحصول كان عندنا متوسطًا. كان العنب رديئًا للغاية، وكذلك الكمثرى لم تكن كافية. أما الليمون

فكان وفيرًا، واضطررنا لبيعه رخيصًا جدًا. وقد حدثت فى سبييلو مصيبة فظيعة، شاب قتل أخاه بالفأس، ولا يعلم أحد السبب، ولكنه كان بلا شك يغار منه، على الرغم من أنه أخوه وشقيقه.

ولم أستطع للأسف أن ألبى الدعوة الجذابة، فكتبت بالتهنئة ووعدت بزيارة فى الربيع القادم، ثم ذهبت بالخطاب ووبهدية من نورنبرج للأولاد إلى صديقه المعلم النجار.

وهناك وجدت تغيرًا كبيرًا. كان هناك على مسافة من الشباك مخلوق بشرى مسخة ملتوى غريب المنظر يقبع فى كرسى مثل كراسى الأطفال له حاجز على ارتفاع الصدر، كان هذا هو بوبى، أخا زوجة المعلم، إنسان مشوه مسكين نصفه مشلول، لم يكن له - بعد وفاة أمه العجوز حديثًا - مكان فى أى مسكن. وتلقاه النجار مؤقتًا على مضض، وكان وجود هذا العاجز المشوه المريض فى هذا البيت المنكوب يشبه الرعب. فلم يتعودوا عليه بعد، وكان الأولاد يفزعون منه، وكانت الأم تاسى له، أما الأب فكان محتارًا منقبضًا يبدو عليه انحراف المزاج.

كان بوبى يحمل بين سنامين قبيحين لا رقبة بينهما رأسًا كبيرة قوية التقاطيع عريضة الجبهة ، عنيفة الأنف، فيها فم جميل مسكين، وعينان صافيتان، إلا أنهما ساكنتان هيابتان، وكانت له يدان جميلتان صغيرتان صغرًا عجيبًا تستقران على الدوام وفى هدوء على الحاجز الضيق المقابل لصدره. كذلك

صدمت وانحرف مزاجى عندما رأيت هذا الدخيل. ثم تألمت بعد قليل فى نفسى، عندما أسمعنى النجار قصة هذا المريض، بينما كان يجلس بجانبنا ويتطلع إلى يديه، دون أن يتجه إليه إنسان بكلمة. كان بوبى مسخة منذ مولده. ولكنه تعلم فى المدرسة الابتدائية وأتمها، وتعلم صناعة منتجات القش وكان يكسب شيئًا منها، إلى أن أصابته أزمات النقرس فى مفاصله وتكررت حتى شلته شللا جزئيًا. وظل منذ أعوام إما راقدًا فى سريره أو جالسًا فى كرسيه العجيب محصورًا بين عدد من الوسائد. وذكرت زوجة النجار أنه كان قديمًا يغنى لنفسه فيكثر ويحسن الغناء، ولكنها لم تسمعه منذ سنوات عديدة، وهو لم يغن فى البيت هنا على أية حال مطلقًا.

وبينما كان هذا الكلام يحكى ويناقش، كان هو يجلس وينظر أمامه ـ ولم ترتح نفسى لهذا، ومالبثت أن انصرفت، وبقيت أيامًا لا أذهب إلى هناك.

كنت طوال حياتى قويًا معافى، لم أصب قط بمرض شديد، وكنت أنظر بأسى وبشىء من الازدراء إلى الذين يتألمون، وإلى العجزة خاصة. ولم يكن مما يرضينى أن أرى حياتى الهادئة السعيدة وسط أسرة هذا العامل تتعرض للاضطراب نتيجة لهذا الوجود البائس وما يسببه من ثقل لا يفرح. ولهذا صرت أؤجل زيارتى التالية من يوم إلى يوم، وأفكر فى طريقة لإخراج بوبى المشلول من بيتنا حيث يثقل كاهلنا. كان لابد من الوصول إلى إمكانية وضعه فى مستشفى أو

ملجأ خيرى بتكاليف قليلة. وكثيرًا ما كنت أريد التماس النجار لاتشاور معه فى هذا الأمر.

ولكنى كنت أتردد وأخجل من أن أبدأ هذا الموضوع دون أن يطلب إلىَّ، وكنت أحس بالفزع كالأطفال من ملاقاة هذا العاجز المريض. كنت أنفر من النظر دائمًا إليه ومن مد يدى إليه بالتحية.

وتركت يوم الأحد ينقضى دون زيارة. وفى يوم الأحد التالى كنت على وشك التبكير برحلة إلى اليورا، ثم خجلت من جبنى، وبقيت، وذهبت بعد تناول الطعام إلى النجار.

ومددى يدى بالتحية إلى بوبى كارهًا. وكان النجار غاضبًا واقترح علىَّ أن نخرج للنزهة وقال لى إن الكيل فاض به من هذا البؤس الأبدى. وفرحت إذ تبينت أنه فى حالة تجعله يتقبل مقترحاتى. وأرادت الزوجة أن تبقى فى البيت، ولكن العاجز رجاها أن تخرج معنا للنزهة وقال لها إنه يستطيع أن يبقى بمفرده دون أن يحدث شىء. وقال إنهم يستطيعون أن يغلقوا عليه الأبواب ويتركوه هادئ البال، إذ أعطوه كتابًا ووضعوا قريبًا منه كوب ماء.

وقمنا نحن، نحن الذين نعتبر أنفسنا أناسًا أسوياء تمامًا طيبى القلب، بحبسه فى المسكن وانطلقنا للنزهة. وفرحنا وداعبنا الأولاد وتمتعنا بشمس الخريف الجميلة الذهبية، ولم يخجل أحد منا، ولم ينتفض قلب أى منا؛ لأننا تركنا المشلول فى البيت وحده، لا بل كنا مسرورين لأننا تخلصنا منا

حينا، ورحنا نتنفس الهواء الصافى الدافئ بحرارة الشمس وظهرنا للناظر إلينا بمنظر العائلة الطيبة الشاكرة الراضية التى تتمتع بيوم من أيام الله بفهم وشكر.

فلما دخلنا حانة «جرنساخر هورنلى» لنشرب كأسًا من النبيذ، وجلسنا حول مائدة بالحديقة، تكلم الأب عن بوبى. فشكا من الضيف الثقيل، وتنهد من الضيق الذى حل بالبيت، ومن زيادة الأعباء وخلص من ذلك إلى عبارة «والآن يستطيع الإنسان على الأقل أن يجلس هنا ساعة سعيدًا، دون أن ينغص عليه».

عند هذه الكلمات المنطلقة بلا تفكير، رأيت المشلول فجأة أمامى، يتوسل ويتألم، رأيت هذا الذى لا نحبه، والذى نريده أن نتخلص منه، والذى تركناه الآن وحده وحيدًا حبيسًا فى الحجرة التى بدأ الظلام يخيم عليها، وخطر ببالى أن الظلام أصبح وشيكًا، وأنه لن يستطيع أن يوقد نورًا أو يقترب من الشباك، وأنه لهذا قد يترك الكتاب ويجلس فى الظلام الحالك دون حديث ودون تسلية، بينما نحن نشرب النبيذ ونضحك ونلهو. وخطر ببالى كيف أننى أحكى لجيرانى فى اسيزى عن القديس فرانسيسكو، وكنت أدعى أنه علمنى أن أحب الناس كل الناس، لماذا درست حياة القديس وحفظت أغنيته الرائعة عن الحب وسعيت على آثاره فى التلال الأومبرية، ما دمت أدع إنسانًا مسكينًا لا حيلة له يتألم، وأنا أعلم وأعرف أننى أستطيع مواساته؟

لقد امتدت يد خفى قوى إلى قلبى، فعصرته وملأته بالخجل والألم، حتى ارتعدت وارتميت مغلوبًا. وعرفت أن الله يريد أن يكلمنى الآن كلمة.

قال لى: «أنت أيها الشاعر. يا تلميذ قديس أومبريا، يا مكشوف الحجاب، يا من تريد أن تعلم الناس الحب وتريد أن تسعدهم. أنت أيها الحالم، الذى تتصور أنك تسمى صوتى فى الرياح والمياه. ـ أنت تحب بيتًا، أهله يرقون لك، وتقضى فيه ساعات هنية. فى اليوم الذى أردت أن أكرمه بدخولى إليه، تهرب أنت منه، وتفكر فى إبعادى عنه. أنت أيها القديس، يا مكشوف الحجاب. يا أيها الشاعر».

وأحسست كأنما وضعت أمام مرآة صافية لاتكذب، ونظرت إلى نفسى فرأيتنى على هيئة كذاب، فشار، جبان، ناكث بالعهد. وإن هذا ليؤلم، وإنه لمرير. فظيع كله عذاب. ولكن ما تحطم نفسى فى هذه اللحظة بى، وعانى العذاب، وانتفض جريحًا، كان يستحق التحطيم والتلاشى.

وودعت من معى بسرعة وعنف، وتركت النبيذ فى الكأس، وتركت الخبز الذى قضمت منه قضمة، على المائدة وعدت إلى المدينة. وكان انفعالى يعرضنى لخوف أليم لايُحتمل يعذبنى ويصور لى أن مصيبة ربما تكون قد حدثت. ربما تكون نارًا قد اشتعلت، وربما يكون بوبى العاجز قد وقع من الكرسى. وظل على الأرض يتألم أو يموت. ورأيته ممددًا على الأرض. واعتقدت أننى معه وأننى أرى برغمى فى نظرته العاجزة لومًا صامتًا.

وبلغت المدينة فالبيت لاهثًا، واندفعت طالعًا السلم، وخطر ببالى أننى أقف أمام باب موصد وأننى لا أحمل مفتاحًا. ولكن خوفى هدأ توًا. فقبل أن أبلغ الباب الموصل إلى المطبخ، سمعت بالداخل غناء، وكانت لحظة فريدة. كنت أقف على بسطة السلم، بقلب منتفض، وصدر لاهث، أنصت إلى غناء العاجز السجين، والهدوء يتولانى شيئًا فشيئًا. كان يغنى بصوت خفيض، ناعم، فيه شىء من الشكوى، وينشد أغنية غرامية شعبية، هى أغنية «يازهرة يا صغيرة، يا بيضا وحلوة وحمرا». كنت أعلم أنه لم يغن منذ زمن طويل، فتملكنى التأثر، لأنى تصنت عليه وهو ينتهز الساعة الساكنة، ليسعد نفسه على طريقته.

والحياة أمرها هكذا: الحياة تحب أن تضع بجانب الأحداث الجادة والانفعالات العميقة، عنصر الهزل. ولقد أحسست فى وقت واحد بالناحية المضحكة والناحية المخجلة فى موقفى. كنت فى خوفى المفاجئ قد جريت ساعة بأكملها إلى بعيد. فإذا بى فى النهاية أصل بلا مفتاح لأقف أمام باب المطبخ الموصد. وكان علىّ الآن أما أن أنصرف أو أن أصيح فى العاجز المشلول من خلال بابين موصدين فأبلغه بنواياى الطيبة. كنت أقف على الدرج وفى نيتى أن أواسى المسكين وأن أبدى له أن قلبى معه، وأن أقصر الساعات عليه، وكان هو يجلس فى الداخل لا يلوى على شىء، يغنى لنفسه، ولاشك فى أنه كان سينزعج لو أننى لجأت إلى الصياح أو الخبط لأشعره بأننى موجود.

لم يعد أمامى من سبيل إلا الانصراف. وتنزهت ساعة فى الحوارى التى كانت بمناسبة يوم الأحد تعج بالحياة. وإذا بى أجد الأسرة عائدة. وعدت معها، ولم أجد حاجة إلى إجبار نفسى على مد يدى إلى بوبى بالتحية. بل أننى جلست بجواره، وبدأت أتحدث معه وأسأله عما قرأ. وعرضت عليه أن آتيه بما يقرؤه، فشكرنى. فلما اقترحت عليه مؤلفات يريمياس جوتهيلف، اتضح لى أنه قرأها كلها تقريبًا. ولكنه لم يكن قد قرأ شيئًا لجوتفريد كيللر، وكان يجهله تمامًا، فوعدته بأن أعيره مؤلفات كيللر.

وفى اليوم التالى عندما أحضرت الكتب. وجدت فرصة للاختلاء به، فقد كانت المرأة على وشك الخروج لشأن، وكان الرجل فى الورشة. فاعترفت له بأننى أخجل جدًا من أننى تركته بالأمس وحده وبأننى سأكون سعيدًا لو تمكنت من مجالسته من حين لآخر ومن مصادقته.

وحول العاجز الصغير إلى رأسه الضخمة قليلاً. ونظر إلىَّ وقال: «شكرًا جميلاً». ولم يزد على ذلك. ولكن تحريك الرأس كلفه جهدًا كبيرًا، وكان يساوى معانقات من إنسان معاف، وكانت نظرته صافية، جميلة جمالاً بريئًا براءة الطفولة، حتى أن الدم صعد إلى وجهى من فرط الخجل.

وكان الجزء الأصعب من المهمة هو الجزء الذى بقى. وهو الحديث مع النجار. وتصورت أن أحسن شىء يمكننى أن أفعله هو أن أعترف له مباشرة بما

أصابنى بالأمس من خوف وخجل. ولكنه للأسف لم يفهمنى، وأن أقبل أن نتناقش فى الموضوع. وقبل أن يبقى العاجز المريض لديه على اعتبار أنه ضيفنا جميعًا، فاشترك بنصيب فى نفقات إعاشته البسيطة، وأن يكون لى أن أدخل وأخرج على بوبى ما شئت، وأن اعتبره أخًا لى.

وظل الخريف جميلا دافئًا مدة أطول من المألوف. ولهذا كان أول شىء فعلته من أجل بوبى وهو شرائى كرسيًا متحركًا له، وأخذه كل يوم إلى النزهة فى الخلاء، فى صحبة الأولاد غالبًا.

الفصل الثامن

كان القدر يريد لى دائمًا أن أحصل من أصدقائى على أكثر مما كنت أستطيع أن أقدمه إليهم. كانت تلك هى الحال مع ريشارد وإليزابث والسيدة ناردينى والنجار ثم هأنذا فى سنواتى الناضجة وبين تقدير كاف لشخصى أجد مصيرى يتحول إلى التلمذة المندهشة الممتنة لعاجز مسكين.

وإذا حدث أن استطعت ذات يوم أن أختم العمل الأدبى الذى بدأته منذ زمن طويل، وأبثه فى الناس، فلن يكون فى خيره إلا القليل الذى لم أتعلمه من بوبى. لقد بدأت فترة طيبة بهيجة بالنسبة إلىّ، سأظل طوال حياتى أتغذى على ما أوتيته فيها عن وفرة. لقد أوتيت نعمة النظر فى صفاء وعمق إلى نفس بشرية رائعة، تطاير المرض والانعزال والفقر وسوء المعاملة فوقها كأنه سحابات خفيفة متفرقة.

كل الرذائل الصغيرة التى نتلف بها حياتنا ونقبحها، الغضب ونفاد الصبر وعدم الثقة، والكذب - كل هذه الخراريج القبيحة الأليمة التى تشوهنا، كانت قد أحرقت وأفنت فى العذاب والآلام بلاء طويلاً عميقًا فى هذا الإنسان، لم يكن حكيمًا من الحكماء ولم يكن ملاكًا، من الملائكة ولكنه كان إنسانًا ممتلئًا بالفهم والتفانى، تعلم من الآلام الكبيرة الفظيعة أن يحس بنفسه دونما خجل ضعيفًا وأن يسلم نفسه ليد الله.

وذات مرة سألته كيف تمكن من التكيف على الدوام مع جسمه المؤلم الواهن.

فضحك بلطف وقال: «هذا أمر فى غاية السهولة. كان ما بينى وبين المرض حرب دائمة. تارة أكسب معركة وتارة أخسر أخرى، وهكذا تنازع دائم، كنا نعقد خلاله أحيانًا هدنة ونلتزم بالهدوء، ويتربص الواحد منا بالآخر إلى أن يجرؤ أحدنا من جديد فتبدأ الحرب من جديد».

كنت حتى ذلك الحين أعتقد أن لى عينا لا تخطئ البصر وأننى أحسن الملاحظة. وإذا ببوبى يصبح فى الملاحظة أستاذى الذى يتركز عليه إعجابى. ولما كان يجد متعة عظيمة فى الطبيعة وخاصة فى الحيوان. فكثيرًا ما كنت آخذه إلى حديقة الحيوان. وكنا نقضى هناك ساعات لذيذة. فما لبث بوبى أن عرف كل حيوان، وكنا نأخذ معنا دائمًا الخبز والسكر، فعرفتنا بعض الحيوانات، واتصلت بيننا صداقات عديدة. وكنا

نحب خاصة حيوان التابير(*) الذى يتميز بفضيلة وحيدة لا تميز فصيلته كلها وهى النظافة. وكنا فيما عدا ذلك نجده مدعيًا، قليل الذكاء، خشن الطبع، لا يشكر على النعمة، ويسرف فى الشراهة إلى أقصى حد. كانت هناك حيوانات أخرى، وخاصة الفيل، والغزال والوعل وحتى جاموس البيزون الفظ، تبدى لنا دائمًا مقابل السكر الذى تناله نوعًا من الامتنان بأن تنظر إلينا نظرة فيها الثقة، أو تتقبل راضية أن نمد إليها يدنا ونمسح عليها. أما حيوان التابير فلم يكن لديه أثر من هذا.. كنا عندما نأتى ونقترب منه، يسرع إلى الحديد فيلتهم ببطء واتقان، ما يناله منا، ثم يبتعد دون كلمة أو نبرة، عندما يتبين أنه لن ينال منا المزيد.

كنا نجد فى هذا المسلك علامة على التكبر والاعتداد. ولما كان هذا الحيوان لا يتسول ما يمكن أن يقدم إليه، ولا يشكر على ما يقدم إليه، بل يحصله هادئًا مطمئنًا كأنما يحصل جزية من البديهى تحصيلها، فقد لقبناه بمحصل الجمارك. وكان كثيرًا ما يحدث بين بوبى وبينى مشاحنة عما إذا كان التابير قد نال نصيبه كاملا أو لا يزال له حق فى قطعة أخرى، فلم يكن بوبى يستطيع أن يطعم الحيوان بيديه. وكنا نقدر هذه الأنصبة بموضوعية واختبار دقيق، وكأنما نحن نقوم بشىء من أعمال الدولة. وذات مرة كنا قد تعدينا التابير، وقال بوبى، إننا قدمنا

(*) يسمى كذلك حلوف البرازيل.

إليه من السكر أكثر مما ينبغى له. فعدنا إليه، وكان قد عاد إلى مرقده فى القش، وراح ينظر إلينا بعمش وتكبر ولم يأت إلى الحديد. وصاح به بوبى: «أرجو أن تتكرم بالصفح ياسيادة المحصل، ولكنى أعتقد أننا أخطأنا فى قطعة من السكر» ثم ذهبنا إلى الفيل. الذى كان يهز جسمه الضخم هنا وهناك فى اشتياق إلينا ويمد خرطومه الدافئ المتحرك إلينا. كان بوبى يستطيع أن يطعمه نصيبه، وكان ينظر ببهجة كبهجة الأطفال، كيف كان العملاق الضخم يلوى إليه الخرطوم اللين، ويلتقط الخبز من يده المنبسطة، وينظر إلينا بطيبة ونباهة من عينين ضئيلتين أليفتين.

واتفقت مع أحد حراس الحديقة أن أترك بوبى فى الحديقة فى كرسيه المتحرك وحده عندما لا يكون لدى وقت للبقاء بجواره، حتى يتمكن فى مثل هذه الأيام من إصابة شىء من دفء الشمس ومن رؤية الحيوان. وكان بوبى بعد ذلك يحكى لى عما رآه. وكان يعجب خاصة بطريقة معاملة الأسد لزوجته كان الأسد عندما تتمدد اللبؤة لتستريح من كثرة الحركة، يتخذ فى حركته اتجاها معينا، لكى لا يلمسها فى خطوه الدائب. ولا يعكر عليها هدوءها، ولا يخطو فوقها. وكانت أكثر تسلية يجدها بوبى عند حيوان القضاعة. وكان بوبى لا يكل من كثرة التطلع إلى أفانين اللعب والعوم المرنة التى يؤديها هذا الحيوان النشيط، وكان يجد فى هذا النشاط متعة واضحة، بينما هو يرقد ممدداً فى كرسيه لا يتحرك، ويحتاج إلى جهد جهيد فى تحريك رأسه وذراعيه.

وفى يوم من أجمل أيام هذا الخريف قصصت على بوبى قصتى حبى. كانت الألفة قد انعقدت بيننا، حتى أننى لم أكن أستطيع أن أخفى عنه تلك الأحداث التى لم تكن تتصل بالفرح والمجد بسبب. واعترف لى فيما بعد بشوقه إلى رؤية إليزابث، السحابة البيضاء ورجانى أن أفكر فى هذا مليا، إذا تصادف والتقينا بها فى الشارع مصادفة.

ولما لم يحدث هذا وبدأت الأيام تزداد برودة، ذهبت إلى إليزابث ورجوتها أن تتيح لهذا العاجز المحدب هذه المتعة. وكانت اليزابث من الطيبة بحيث قبلت عن طيب خاطر. وحددنا يوما ذهبت فيه إليها واصطحبتها إلى حديقة الحيوان، وكان بوبى ينتظر هناك فى كرسيه المتحرك. فلما مدت السيدة الجميلة الوسيمة الأنيقة الرقيقة يدها لمصافحة العاجز المشلول، وانحنت إليه قليلا، ولما فتح المسكين بوبى وسط وجهه المتلألئ بالفرح عينيه الواسعتين الطيبتين الممتلئتين بالشكر وبما يوشك أن يكون العاطفة. لم أستطع أن أحدد أى الاثنين كان فى تلك اللحظة أكثر جمالا وأكثر قربًا من قلبى. وتكلمت السيدة كلمات رقيقة، ولم يبعد العاجز المشلول نظره عنها، ووقفت أنا بجانبهما، وقد اندهشت لرؤية الإنسانين اللذين أحبهما أكثر الحب، واللذان يباعد بينهما فى الحياة خد عميق، وقد التقيا لحظة يدا بيد. ولم يتكلم بوبى طوال العصر عن شىء إلا عن إليزابث، كان يمتدح جمالها، وسناها، وطيبتها، وأناقتها، وقفازها الأصفر، وحذاءها الأخضر، ومشيتها ونظرتها وصوتها وقبعتها

الجميلة، بينما كنت أنا أجد ألما وسخفًا، فى تطلعى إلى حبيبتى وهى تقدم صدقة إلى صديق القلب الحميم.

وكان بوبى فى هذه الأثناء قد قرأ رواية «هاينريش الأخضر» ومتابعة «أهل زيلد فيله» (لجوتفريد كيللر) واستوطن عالم هذه الكتب الفريدة حتى أننا كنا نجد فى شموللر باكراتس والبرتوس تسفيهان وصناع الأمشاط العدلة، أصدقاء أحباء لنا معا. وذات مرة فكرت مترددًا فى أن أعطيه شيئًا من كتب الأديب كونراد فرديناند ماير، ولكنى اعتقدت أنه ربما لا يقدر الحبكة اللاتينية للغته المضغوطة ضغطًا مسرفًا، كذلك ترددت فى أن أفتح بهذه الكتب عمق هاوية التاريخ أمام هاتين العينين الصافيتين الساكنتين. وقصصت عليه بدلا من ذلك عن القديس فرانسيسكو الأسيزى وأعطيته قصص موريكه ليقرأها. واستمعت مندهشًا إلى اعترافه لى بأنه كان سيتمكن من التمتع بقصة اللاو الجميل لو لم يكن قد أكثر الوقوف عند حوض حيوان القضاعة، واستسلم هناك لكثير من الخيالات المائية العجيبة.

وكان من الطريف أننا انتقلنا بالتدريج إلى رفع الكلفة بيننا وأصبح كل منا ينادى الآخر بأنت. وأنا لم أعرض عليه قط أن نتعامل على هذا النحو، ولو أنى فعلت لما قبل منى. ولكنى التطور فى هذه الناحية جاء من تلقاء نفسه، فأصبحنا ننزلق إلى المناداة بأنت دون كلفة، ونزيد فى ذلك تدريجيًا إلى أن لاحظنا ذلك ذات يوم، فضحكنا وبقينا على تلك الحال.

فلما جعل الشتاء الداخل نزهاتنا مستحيلة، وأخذت أجلس الليالى فى مسكن زوج أخت بوبى، لاحظت متأخرًا أن صداقتى الجديد تمت لى دون أن تكلفنى أية تضحية. كان النجار كثير التبرم، غليظ الكلام قليله، قد أثار حفيظته بمضى المدة علاوة على الوجود الثقيل لطالب طعام لا يكسب شيئًا، علاقتى ببوبى بالقدر نفسه. فكان يحدث أننى أقضى السهرة كلها أتحدث مع المشلول مسرورًا، بينما رب البيت يجلس بجوارنا غاضبًا والجريدة فى يده. كذلك حدث تشاحن بينه وبين زوجته التى كانت بصفة عامة صبورة إلى درجة كبيرة. لأنها أصرت على ألا يخرج بوبى من عندهم ليوضع فى مكان آخر. وكثيرًا ما حاولت أن أغير فكره وأجعله أكثر ميلا للوفاق، وكثيرًا ما اقترحت عليه الاقتراحات. ولكن لم يكن من الممكن أن يصل الإنسان معه إلى شىء ثم بدأ يصبح قارص اللسان، ويتهكم على صداقتى بالعاجز المشلول، ويحيل حياة هذا العاجز إلى جحيم. والحق أن المريض وأنا ـ الذى كنت كل يوم أذهب لأجلس إليه ـ كنا ثقلا مكروها على البيت الضيق، ولكننى كنت دائمًا آمل أن يدخل النجار فى زمرتنا ويحب وهو أيضا الرجل المريض. وأخيرًا استحال على أن أفعل أو أترك شيئًا، لايكون فيه جرح للنجار أو إضرار ببوبى. ولما كنت أكره القرارات العاجلة التى يكره الإنسان إليها إكراهًا ـ وتلك سمة قديمة فى، حتى أن ريشارد أطلق على فى فترة حياتنا بزيورخ اسم بيتروس كونكتاتور(*)

(*) كنية القائد الرومانى فبيوس ماكسيموس. وقد صارت رمزًا على الرجل المتردد المتأنى. (المترجم).

فقد انتظرت عدة أسابيع وعانيت من الخوف على صداقتى للاثنين، أن تضيع إحداهما أو كلاهما.

ودفعنى الضيق المتزايد الناجم عن هذه العلاقات غير الواضحة إلى التردد بكثرة من جديد إلى الحانات. وذات مساء كانت القصة الأليمة قد أغاظتنى إلى حد غير عادى فدخلت إلى حانة وهجمت على البلاء بزجاجات كثيرة من نبيذ الفاتليندر. ووجدت لأول مرة منذ أعوام كثيرة صعوبة فى العودة إلى البيت معتدل المشية. وفى اليوم التالى كنت كعادتى بعد إسراف فى الشراب، معتدل المزاج، فتشجعت وذهبت إلى النجار لكى أنهى الكوميديا. واقترحت عليه أن يترك لى بوبى نهائيًا، ولم يظهر تمنعًا، وطلب مهلة للتفكير، وبعد عدة أيام وافق فعلا.

وسكنت بعد ذلك بمدة قليلة مع صديقى العاجز الأحدب المسكين مسكنًا جديدًا استأجرته. وأحسست أننى كالمتزوج، فقد أصبح علىّ بدلا من أدبر أحوال حجرة الأعزب، أن أدبر أحوال مسكن صغير منتظم فيه شخصان. ولكن كل شىء سار على ما يرام، وإن كنت قد تورطت بادئ ذى بدء فى بعض التجارب المالية غير الموفقة، كان ترتيب البيت والغسيل تقوم به خادمة تأتى أحيانًا، أما الطعام فكان المطعم يرسله إلى البيت، ومالبثنا أن سعدنا - كلانا - بحياتنا الموفقة معًا. ولم تفزعنى فى ذلك الوقت ضرورة صرف النظر مؤقتًا عن رحلاتى الصغيرة والكبيرة التى أرتاح فيها من همومى، وكان وجود صديقى قريبًا منى، ملتزمًا

بالسكون شيئًا أحسست بأنه يهدئنى ويشجعنى أثناء العمل. أما عمليات الرعاية الصحية الصغيرة التى كان يحتاج إليها، فكانت جديدة علىَّ قليلة البهجة، وخاصة خلع الملابس ولبس غيرها، ولكن صديقى كان صبورًا شاكرًا، حتى أننى خجلت واجتهدت فى أن أقوم على خدمته بدقة وإتقان.

ولم أعد أذهب إلى العلاَّمة البروفسور إلا قليلا، وكررت زياراتى لإليزابث، التى كان بيتها يجتذبنى رغم كل شىء بسحر دائم. كنت أجلس عندها، أشرب شيئًا من الشاى أو كأسًا من النبيذ. وأنظر إلى إليزابث تلعب دور المضيفة، وأحس أثناء ذلك أحيانًا انفعالات عاطفية، على الرغم من أننى كنت أنازل على الدوام بسخرية لاتلين كل الأحاسيس الفرترية التى قد تعتمل فى نفسى(*) كانت الأنانية فى الحب. تلك الأنانية المائعة التى تملكتنى فى مطلع شبابى. قد تلاشت منى نهائيًا. وأصبحت حالة الحرب الرقيقة الأليفة هى العلاقة الصحيحة بيننا. ولم نكن بالفعل نلتقى دون أن نتشاجر أكثر التشاجر ودًا، إلا فيما ندر. كان عقل المرأة المرن المدلل فى أنوثة يناسب على نحو لا بأس به كيانى الولهان الخشن معا، ولما كنا فى الواقع نتبادل الاحترام، فقد كان فى إمكاننا أن نتشاجر على نحو أكثر همة ونشاطًا، على كل أمر صغير تافه سخيف،

(*) إشارة إلى رواية «آلام الشاب فرتر» لأديب ألمانيا الأكبر يوهان فولفجنج جوته، والتى تدور حول آلام شاب وقع فى حب فتاة خطبها وتزوجها آخر، وانتهت به هذه الآلام إلى الانتحار. (المترجم).

كان من المضحك خاصة أن أدافع حيالها عن العزوبية، وهى المرأة التى كنت منذ وقت قصير أتمنى أن أتزوجها أعظم التمنى. ولم تكن هناك غضاضة فى أن أهمزها مع زوجها، الذى كان رجلا طيبًا لطيفًا، وكان فخورًا بزوجته الذكية ذات البديهة الحاضرة.

كان الحب القديم لا يزال يتأجج فى، ولكنه لم يكن يتأجج بالنار القديمة المطالبة بالكثير، بل كان جمرة طيبة دائمة، تبقى على القلب شابًا، وتتيح لشاب أعزب مجرد من الأمل أن يدفئ عليها أصابعه أحيانًا فى أمسيات الشتاء الباردة. ومنذ أصبح بوبى نهائيًا بجوارى، يحيطنى بحب دائم خالص أعرف به معرفة رائعة، فقد استطعت أن أدع هذا الحب يعيش فى نفسى دون خوف من خطر، كقطعة من الشباب والشعر.

وكانت إليزابث تتيح لى بما تفعل بى أحيانًا من ألوان الخبث واللؤم النسائى فرصة أخفف فيها التهاب قلبى، وأتمتع فيها بعزوبيتى.

منذ كان بوبى معى يشاركنى مسكنى، أهملت بيت اليزابث كذلك شيئًا فشيئًا. كنت أقرأ مع بوبى الكتب، وأقلب معه مجلدات صور الرحلات ويومياتى، وكنت ألاعبه الدومينو. واتخذنا على سبيل التسلية كلبا من نوع البودل، وكنا نتأمل من الشبابك مقرب الشتاء ونتبادل كل يوم الكثير من الأحاديث، ذكية وسخيفة. وكان العاجز المريض قد أصاب فلسفة رفيعة، وهى تأمل موضوعى للحياة فيه من الفكاهة الطيبة ما يضفى عليه الدفء، وكنت أتعلم من هذه الفلسفة كل

يوم شيئًا. فلما تساقط الثلج غزيرًا، وبسط الشتاء أمام النوافذ جماله الصافى، أعددنا لأنفسنا بمتعة شبيهة بمتعة الطفولة حياة لطيفة سعيدة راغدة لا فى أحضان الطبيعة ولكن قرب المدفأة فى الحجرة. وتعلمت فن معرفة الناس فى هذه الظروف دون كثير جهد، وكنت قد سعيت إلى تعلمه حتى كدت أنتعل الدمى. كان بوبى - كمشاهد حاد البصر، قوى الملاحظة، ملازم للسكون - ممتلئًا بصور من الحياة فى البيئات السابقة، كان يستطيع عندما يتهيأ للرواية، أن يروى العجب! لم يكن العاجز المشوه قد عرف فى حياته من الناس إلا نحو الأربعين، ولم يسبح قط فى التيار الكبير، ولكنه كان مع ذلك يعرف الحياة أحسن منى، لأنه كان معتادًا على أن يرى كل شىء حتى ما صغر وتضاءل، وأن يجد فى كل إنسان مصدرًا للخبرات والبهجة والمعرفة.

وظلت متعتنا المحببة هى عالم الحيوان. ورحنا نخترع عن الحيوانات التى لم نعد نستطيع السعى إليها فى حديقة الحيوان، قصصًا وخرافات مختلفة الأنواع. وكنا فى أغلب الأحوال لانتحاكى هذه القصص، بل نتبادل القاءها ارتجالا كالديالوجات. من هذا مثلا إعلان حب بين اثنين من طير الببغاء، مشاجرات عائلية بين ثيران البيزون أحاديث سهرة بين الخنازير الوحشية.

- كيف الحال ياسيد قضاعة؟

- شكرًا جميلا، ياسيد ثعلب، الحال على ما يرام، وأنت تعلم أننى عندما وقعت فى الشباك فقدت

زوجتى الحبيبة. كان اسمها ذات الذيل الفرجونى، كما تشرفت من قبل بإبلاغك. كانت لؤلؤة . أؤكد لك، كانت...

ـ آه دع هذه الحكايات القديمة، ياجارى، فلقد حكيت لى قصة اللؤلؤة هذه، إن لم أخطئ، مرارًا وتكرارًا . رباه! إن الإنسان يعيش مرة واحدة، ولا ينبغى عليه أن يفسد على نفسه نصيبه القليل من السعادة».

«لا، أرجوك ياسيد ثعلب، لو إنك عرفت زوجتى، لفهمتنى على نحو أفضل».

«طبعًا، طبعًا، بكل تأكيد. إذًا فقد كان اسمها ذات الذيل الفرجونى، هه؟ اسم جميل! شىء للتدليل: أما ما كنت أريد أن أقوله فى الحقيقة هو ـ لابد أنك لاحظت أن وباء العصافير الضار قد زاد من جديد؟ أنا عندى خطة صغيرة».

«بخصوص العصافير؟»

«نعم، بخصوص العصافير. لقد فكرت فى الآتى: نضع شيئًا من الخبز أمام الحديد ونرقد هادئين وننتظر قدوم الأشقياء. ولاشك أننا سنتمكن من الإمساك بهذه البهائم، إلا إذا كان الشيطان فى طريقنا. ما رأيك».

«فكرة ممتازة، يا جارى العزيز!».

«هل تتكرم فتضع الآن شيئًا من الخبز؟ ـ نعم هكذا. أو وربما كان الأفضل أن تحركه إلى اليمين قليلا، فيكون ذلك فى صالحنا جميعًا. فأنا الآن للأسف فقير لا أمتلك شروى نقير. حسنًا! لننتبه

الآن! لنرقد الآن ولنقفل أعيننا ـ هست، هذا عصفور قادم» (سكون).

«هه، ياسيد ثعلب، لم نمسك شيئًا؟».

«ما أكثر فراغ صبرك وكأنك تخرج للصيد لأول مرة. إن الصياد ينبغى عليه أن يعرف كيف ينتظر، وينتظر وينتظر. فلنكرر العملية مرة أخرى إذًا».

«ولكن أين الخبز؟»

«عفوًا؟».

«لم بعد الخبز هنا.»

«لايمكن! الخبز؟ فعلا! لقد ضاع ! يا للمصيبة! الريح اللعينة بالطبع هى التى ضيعته».

«لا! مخى يشتغل بأفكار أخرى. لقد أحسست منذ قليل كأنى أسمعك تأكل شيئًا».

«ماذا تقول؟ أنا أكلت شيئًا؟ فماذا أكلت إذًا؟»

«أظن الخبز».

إنك فى ظنونك يا سيد قضاعة، تلجأ إلى وضوح فى الكلام مهين. حقيقة أن الإنسان ينبغى عليه أن يكون واسع الصدر مع جيرانه، وأن يبتلع بعض ما يقولون من كلام غليظ، ولكن هذا الذى قلته كثير. إنه كثير وأن فيه شططًا. هل فهمتنى ؟ ـ تقول إننى أكلت الخبز؟ ما هذا الذى طرأ ببالك؟ فى أول الأمر تحاول أن تكرهنى على الاستماع إلى قصة لؤلؤتك للمرة الألف، ثم تنتقل إلى الفكرة، ونضع الخبز».

«بل أنا. أنا الذى قدمت الخبز».

« نضع الخبز، وأنا أمدد، وأنتبه، ويسير كل شيء على ما يرام، ثم تدخل بثرثرتك ـ والعصافير طبعًا تطير إلى عنان السماء، والصيد لا يغنم شيئًا، ثم تدعى أننى أكلت الخبز. هه. عليك أن تنتظر طويلا، حتى أصفو لك مرة أخرى وأعود إلى مخالطتك».

كانت ساعات العصر والمساء تنقضى على هذا النحو سهلة سريعة. كنت أنا فى أحسن مزاج، أحب العمل وأكثر منه وأعجل فيه، وتعجبت من أننى كنت فيما مضى كسولاً حزينًا، متعثرًا فى الحياة مستصعبًا إياها. ولم تكن أحسن الأوقات مع ريشارد أجمل من هذه الأيام الهادئة البهيجة، التى كانت الثلوج تتراقص فيها فى الخارج، بينما نحن نجلس والكلب معنا، ناعمين متبهجين أمام المدفأة.

ثم أتى الوقت الذى ارتكب فيه صديقى العزيز بوبى أول وآخر حماقة. كنت أنا بطبيعة الحال فى خضم رضائى، أعمى فلم أر أنه يتألم أكثر مما مضى. لكنه كان من فرط تواضعه وحبه، يتصنع البهجة الزائدة، ولم يتأوه، ولم يمنعنى من التدخين، ثم إذا كان الليل يلزم فراشه ويتألم ويسعل ويتأوه بصوت خفيض لايصل إلىّ. وكنت بطريقة المصادفة أكتب فى الحجرة المجاورة له، وعكفت على الكتابة إلى وقت متأخر من الليل وكان هو يعتقد أننى فى فراشى منذ وقت طويل، سمعته يتأوه.

ودخلت الحجرة والمصباح فى يدى، فارتاع المسكين وانتابه الفزع. ونحيت المصباح جانبًا، وجلست

على حافة سريره، وبدأت أستجوبه. وحاول طويلا أن يراوغنى، وأخيرًا أعترف. قال فى خجل.

«ليس ما بى خطيرًا إلى هذا الحد. إننى أحس عندما أتحرك بعض الحركات بالتقلص فى قلبى، وأحس بالتقلص نفسه أحيانًا عندما أتنفس».

واعتذر اعتذارًا واضحًا، وكأنما كان مرضه جريمة، وفى الصباح ذهبت إلى الطبيب. كان اليوم يومًا جميلاً، تراكم فيه الثلج، ولكن السماء كانت صافية من السحب، وفى الطريق خف ما بى من انقباض وهم، وفكرت فى عيد رأس السنة وفكرت كذلك فى هدية لبولى أدخل بها السرور على نفسه. كان الطبيب لايزال فى بيته، وألححت عليه أن يأتى معه، فأتى. وركبنا سيارته المريحة، وصعدنا الدرج، ودخلنا حجرة بوبى، وبدأ الطبيب يتحسس ويقرع ويسمع، وبينما الطبيب يزداد اهتمامًا، وصوته يزداد طيبة، ودعتنى البهجة كل البهجة.

حالة شديدة، نقرس، ضعف فى القلب ـ واستمعت إلى كلام الطبيب، وسجلته كله، واندهشت لأننى لم أعترض، عندما أمر الطبيب بنقل المريض إلى المستشفى.

وجاءت سيارة المستشفى فى عصر اليوم نفسه، وحملته وذهبت معه إلى هناك، فلما عدت إلى البيت ودخلت المسكن أحسست إحساسًا رهيبًا، فقد أتى الكلب يتمسح بعنف فىَّ، وكان كرسى المريض الكبير مركونًا فى جانب، وكانت الحجرة المجاورة خاوية.

هكذا الحب. يأتى بالألم، ولقد عانيت من هذا الألم فى الفترة كثيرًا. وليس المهم أن يعانى الإنسان الألم أو لا يعانى. المهم أن يكون هناك إحساس قوى بالحياة معًا. وأن يحس الإنسان الرباط الوثيق القوى الحى، الذى يرتبط به كل حى إلينا، وألا يفتر الحب ويبرد، إننى مستعد لأن أقدم كل أيامى السعيدة التى أتيحت لى، ومعها كل غرامياتى، وكل مشروعاتى الأدبية، لو نلت لقاءها إمكانية الدخول مرة أخرى قدس الأقداس التى كانت متاحة لى فى ذلك الوقت.

هذا شىء يؤلم العين والفؤاد ألمًا مريرًا، ويصيب الفخار الجميل والاعتداد بالنفس بضربات قاسية، ثم ما يلبث الإنسان بعد ذلك أن يكون شديد السكون والتواضع والنضج، شديد الحيوية فى أعمق أعماق ذاته.

كان جزء من كيانى القديم قد مات بموت «آجى» الصغيرة الشقراء. وهأنذا أرى صديقى العاجز المحدب، الذى وهبته كل حبى، والذى قاسمته حياتى كلها، يتألم ويموت بطيئًا، بطيئًا، وكنت أعانى معه كل يوم ما يعانيه، وأنال نصيبًا من فظاعة الموت وقداسته، لقد كنت فيما مضى ما أزال مبتدئًا فى فن الحب، وهأنذا أضطر إلى البدء توا فى فن الموت بفصل من فصوله الأليمة، لن أطوى هذا الوقت فى الكتمان كما طويت الوقت الذى أمضيته فى باريس. بل سأتكلم عنه وبصوت عال، كما تتكلم المرأة عن أيام كانت عروسًا، وكما يتكلم الرجل المتقدم فى السن عن سنوات صباه.

لقد رأيت إنسانًا يموت، وكانت حياته ألمًا وحبًا فقط. وسمعته يمزح كالطفل، وهو يشعر بالموت يعمل فى كيانه عمله. ورأيت كيف خرجت من بين الآلام العصيبة نظرة تبحث عنى، لا لتتسول من عندى شيئًا، وإنما لتقيم عودى ولتبين لى أن هذه التقلصات والآلام قد تركت خير ما فى نفسه كما هو لم تمسسه بسوء. ثم اتسعت عيناه، ولم يعد الإنسان يرى وجهه الذابل، بل كان الإنسان يرى بريق عينيه الواسعتين فحسب.

ـ هل أستطيع أن أقدم لك شيئًا يا بوبى؟

ـ قص علىّ قصة.. قص علىّ شيئًا عن حيوان التابير إن إمكن.

وقصصت عليه شيئًا عن حيوان التابير.، وقفل عينيه، وكنت أعانى صعوبة فى الحديث على النحو الذى ألفته، فقد كان البكاء قريبًا منى دائمًا. وكنت إذا اعتقدت أنه لم يعد يسمع أو ينام، أسكت على الفور. فكان عند ذاك يفتح عينيه من جديد.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

فاستأنف القصة وأحكى له عن حيوان التابير وعن أبى وعن الولد الشقى ماتيو سبينللى وعن إليزابث.

ـ نعم، لقد تزوجت غبيًا! هكذا حال الدنيا يا بيترا.

وكان فى كثير من الأحيان يتكلم فجأة عن الموت فيقول:

ـ الموت ليس بالمزاح يا بيتر.. إن أصعب الأعمال هين إذا قيس بالموت. ولكن الإنسان يقضيه.

أو يقول: «عندما أتجاوز العذاب أستطيع أن أضحك. والموت عملية رابحة بالنسبة لى، فالموت سيخلصنى من السنام ومن قدم قصيرة ومن أرداف مشلولة. أما أنت فخسارة فى الموت، بكتفيك العريضتين، وساقيك الجميلتين القويتين».

وذات مرة، فى أيامه الأخيرة، صحا بعد نوم عجيب وقال بصوت عالٍ:

ـ وليست هناك جنة كالتى يعنيها القسيس. الجنة أجمل بكثير. أجمل بكثير.

وكانت زوجة النجار تأتى كثيرًا وتعرض على نحو ذكى مواساتها واستعدادها للمعاونة. أما النجار فلم يظهر مطلقًا، وهو تصرف أحزننى منه كل الحزن.

وذات مرة سألت بوبى : «مارأيك يا بوبى، هل فى الجنة حيوان التابير أيضًا؟».

فقال وهو يومئ برأسه: «طبعًا، كل أنواع الحيوان موجودة فى الجنة، حتى الوعول».

وأتت رأس السنة، وأقمنا احتفالاً صغيرًا عند سريره. ثم جاء برد شديد، ثم انصهر الجليد من جديد، وسقط الثلج على الأرض المكسوة بطبقة زلقة من الثلج، ولكنى لم ألحظ شيئًا من كل هذا. وسمعت أن إليزابث رزقت بمولود ذكر، ثم نسيت الخبر. وجاءنى خطاب طريف من السيدة ناردينى فقرأته بسرعة ونحيته جانبًا وكنت أقضى أعمالى بسرعة

كبيرة وأنا أعى شيئًا هو أنه ينبغى علىّ أن أسرق لنفسى وللمريض كل ساعة أستطيع الوصول إلى سرقتها، كنت أجرى كالمطارد فارغ الصبر إلى المستشفى، وهناك كان سكون بهيج، وكنت أقضى نصف النهار جالسًا إلى سريره بوبى وقد أحاط بى سلام عميق له سمة الأحلام.

وأتيحت له قبل نهايته بفترة قصيرة أيام أفضل.

وكان من الغريب، أن الفترة الزمنية التى لم تكن تنقضى، قد بدت كأنها تلاشت تمامًا من ذاكرته، وأنه كان الآن يعيش فى سنواته المبكرة. وظل يومين لا يتكلم إلا عن أمه. ولم يكن فى مقدوره أن يتكلم طويلا، فكان يسكت الساعات الطوال، ولكن الناظر إليه كان يلاحظ أنه يفكر فى أمه.

وقال لى شاكيًا: «لم أحك لك عنها إلا القليل المسرف فى القلة. ولا ينبغى أن تنسى شيئًا مما يتصل بأمى، وإلا فإنه لن يكون فى الدنيا إنسان يعرف شيئًا عنهم ويحمل لها الامتنان. يا ليت الناس جميعًا تكون لهم أم، يا بيتر، مثل أمى، إنها لم تدفع بى إلى الملجأ، عندما عجزت عن العمل وكسب قوتى».

كان يرقد ويتنفس بصعوبة. ومضت ساعة، وعاد يقول: «لقد كانت تحبنى أكثر الحب وتقدمنى فى ذلك على أولادها جميعًا. وأبقتنى معها إلى أن ماتت. وهاجر أخوتى الرجال، جميعًا أما أختى فتزوجت نجارًا، وبقيت أنا فى البيت، ولم تشعرنى بقسوة الحياة رغم فقرها. لا ينبغى أن تنسى أمى، يابيتر.

كانت ضئيلة الجسم، ربما أكثر منى. وكانت إذا مدت إلى يدها بالتحية، أحس كأن طائرًا ضئيلا حط عليها. وعندما ماتت كفاها نعش من نعوش الأطفال، كما قال لى جارنا روتيمن».

كذلك هو سيكفيه نعش طفل. كان يرقد هكذا ضائعًا صغيرًا فى سرير المستشفى النظيف، وكانت يداه تبدوان كما لو كانتا امرأة مريضة، طويلتين، نحيلتين، بيضاوين ومقوستين قليلا. فلما كف عن الحلم بأمه، كان الدور دورى، كان يتكلم عنى كما لو كنت أجلس وأستمع».

«حقيقة إنه إنسان سيئ الحظ، ولكن هذا أمر لم يضره بشىء. لقد ماتت أمه فى وقت جد مبكر!».

وكنت أسأله: «أما زلت تعرفنى يا بوبى؟».

فيقول مازحًا: «نعم ، ياسيد كامينتسند». ثم يضحك ضحكًا رقيقًا.

وقال بعد ذلك بقليل: «آه لو كنت أستطيع أن أغنى».

وفى اليوم الأخير سأل: «هل تكاليف الإقامة فى المستشفى كبيرة؟ ربما تكلف الأمر الكثير المسرف فى الكثرة».

ولكنه لم يكن ينتظر منى ردًا، وارتفعت حمرة إلى وجهه الشاحب. فقفل عينيه وبدا منظره برهة كأنما هو رجل فى غاية السعادة.

وقالت الممرضة: «النهاية أوشكت»

ولكنه فتح عينيه مرة أخرى، ونظر إلى نظرة شقاوة، وحرك حاجبيه كأنما كان يريد أن يومئ إلى إيماءة. ونهضت، ووضعت يدى تحت كتفه اليسرى ورفعته قليلا، وكان هذا من شأنه أن يريحه. وأطبق شفتيه مرة أخرى.. مرة أخرى وهو راقد على يدى، ثم لف رأسه وارتعد كان بردًا مفاجئًا أصابه. وكان هذا هو الخلاص.

وسألته: «هل أنت مستريح يا بوبى؟» ولكنه كان قد تخلص تمامًا من كل آلامه وبرد فى يدى. كان هذا فى السابع من يناير، بعد الظهر بساعة، واتخذنا الاستعدادات كلها قرب المساء، وظل الجسم الصغير المشوه راقدًا وادعًا نظيفًا لا تشويه فيما عدا تشوهات الخلقة تشويهات أخرى إلى أن حل الوقت لحمله وإنزاله القبر.

وكنت فى خلال هذين اليومين مندهشًا دائم الدهشة، من أننى لم أكن مسرف الحزن ولا مسرف الحيرة، بل ولم أكن حتى أضطر إلى البكاء. كنت قد أحسست بالفراق والوداع إحساسًا عميقًا خلال المرض، حتى لم يبق من ذلك إلا بالقليل، وبدأت كفة ألمى المهتزة ترتفع إلى أعلى ببطء وخفة من جديد.

ومع ذلك فقد لاح لى أن الوقت قد حان لكى أترك المدينة فى سكون، وأن أذهب إلى أى مكان، فى الجنوب أن أمكن، لكى أستريح، وأن أمد خيوط عملى الأدبى التى أعددتها إعدادًا خشنًا على النول على نحو جاد، ولم يكن معى من المال إلا القليل فتركت

مسئولياتى الأدبية معلقة واتخذت العدة لكى أحزم أمتعتى عند مطلع الربيع وأرحل.

كنت أريد أن أذهب أولا إلى بائعة الخضر فى أسيزى، وكانت تنتظر زيارتى، ثم أذهب بعد ذلك إلى مكان هادئ منعزل فى الجبل لأعكف على العمل الجاد. ولاح لى أننى رأيت قطعة كافية من الموت والحياة، تسمح لى بأن أتقدم إلى الناس الآخرين ليسمعونى وأنا أعمل عقلى قليلا فى هذا المضمار. وظللت فى فراغ صبر لطيف أنتظر شهر مارس، وقد سبقنى إحساسى إلى إيطاليا، وامتلأت أذناى بالكلمات الإيطالية القوية، وارتعش أنفى من العبير الحار الذى يفوح من الأرز والبرتقال ونبيذ الكيانتى. كانت الخطة لاعيب فيها، وكانت مرضية لى، وكلما أنعمت فيها النظر، ازداد رضائى، وفى هذه الأثناء، سبقت الأحداث، وشربت من نبيذ الكيانتى، لأن الأمور سارت على نحو آخر.

وأتانى فى فبراير خطاب ملىء بالحركة ومكتوب بأسلوب عجيب من صاحب الحانة نيديجر، يقول لى فيه إن القرية سقط بها ثلج كثير جدًا وأن الحيوان والناس وكل شىء فى حالة ليست كما ينبغى، وأن أبى خاصة ساءت صحته إلى درجة تدفع إلى القلق. والخلاصة أنه سيكون من المفيد أن أرسل إلى أبى شيئًا من المال أو أن أحضر شخصيًا. ولما لم يكن إرسال النقود شيئًا يناسبنى، وكنت قلقًا على الرجل الهرم، فقد قررت الرحيل. ووصلت فى يوم أغبر، كان تساقط الثلوج وهبوب الرياح قد أخفيا الجبال

والبيوت فلم يعد من الممكن رؤيتها، وأفادنى فى هذه المحنة، أننى كنت أعرف الطريق وأنا مغمض العينين. ولم أجد الشيخ كامينتسند كما توقعت فى الفراش. بل وجدته يجلس مسكينًا منكمشًا فى ركن المدفأة، تحاصره واحدة من الجيران أتته باللبن وراحت تبحث معه فى عمق موضوع التحول السيئ فى حياته، ولم يعطل عليها دخولى.

وقال الرجل العجوز الأشيب الذى عب فى حياته الخمر فأثم: «انظرى، ها هو ذا بيترا» وغمز لى بعينه ولكنها استمرت فى موعظتها، ولم تقطع حبل أفكارها. وجلست على كرسى، وانتظرت أن يجف معين حب القريب لديها، ووجدت فى كلامها بعض الفضول التى لم تكن لتضرنى. وكنت إلى جانب هذا أنظر إلى الثلج وهو ينصهر من معطفى وحذائى الطويل، ويكون بقعة مبللة حولى، ثم وهو يتحول إلى بركة ساكنة حول كرسى. فلما فرغت المرأة من حديثها، أمكن أن يجرى اللقاء الرسمى بين أبى وبينى، واشتركت هى فيه اشتراكًا وديًا للغاية.

كان أبى قد فقد الكثير من قوته، وتذكرت محاولتى القديمة للاهتمام به ورعايته، وتبينت أن رحيلى فى ذلك الوقت لم يفده شيئًا، وأنه لم يبق أمامى، وقد ازدادت الحاجة إلىَّ، إلا أن العق ما بقى من الحساء.

على أن الإنسان لا يستطيع أن يطلب من فلاح عجوز كثير التبرم، لم يكن فى أحسن أوقاته مرآة للفضيلة. أن يتحول فى أيام الشيخوخة والمرض إلى

الحلم وأن يشترك فى تمثيل مسرحية حب الابن بقلب يعتمل بالانفعال والتأثر. ولم يفعل أبى بالفعل شيئًا من هذا على الإطلاق، وكان إذا اشتد به المرض. اشتدت غلظته، وأصبح يعيد إلىَّ ما كنت أفعله به قديمًا من تعذيب، أما بإضافة ربح، أو على الأقل بالطريقة نفسها وبالقدر نفسه. كان يقل من الكلام ويحتاط فيه حيالى، ولكنه كان يعرف كمية من الوسائل الفظيعة يعبر بها، بغير كلام عن الغضب والمرارة والغلظة. وكنت أسأل نفسى مندهشًا هل سأتحول أنا كذلك عندما أتقدم فى السن إلى شخص عجيب الأطوار، غليظ الطبع مثله. كان الشراب بالنسبة إليه قد انتهى وأصبح لا يحفل به، وكان يتجرع كأس النبيذ الجنوبى الجيد الذى كنت أقدمه إليه مرتين فى اليوم ممتقع الوجه، لأننى كنت أخفى الزجاجة بعد كل مرة فى المخزن السفلى الخاوى ولم أكن أترك له المفتاح مطلقًا.

وظلت الحال هكذا حتى أواخر فبراير، عندئذ جاءت الأسابيع الناصعة التى تضفى على الشتاء فى الجبال روعة أى روعة. كانت الصخور الجبلية العالية المكتسية بالثلوج ترتفع ناصعة نحو السماء الزرقاء بلون زهرة مرار القمح، وتبدو من خلال الهواء الشفاف قريبة قربًا غير مألوف.

وكانت المروج والسفوح تمتد مغطاة بالثلوج ـ بثليج الشتاء الجبلى الذى لا يجد الإنسان مثيلا له على الإطلاق فى البلاد المنبسطة، بلونه الأبيض ونقاوته البلورية وعبيره اللاذع. وكان نور الشمس يقيم وفى

وقت الظهيرة على التموجات الأرضية الصغيرة أعيادًا حافلة، كانت الظلمة الزرقاء تمتيد فى الأخاديد وفى السفوح المنحدرة. وكان الهواء قد صفا بعد أسابيع طويلة من هطول الثلوج، وأصبح كل نفس يتنفسه الإنسان فى الشمس متعة أى متعة. أما السفوح الصغيرة فكان الصغار يمارسون عليها رياضة الانزلاق بالزحافات بحماس بالغ، فإذا انقضت على الظهر ساعة، رأى الإنسان كبار السن يقفون فى الحوارى وينعمون بالشمس، فإذا كان الليل صخبت عروق السقف من ثقل الثلج المتجمد. وكانت البحيرة تمتد بين حقول الثلج ساكنة زرقاء لا تتجمد على الإطلاق، وقد زاد جمالها عن كل جمال يمكن أن تصيبه فى الشتاء. كنت كل يوم قبل طعام الغذاء أعين أبى على الخروج أمام الباب، وكنت أتطلع إليه وهو يبسط أصابعه السمراء المعقدة المختفية إلى دفء الشمس الجميل. وكان أبى بعد برهة يبدأ فى السعال ويشكو من البرد. وكانت شكواه من البرد حيلة من حيله البريئة ليحصل على كأس من الخمر منى. وكان عند ذاك ينال منى كأسًا صغيرة من الانتسيان أو الابسنت، فيكف بتدريج مفتعل متصنع عن السعال ويفرح من وراء ظهرى بأنه نجح فى الاحتيال علىَّ.

وكنت بعد الفراغ من تناول الطعام أتركه وحده وألف الأشرطة المدفئة على ساقى وأسير عدة ساعات مرتقيًا الجبل على قدر ما كنت أستطيع ثم أفرد جوال فاكهة كنت آخذه معى، على الثلج، وأجلس فوقه، وانزلق به عائدًا إلى البيت فوق حقول الثلج المائلة.

ولما اقترب الوقت الذى كنت أريد أن أرحل فيه إلى أسيزى، كان الثليج لا يزال يغطى الأرض بطبقة سمكها متر. ولم يبدأ الربيع حركته إلا فى شهر إبريل، وأتى على شكل انصهار مفاجئ خطير للثلج انحدر إلى القرية على نحو لم تشهده منذ سنين. وظل الناس يسمعون ريح الفون تعوى ليلا ونهارًا، ويسمعون صخب الانهيارات الجبلية البعيدة وفوران النهيرات الجبلية الفائضة العنيفة، التى كانت تجر قطعًا كبيرًا من الصخر ومن جذوع الشجر المنشقة، وتقذف بها فوق أراضينا والمروج التى بها أشجار فاكهتنا. وتملكتنى حمى الفون وحرمتنى النوم. وظللت الليالى أسمع متأثرًا خائفًا، العاصفة تشكو، والانهيارات الجبلية تقرقع، والبحيرة الثائرة تضرب بمياهها إلى الشواطئ. فى وسط هذا الوقت المحموم الممتلئ بمعارك الربيع الفظيعة تملكنى مرض الحب الذى كنت تغلبت عليه من قبل، تملكنى على نحو عنيف، حتى أننى كنت أنهض فى الليل، وأمدد عند الباب الزجاجى وأصبح وسط صخب وآلام مريرة بعبارات الحب إلى إليزابث.

لم تتسلط علىّ العاطفة بهذا العنف والفظاعة والاستبداد مرة ثانية منذ الليلة الدافئة التى اندفعت فيها من بين الرسامة الإيطالية فى زيورخ إلى التل وقد بلغ بى الحب الجنون. كنت كثيرًا ما أحسن أن المرأة الجميلة تقف قريبة جدًا منى وتبتسم لى وتتراجع رغم ذلك إلى الوراء كلما أتقدم خطوة ناحيتها. كانت أفكارى، ولا أعلم من أين أتتنى هذه

الأفكار، لا تفتأ تعود إلى هذه الصورة، ولم أكن أستطيع أن أتصرف إلا كما يتصرف الجريح الذى يهرش دائمًا أبدًا فى الجرح الذى يحدث به الأكلان. كنت أخجل من نفسى خجلا يؤرقنى ويعذبنى ولا يفيدنى بشىء، وكنت ألعن ريح الفون، وإن كنت فى الوقت نفسه أحس فى السر بجانب كل هذا العذاب، بإحساس بهيج دافئ صامت، كالذى كنت أحسه فى أوقات الصبا، عندما كنت أفكر فى روزى الجميلة، فتغمرنى موجة دافئة غامضة.

وفهمت أن هذا المرض الذى ألم بى ليس له دواء يعالج به، وحاولت على الأقل أن أشتغل ما استطعت. وبدأت أعالج تأليف كتابى، ووضعت خطط بعض الدراسات، ثم تبينت أن الوقت لم يحن بعد لتنفيذ ذلك.

وكانت أخبار الفون السيئة تأتى فى هذه الأثناء من كل ناحية، وكذلك فى قريتنا كانت المصيبة كبيرة وكانت تزيد. كانت سدود النهيرات الجبلية قد تحطم نصفها تقريبًا وكانت بعض البيوت والشون والحظائر قد تعرضت لضرر عظيم، ونزلت إلى القرية أعداد من المشردين القادمين من المناطق الأخرى، كان فى كل مكان أنين ومحنة، ولم يكن فى أى مكان مال، وحدث فى تلك الأيام أن استدعانى العمدة، لحسن حظى. إليه فى حجرته الصغيرة وسألنى إن كنت أريد أن أشترك كعضو فى لجنة للمعاونة على التغلب على المصيبة العامة. وقال لى إنه يثق فى قدرتى على تمثيل قضة القرية فى المحافظة. وعلى دفع البلاد عن طريق الصحافة إلى المساعدة والمعاونة.

وجاءنى هذا العمل فى الوقت المناسب، حتى أتمكن من نسيان آلامى الشخصية السخيفة. بالانهماك فى عمل كريم جاد، ونهضت بالمهمة، واليأس يتملكنى. وتمكنت فى بازل عن طريق الكتابة من اكتساب عدد من أولى الخير الذين قدموا التبرعات على الفور. كنا نعلم من قبل أن المحافظة ليس لديها مال، وأنها لن تستطيع المعاونة إلا بإرسال بعض العمال. فاتجهت إلى الصحف بالنداءات والتقريرات. وجاءت الخطابات والتقريرات والاستفسارات من القرية، وكان علىّ إلى جانب الاشتغال بالكتابة وبأمور مجتمع القرية، أن أناهض عقول الفلاحين الصلبة العنيدة.

وأفادتنى هذه الأسابيع الممتلئة بالعمل العنيف الدائم فائدة كبيرة، وعندما بدأت الأحوال تدريجيًا تعود إلى الطريق الطبيعى، وبدأت الحاجة إلىَّ تقل، كانت المروج قد أخضرت، وكانت البحيرة قد ازرقت بريئة مشمسة وراحت تشرئب بعنقها إلى السفوح التى تجردت من الثلوج. وكان أبى قد بدأ يعيش أيامًا محتملة، وكنت أنا قد تخلصت من محن حبى، التى ذابت كما تذوب بقايا الانهيارات الجبلية القذرة وتلاشت. كان أبى مثل هذه الأيام فيما مضى يطلى الجندول، وكانت أمى فى مثل هذه الأيام فيما مضى تطل إلينا من الحديقة، وكنت أنا أركز بصرى على حركات أبى، وعلى الدخان المختلف الأشكال المتصاعد من غليونه، وعلى الفراشات الصفراء المتطايرة فى الهواء، أما فى هذه المرة فلم يكن هناك جندول يطلى

وكانت أمى قد ماتت منذ وقت طويل، وكان أبى يقعد حزينًا فى البيت الخاوى الكئيب. وكان خالى كونراد يعيد هذه الأيام إلى ذاكرتى. وكثيرًا ما كنت آخذه، على غير مرأى من أبى، إلى حيث أقدم إليه كأسًا من نبيذ، فأنصت إليه وهو يحكى. ويستعيد ضاحكًا طيبة ذكرى مشروعاته الكثيرة، دون أن يتجرد رغم ذلك من الاعتزاز بها. ولكنه لم يكن فى هذه الأيام يقوم بمزيد منها. وكانت الشيخوخة قد رسمت عليه رسومها واضحة شديدة، إلا أنه كان يحتفظ فى حركات وجهه وفى ضحكاته خاصة، بشىء من سمات الطفولة والشبوبة كان يثلج صدرى. كان خالى كونراد فى أوقات كثيرة عزائى وتسليتى، ألجأ إليه عندما يستحيل على احتمال الجو فى البيت عند أبى. وكنت عندما آخذه معى إلى الحانة لأقدم إليه كأسًا من نبيذ، آراه يحرك ساقيه سريعًا بما يشبه القفز بجوارى، ويجتهد خائفًا فى أن تخطو ساقاه النحيلتان اللتان أصابهما الاعوجاج خطوة مثل خطوتى.

وكنت أحثه قائلاً: «فلتتخذ لك شراعًا يا خالى كونراد!» وكنا على ذكر الشراع ننتقل دائمًا إلى الحديث عن جندولنا القديم الذى لم يعد له وجود والذى أصبح علينا أن نبكيه فيمن نبكى من الموتى الأحياء. ولما كان هذا الجندول عزيزًا علىَّ، وكنت أفتقده الآن، فقد كنا نفكر فيه ونتتبع القصص التى جرت لنا معه إلى أصغر التفصيلات.

كانت البحيرة زرقاء كما كانت فى الماضى، ولم تكن الشمس أقل عظمة ولا أقل دفئًا، كنت أنا الصبى

العجوز أنظر إلى الفراشات الصفراء وأحس كأن ما تغير منذ ذلك الحين فى الواقع شىء قليل، وكأننى ما أزال أستطيع أن أتمدد فى المروج وأسترسل فى أحلام كما كنت أفعل أيام كنت صبيًا. أما أن ذلك لم يحدث، وأننى قد استهلكت من حياتى أعوامًا لا سبيل إلى استعادتها، فشىء كنت أستطيع كل يوم أن أراه عندما أغتسل، عندما أنظر فى مياه الحوض الصاجى الصدئ وأرى صورة رأسى بأنف قوى وفم حزين تلمع أمامى. وكان كامينتسند الكبير، أبى، يفعل ويظهر ما يجعلنى أحس بتغيير السنين إحساسًا لا مراء فيه، فإذا ما أردت أن أتزحزح إلى الحاضر تمامًا. فكان يكفينى أن أفتح الخزانة العتيقة التى فى حجرتى، والتى كان عملى القادم يرقد فيها وينام، وفى حزمة من التصميمات المتقادمة، وعدد من الخطط بين ست وسبع ومدونة على أوراق كبيرة. ولكنى ما كنت أفتح الخزانة إلا نادرًا.

وكنت إلى جانب رعاية أبى الهرم، أقضى الوقت الكثير فى إصلاح البيت الذى أصابه التلف من جوانب كثيرة. كانت الأرضيات تتخللها الحفر العميقة. وكانت المدفأة والفرن مصابتين بالعيوب، وكان الدخان ينفذ منهما ويملأ المكان بما لا ينبغى، وكان السلم الخشبى الموصل إلى المخزن العلوى، الذى كان فيما مضى من الزمان مسرح العمليات التأديبية التى كان أبى يخضعنى لها، قد أصابه الخلل حتى أصبح خطرًا على الحياة، وكانت الأبواب لاتغلق.

وكان عليَّ قبل أن أشرع فى هذه الأعمال أن أشحذ البلطة، وأرتق المنشار، وأستعير الشاكوش وأجمع المسامير، ثم كان عليَّ بعد ذلك أن أبحث فى المخزون المتعفن من الأخشاب عن قطع تصلح للاستعمال. وقد إلى الخال كونراد فى إصلاح العدد وحجر السن القديم شيئًا من المساعدة، ولكنه قد تقدم فى السن إلى درجة كبيرة، وانحنى ظهره، وأصبح لا يفيد بشىء كثير. وهكذا أتلفت يدى، يداى الأديب الرقيقتان، أثناء معالجة الخشب العنيد، وأدرت مسن السكين والبلط برجلى، وتسلقت فوق السطح الذى كانت به الخروق المنفذة للمطر فى كل ناحية، وصرت أسمر وأدق وأرتق وأقطع وأصب أنا الرجل المنعم الكثير من قطرات العرق، وكنت فى أثناء العمل، وخاصة أثناء إصلاح السطح، أقف أثناء الدق، وأجلس جلسة معتدلة وأشد أنفاسًا من سيجارى الذى أوشك أن ينطفئ، وأنظر إلى زرقة السماء العميقة وأتمتع بخمولى وأنا أنعم بالشعور بأن أبى لا يستطيع الآن على الإطلاق أن ينهال عليّ بالحث والتبكيت.

وكان الجيران إذا مروا بى، نساء وشيوخًا وولدانًا، أتجاذب معهم أطراف حديث جيرانى ودى، أجمل به كسلى، وكنت بهذا أكتسب بالتدريج سمعة كرجل أصبح من الممكن أن يتكلم معه الآخرون كلام عقل.

«هل ستوقدين المدفأة اليوم يا ليسبت؟».

«طبعًا يا بيتر.. ماذا تعمل؟».

«أرتق السطح».

«هذا عمل لا بأس به، وكان من الضرورى القيام به منذ وقت طويل».

«فعلا! فعلا!».

«وكيف حال الوالد؟ لا شك أنه يبلغ السبعين بسهولة».

«بل قولى الثمانين، يا ليسبت، الثمانين. وما رأيك فى يوم تصبح فى مثل سنه؟ لن يكون هذا مما يفرح به الإنسان».

«عندك حق، يا بيتر.. والآن ينبغى أن أسير فزوجى ينتظر الطعام. هه أول همه!».

«مع السلامة يا ليسبت».

وبينما هى تسير إلى زوجها حاملة إليه الطعام ملفوفًا فى منديل، أنفث أنا سحابات من سيجارى إلى الهواء، وأنظر فى أعقابها، وأفكر كيف يمكن أن يسعى الناس جميعًا هكذا مجدين إلى أعمالهم، وأنا أمضى يومين كاملين فى الدق على عرق خشب واحد. على أن السطح تم إصلاحه فى النهاية. وكان الأب مهتمًا بهذه العملية اهتمامًا غير عادى، وكنت أحكى له بالتفصيل كل شىء وأقدم له حسابًا عن كل لوح صغير، لأننى لم أكن أستطيع أن أجره إلى أعلى السطح. وكنت فى أثناء ذلك أسترسل فى شىء من التهويل.

وكان يقول: حسنًا! حسنًا! لم أكن أعتقد أنك ستفرغ من السطح هذا العام.

وأنا عندما أستعرض رحلاتى ومحاولاتى فى الحياة، وأشملها ببصرى وفكرى، وأصل إلى نتيجة تفرحنى وتغيظنى فى وقت واحد إلى حقيقة معروفة ثبتت صحتها فى حالتى كذلك، وهى أن السمك مكانه الماء، والفلاحين مكانهم الريف، وأن تحويل واحد اسمه كامينتسند من أهل نيميكون إلى إنسان من أهل المدينة والمجتمع الرفيع، شىء محال مهما لجأ الإنسان إلى حيل وفنون. وعودتنى نفسى على أن أجد أن هذا شىء سليم. وأن أكون مسرورًا لأن مسعاى الأحمق لنيل سعادة الدنيا قد ساقنى رغم إرادتى إلى الركن القديم بين البحيرة والجبال، وأعادنى إلى المكان الذى هو مكانى، والذى تعتبر فيه فضائلى ورزائلى، وبخاصة رزائلى، شيئًا عاديًا جرت به التقاليد. عندما كنت بعيدًا فى الغربة. نسيت وطنى وأوشكت أن أعتبر نفسى نباتًا غريبًا فريدًا عجيبًا. وهأنذا أرى الآن من جديد. أن الشىء الذى كان يضطرب فى كالشبح. ويمتنع عن الاعتياد على ماجرى عليه العرف فى بقية العالم، هذا الشىء هو الروح النيمكونية، هو الشىء المميز لقريتنا وأهلها. هنا فى القرية لايخطر ببال مخلوق أن يعتبرنى إنسانًا غريب الأطوار، وإذا أنا تأملت أبى الهرم وخالى كونراد، تبينت أننى الابن الطبيعى لأبى، وأننى أبن الأخت الطبيعى لخالى، وأن رحلاتى التائهة الحائرة فى دنيا الفكر ومايسمى بالثقافة، ليمكن بكل يسر مقارنتها برحلة خالى بالقارب الشراعى الشهيرة، مع فارق هو أن رحلتى كلفتنى من المال أكثر ومن الجهد

أكثر ومن الأعوام الجميلة أكثر مما كلفته رحلته. كذلك من ناحية الظاهر. أصبحت بعد أن قص لى ابن عمى «كونى» شاربى، وبعد أن عددت إلى ارتداء البنطلون ذى الحمالات والقميص ذى الأكمام، واحداً من أبناء المكان تماماً، وأصبح فى إمكانى دون أن يستغرب إنسان مسلكى، أن أتخذ مكان أبى وألعب دوره فى حياة القرية، عندما تشيب رأسى وتتقدم بى السنوات. إلا أن الناس يعلمون أننى قضيت أعواماً طوالا فى الغربة، وأنا أحرص كل الحرص على ألا أذكر لهم الحرفة الحقيرة التى مارستها هناك، وألا أعدد لهم البرك القذرة التى وقعت فيها، حتى لا أنال منهم كنية ساخرة. فأنا كلما حكيت عن ألمانيا وإيطاليا أو باريس أنفخ أوداجى قليلا، وأوشك أنا نفسى فى بعض المواضع الصادقة أكبر الصدق، هل كانت فعلا كذلك.

وماذا نتج الآن عن الرحلات الضالة الكثيرة والسنوات المستهلكة العديدة؟ المرأة التى أحببتها، والتى مازلت أحبها، تربى فى بازل طفليها الجميلين. والأخرى التى أحبتنى، عزت نفسها وتسلت عنى، ومازالت تتاجر فى الفاكهة وفى الخضر وفى البذور. والأب الذى عدت إلى القرية من أجله، لا وصل إلى الموت ولا وصل إلى إلى الشفاء، بل هو يقعد أمامى على سريره الصغيرة الخامل ويتطلع إلىّ ويحسدنى على مفتاح المخزن السفلى الذى فى حوزتى.

ولكن هذا ليس كل ما فى الأمر. إن لى فى السماء علاوة على أمى، وصديقى الغريق، الشقراء

الصغير أجى، والعاجز المحدب بوبى، يعيشون هناك ملائكة. ورأيت البيوت التى هدمتها الكارثة فى قريتنا تصلح والسدود الحجرية تقام من جديد. ولو شئت لأصبحت عضوًا فى مجلس القرية، ولكن مجلس القرية يمتلئ بكثيرين ممن يحملون اسم كامينتسند.

وفى المدة الأخيرة انفتح أمامى سبيل آخر للمستقبل، فقد بدأ نيديجر، صاحب الحانة التى شربت وشرب أبى فيها الكثير من زجاجات نبيذ الفلتلينر والفاليزر أو الفاتليندر، بدأن ينحدر صحيا إلى أسفل، ولم يعد كلفا بالعمل فى الحانة. وقد أخذ فى هذه الأيام يشكو لى محنته. وأخطر شىء يمكن أن يحدث إذا لم يتقدم أحد من أهل البلد لتولى الحانة، هو أن يتقدم مصنع بيرة من الخارج ويشتريها. ويفسد كل شىء، ولا نجد بعد ذلك فى نيمكيون مائدة فى حانة نصفو إليها. وسيوضع فى الحانة متعهد غريب، يفضل بطبيعة الحال البيرة على النبيذ، ويفسد مخزن النبيذ الجيد حتى يتسمم، ومنذ أحطت بهذا علمًا، والهدوء لا يصيبنى ـ ولى فى مصرف فى بازل شىء من المال، ولا شك أن نيديجر العجوز لن يجد فىَّ خلفا سيئًا له مسرف السوء. والمشكلة الوحيدة فى هذا المشروع هو أننى لا أريد أن أصبح صاحب حانة طالما كان أبى على قيد الحياة. فمن ناحية لن أستطيع أن أباعد بينه وبين عب الخمر، ومن ناحية أخرى سيجد فى هذا نصرًا له، لأننى رغم تعلم اللاتينية ورغم الدراسات العالية، لم أصل إلى درجة أعلى من درجة صاحب حانة فى نيميكون، هذا لا يمكن. فإننى بهذا

أكون قد بدأت تدريجيًا فى انتظار موت الشيخ. لا عن فراغ صبر، ولكن عن أمل فى خير الأمور.

أما خالى كونراد فقد استسلم منذ مدة قصيرة إلى ظمأ جديد إلى العمل، كان قد خمد فى نفسه منذ سنوات ولكنه لم يكن قد تلاشى تمامًا. كان دائمًا يضع أصبع السبابة فى فمه ويقطب جبينه، يقطع حجرته على عجل جيئة وذهابًا. ويكثر النظر إلى الماء كلما صفا الجو.

كانت أغنيته القديمة تقول «أنا أعتقد دائمًا، أنه يريد أن يبنى سفينة». والحق أنه كان يبدو نشيطًا جريئًا كما كان يبدو منذ أعوام طوال، وكان وجهه يتسم بسمة ذكية نبيهة متفرقة، وكأنما كان الآن يعرف بالضبط كيف يصمم السفينة الشراعية على أكمل وجه هذه المرة. ولكنى أعتقد أنه لم يصل إلى شىء، وأن كل ما به لا يعدو وهنا أصاب روحه، فأصبحت الآن تسعى إلى أجنحة لتعود إلى عالمها. عليك أن تتخذ شراعًا، أيها الخال العجوز. ولكن عندما تأتيه منيته، فسيرى أهل نيميكون شيئًا لا عهد لهم به. فقد قررت فيما بينى وبين نفسى، وأنا أقول كلمتين على قبره، بعد أن يفرغ الكاهن من شعائره، وهو شىء لم يحدث هنا مطلقًا، سأشيد بذكرى الخال كرجل سعيد فى الدارين وكواحد من أحباب الله ، وسيتبع هذا الجزء المليء بالعظة، حفنة لا بأس بها من الملح والفلفل للحزانى الأحباء، الذين لن ينسوا لى هذا العمل ولن يسامحونى عليه وعسى أن يعيش أبى ويرى ذلك اليوم!.

وكـانت فى الخـزانـة الأجـزاء الأولى من عـمـلى الأدبى الـكبيـر، بل يمكننى أن أقول من «عمل حياتى» تلك عبارة لها جرس مؤثر مهول، ولكنى أفضل قولها، لأن إكمال وإتمام هـذا العمل أمران يقفان على ساقين واهنتين وربما يأتى من جديد الوقت الذى أبدأ فيه من جديد، فأستمر أكمل العمل وأتمه إلى نهايته. عند ذاك يكون حنين شبابى قد أصاب ولم يخطئ، وأكون قد كنت شاعرًا بالفعل.

وسيكون هذا بالنسبة إلىَّ، مساويًا تقريبًا للعمل كعضو فى مجلس القرية يهتم بالسدود الحجرية ولكنه لن يساوى ما مضى من حياتى فلم يتلاش، بكل ما فيه من صور أناس أحباء، ابتداء من الرشيقة روزى جيرتانر إلى المسكين بوبى.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتر.

٣ ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

٥ ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

٦ ـ «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

٧ ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

٨ ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

٩ ـ العاشقات.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٠ ـ نوّة الكرم.. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

١١- «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى «إيتالوكالڤينو» رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

١٢- القلعة البيضاء.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٣ - أين تذهب طيور المحيط.. للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

١٤ ـ قرية ظالمة.. للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

١٥ ـ الرجل البطىء.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى» رواية .. جائزة نوبل.

١٦ ـ طحالب.. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ ـ شوشا.. للكاتب البولندى «اسحق باشيفتس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ - شارع ميجل.. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

١٩ ـ الحياة الجديدة.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٢١ ـ الآخر مثلى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

٢٢ ـ المستبعدون.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية ـ جائزة نوبل.

٢٣ ـ الأنثى كنوع .. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى.. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات.. جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُسّتلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بيريباروبيا.

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. رواية.. جائزة البوكر.

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٠ ـ يوميات عام سئ.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.

٥٢ ـ إنقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى.

٥٤ ـ اللعب مع التمر.. للكاتبة الانجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا .

٦٤ ـ رحلة العم ما.. للكاتب الجابونى «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

٦٧ ـ داى.. للكاتبة الأسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ ـ الحب المدمر.. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ ـ أين نذهب يابابا؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٧٠ ـ نداء دينيتى.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧١ ـ صخب الميراث.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧٢ ـ المؤتمر الأخير.. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

٧٣ ـ كتاب الرسم والخط.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٧٤ ـ كلُّ رجل.. للكاتب الأمريكى «فّيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٧٥ ـ نُريد أن نتحدث عن كيڤين.. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.

٧٦ ـ ألم فذ.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

٧٧ ـ أناقة القنفذ.. للكاتبة الفرنسية «موريل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

٧٨ ـ حزن مدرسى.. للكاتب الفرنسى «دانيال بناك».. رواية.. جائزة روندو.

٧٩ ـ غدًا.. للكاتب الألمانى «فالتر كاباخر».. رواية.. جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

٨٠ ـ الكلمة المكسورة.. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

٨١ ـ أن نُصبح أغرابًا.. للكاتبة الإنجليزية «لويز دين».. رواية.. جائزة بيتى تراسك.

٨٢ ـ المرأة المسكونة.. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة اتحاد الناشرين.

يصدر قريبًا من هذه السلسلة

١ ـ بيت السيد بيسواس.. ف. س. نايبول.. جائزة نوبل ٢٠٠١.

٢ ـ مدريد الأصيلة.. كارلوس أرنيتشيس.. وسام الاستحقاق ١٩٣٥.

٣ ـ لافينيا.. أوروسولا كي لى جوين.. جائزة ديمون نايت التذكارية الكبرى ٢٠٠٣.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

الرواية

هذه هى الرواية الأولى لـ"هرْمَنْ هيسّه"، ولكن وكما يؤكدُ الأستاذ الدكتوَر/ مصطفى ماهر الذى قدم مؤلفاته للمكتبة العربية وأشهرها "لعبة الكريات الزجاجية". فـ"بيتركامينتسند" تحتوى على عناصر كثيرة ظلت ملازمة للكاتب فى أعماله كلها فيما بعد، فهى رواية بها الكثير من الرومانتيكية المحدثة التى تنطلق فيها العاطفة الصارخة، والتى تدخل فيها عناصر الطبيعة بفطرتها إلى محيط الحياة الإنسانية، ويصبح الاندماج بين الإنسان والطبيعة بين مشاعره الوجدانية وبين انطباعاته الحسية من أهدافها أولاً ومن مميزاتها بعد ذلك، والطبيعة عند "هرْمَنْ هيسّه" فى "بيتركامينتسند" هى الأصل وهى الشىء المهم: وهى التى تعنى الإنسان "الفرد". وهذه الطبيعة هى أخت الإنسان، وهى أفضل من الإنسان؛ لأنها مجردة من الشر والخير.

الروائى: هرْمَنْ هيسّه، الروائى الألمانى الشهير.
الجائزة: جائزة نوبل عام ١٩٤٦.





الهيئة المصرية

ISBN# 9789774216924



١٠ جنيهات